«عبد الكريم الخطابي: تاريخ محاصر في ذاكرة مغيّبة» مشروع كتاب ل:ذ.علي الادريسي:

الجمهورية الريفية..مسار أسرة الخطابي في المنفى..
مصادر معاشها وعلاقاتها مع الجهات الرسمية في المغرب



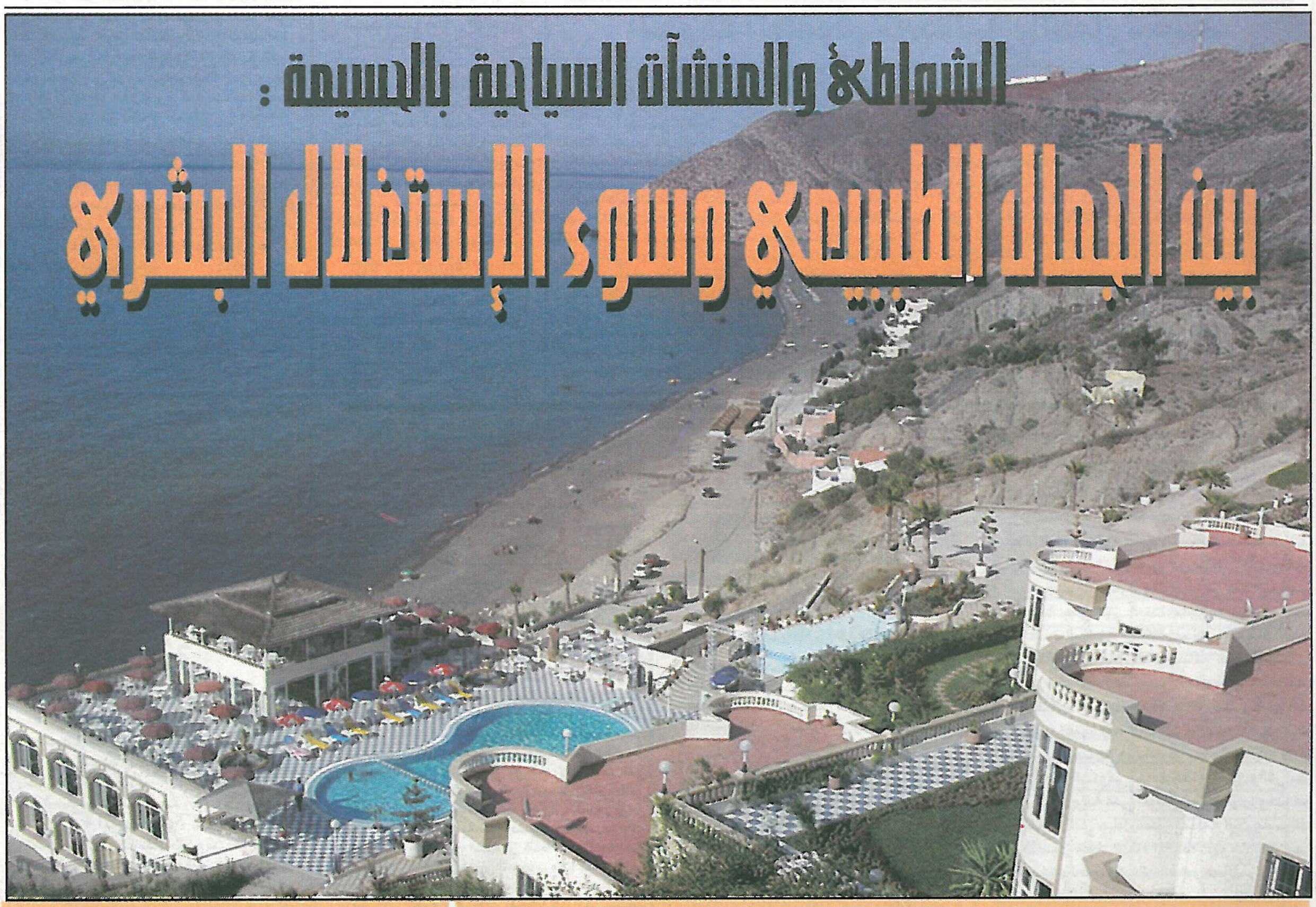
معالم الريف

تيفراز

أسبوعية جامعة مستقلة تصدر مؤقتا مرة في الشهر E-mail:tifrazrif@menara.ma

مدير النشر:حسن الجرموني رئيس التحرير:سعيد الغزواني سكرتير التحرير:عبد المنعم الأزرق إ.ق:0013-2003 - م.ص:2003-1 - ردمك:2362-6364 العدد:14 - يونيو 2004 الثمن: 5 دراهم

الشواطئ والمنشآت السياحية بالحسيمة :
بين الجمال الطبيعي وسوء الإستغلال البشري



تاريخ :

- ملاحظات حول مقال « الحرب الكيماوية في الريف »
- قراءة في مسار الغزو العربي للغرب الإسلامي

فكر وثقافة :

- الثقافة الأمازيغية بين الكوني والمحلي

قافلة أجدير للحقيقة أو تطهير الريف من آثار زلزال إقبارن



تحت شعار: من أجل تطهير الريف من آثار زلزال إقبارن، نظم المنتدى المغربي للحقيقة والإنصاف ما أطلق عليه قافلة أجدير للحقيقة أيام ٤و٥و٦ يونيو الجاري وفق البرنامج التالي:

١- يوم السبت ٥ يونيو على الساعة التاسعة صباحا بالساحة الكبرى وسط المدينة:

- استقبال قافلة المنتدى المغربي للحقيقة والإنصاف.

٢- مساء نفس اليوم على الساعة الثالثة بقاعة الأفراح:

- افتتاح ندوة حول: الإعلام والانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، ثم عرض شريط مصور لبعض حالات الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالريف (مدته ٢٠ دقيقة). وفي حدود الساعة الثامنة انطلاق الأمسية الغنائية والشعرية.

٣- مسيرة جماعية في اتجاه أجدير يوم ٦يونيو٢٠٠٤ ابتداء من الساعة العاشرة صباحا (مكان الانطلاق: الساحة الكبرى وسط المدينة).

ولئن كان هناك أعضاء من اللجنة المحلية لتنظيم برنامج هذه القافلة قد عبروا عن ارتياحهم لنجاح هذه القافلة بالنظر إلى الإمكانيات المحدودة للمنظمين، فإن الكثير من المتتبعين - منهم أعضاء من اللجنة التنظيمية أيضا كانوا قد أعربوا عن استيائهم من التوقيت غير المناسب لبرمجة هذا النشاط الهام، مما جعلهم يحكمون على هذا النشاط بالفشل قبل انطلاقته. وقد خص محمد الصبار رئيس المنتدى جريدة تيفراز بالتصريح التالي:

رئيس المنتدى المغربي للحقيقة والإنصاف محمد الصبار يصرح ل: تيفراز

الحركة الحقوقية مطالبة بالعمل للكشف عن الحقائق حول هذه الحقبة الدموية(٥٨/٥٩)

" المنتدى المغرب للحقيقة والإنصاف قرر تنظيم قافلة سميت بقافلة أجدير نحو الحقيقة، لتستقر بالحسيمة ولتنعقد ندوة على هامشها، حول: " دور وسائل الإعلام العمومية في تعاطيها مع موضوع الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان". ويأتي اختيارنا لهذه المحطة بالضبط، بغاية تسليط الأضواء على الأحداث التي عرفتها هذه المنطقة منذ بداية الاستقلال وتحديدا ما بين سنتي ١٩٥٩/٥٨، والتي يعرفها أهل المنطقة بزمن إقبارن. لذلك، فنحن استعرنا هذا المصطلح الأمازيغي وأدخل في شعار هذه القافلة. فعلا خلال هذه الفترة ظلت الأمور إلى حد ما معتمة، وللأسف الشديد أن الكتابات حول هذه الفترة التاريخية شحيحة جدا، بالرغم من وجود مجموعة من الذين عايشوا هذه الفترة، وبالرغم من وجود شهادات متعددة ومتنوعة لسكان المنطقة/الحسيمة، فإن الحركة الحقوقية مطالبة بالعمل، بشكل مكثف، للكشف عن مجموعة من الحقائق حول هذه الحقبة الدموية ببلادنا والبحث عن المعلومات الكافية لأجل تكوين صورة ولو تقريبية عما وقع بالضبط، علما أنه إذا استطاعت هيئة الإنصاف والمصالحة أن تتوفر على أرشيفات الدولة الرسمية، فمما لاشك فيه أنها ستجد أثرا لكل ما وقع سواء من حيث القرار السياسي ومن حيث التنفيذ السياسي. نعتقد أنه بالإضافة إلى القمع المكثف والممنهج الذي وصل إلى حد الاغتصاب والتنكيل بالناس ونهب ممتلكاتهم، لم يقتصر على خلق أضرار للمواطنين فرادى وجماعات، بل نتج عنه تهميش لهذه المنطقة وضرب الحصار عليها، بحيث أنها لم تستفد من أية مخططات تنموية وظلت تحسب ضمن دائرة المغرب غير النافع".

جماعة آيث عبد الله... يتساءلون

أمر لا يستسيغه المنطق ما يحدث في جمعية "تالوين" للتنمية والثقافة لآيت عبد الله حتى تحولت من جمعية غير حكومية يفترض فيها ترسيم قيم المواطنة وتعرية واقع التهميش والتسلط الذي ظلت المنطقة ترزح تحت وطأته منذ عهود ، إلى جمعية مخزنية __ مافيوية بامتياز، وهذا الكلام ليس من باب المزايدة بقدرما هو واقع تترجمه الجمعية في شخص رئيسها الحالي بمعية رزنامة من الوصوليين ، واقع سخيف للغاية لم يشهد له مثيل في تاريخ العمل الجمعوي ولو في سنواته العجاف. فالمساعدات الإنسانية التي توصلت بها هذه الجمعية وإلى حدود كتابة هذه السطور قدمت ووزعت و"لازالت" على المخزن وأعيانه المعروفين تاريخيا ، وهذا من غرائب العمل الجمعوي بالمنطقة ، حيث شاءت قريحة رئيس الجمعية المفضوحة والغير المسؤولة واللجوء إلى توزيع الإعانات على الممثلين الجماعيين لغرض تعبئة الكادح لأفق انتخابي صرف ، عوض تفقد أحوال المنكوبين من هول الكارثة الزلزالية التي دمرت مختلف دواوير المنطقة. في جملة واحدة إن هذه الإعانات قدمت على شكل هدايا وقرابين للمخزن وما تبقى منها أصبحت في كف عفريت، وما خفي أعظم. والسؤال المطروح في هذا المجال، إلى متى ستظل هذه الجمعية تستظل بمظلة المجتمع المدني؟ سؤال جوهري ووجيه، لا سيما أن هنالك من يحاول خلط الأوراق خوفا من ايضاح الحقيقة وتحديد المسؤولية وهو أهم شيء يستلزم الوقوف عنده بجدية، فهل سيجيب رئيس الجمعية على هذا العبث الذي يريد إخفاءه مع العلم أن المثل الريفي في هذا المجال يقول : " ثمدجالين أوتنفارنت "ذكشناج". مهما حاول ذلك ، والتاريخ إن قرر يوما فأيث عبد الله يتساءلون.

فاعل جمعوي

استقالات احتجاجية

نظرا للخروقات والتجاوزات الخطيرة التي تمادى فيها رئيس جمعية "تاليوين" للتنمية والثقافةلآيث عبد الله.. أساسا خرقه للقانون الأساسي مع استصداره لقرارات لا مصداقية لها، وكذا إخفائه للوثائق الواردة باسم الجمعية وتزويره لأخرى، آخر هذه الخروقات مقاضاته للمواطن: رشيد أشهبار، الذي أدين ب ٣ أشهر سجنا باسم الجمعية دون اجتماع أعضاء مكتب الجمعية... إذ نعلن نحن الأعضاء استقالتنا من هذه الجمعية كما نعلن عدم تحملنا لأية مسؤولية في الخروقات التي عشعشت في هذه الجمعية.

حسن العيادي: الكاتب العام
محمد الغلبزوري: أمين المال

تذمر واستياء

يعيش سكان جماعة بني عبد الله على امتداد خريطة دواويرها حالة من التذمر والاستياء نتيجة ما آلت إليه أوضاعهم المزرية منذ الزلزال الذي ضرب المنطقة، حيث لا زالوا يقبعون داخل خيمهم في انتظار الحل الممكن لبناياتهم المنهارة. ومما زاد من هذا التذمر حكومة جطو التي خيبت آمالهم حين أدرجت هذه الأخيرة البنايات المشكلة للخطر والبنايات الغير القابلة للاستغلال حسب نتائج الخبرة التقنية التي أجراها: المختبر العمومي للدراسات والتجارب ضمن خانة الإصلاح فقط، رغم أن هذه الخبرة تعتبر هذه البنايات / المنازل مصدر خطر ينبغي تهديمها وإعادة بنائها من جديد. إلا أن البرنامج الحكومي تفادى هذا المنظور وألقى بكل ثقل المسؤولية على المواطن مرة أخرى. وهذا هو السبب الذي جعل سكان منطقة ايت عبد الله يرفضون مواد البناء المقدمة لهم مادامت أنها غير كافية لبناء السكن العادي فبالأحرى السكن المضاد للزلازل.

إعداد: ع.ح

آيث بوعياش

ثانوية ابن رشد:

كرة القدم في خدمة السيكولوجيا

في إطار تفعيل الحياة المدرسية وتقديم الدعم السيكولوجي للتلاميذ قصد تجاوز المراحل النفسية الصعبة التي مروا بها جراء الزلزال العنيف الذي هز إقليم الحسيمة، نظمت ثانوية ابن رشد بطولة في كرة القدم المصغرة شارك فيها عشر فرق تابعة للمؤسسة المذكورة.

وفي جو حماسي كبير وبحضور تلاميذي مكثف انطلقت المبارة النهائية التي جمعت بين فريق نجوم ابن رشد وفريق أيت بوخلف وذلك يوم ٢٦ ماي ٢٠٠٤ على الساعة الثانية والنصف بعد الزوال . استاذ التربية البدنية الذي قاد هذا اللقاء بمعية لجنة تنظيمية مكونة من تلاميذ الثانوية ساهم بشكل كبير وملفت للنظر في ضبط مجريات هذه المقابلة.

خلال هذا اللقاء الرياضي ، أبان التلاميذ المشاركون فيه عن ممارسات انضباطية لقانون اللعب بروح رياضية عالية. تشجيعات المتتبعين وايقاع اللعب أعطيا لهذا اللقاء الكروي نكهة خاصة، المقابلة انتهت بفوز فريق ابن رشد على حساب فريق أيث بوخلف بحصة أربعة أهداف مقابل ثلاثة بينما جاء في المرتبة الثالثة فريق زلزال الحسيمة الذي ساهم بدوره خلال كل مراحل هذه البطولة في إعادة الفرحة والبسمة إلى كل متتبعي هذا الدوري عكس زلزال ٢٤ فبراير الذي سرق منا أحلامنا وتسبب لنا في الكثير من الألم و الحرقة.

وتوجت هذه المبارة النهائية بتوزيع الميداليات والشواهد التقديرية على التلاميذ المشاركين في هذه النهائية .

وانسجاما مع مقتضيات ميثاق التربية والتكوين فإن جميع المقابلات التي عرفها هذا الدوري كانت تتم خارج أوقات العمل كما جاء على لسان مدير الثانوية.

وللإشارة كذلك فإن هذه المؤسسة عرفت العديد من الأنشطة الرياضية والثقافية والتربوية ساهمت فيها إطارات جمعوية محلية وعلى رأسها جمعية بويا للثقافة والفنون.

إن هذه المؤسسة التربوية بطاقمها الإداري والتربوي وقياسا مع حجم الأنشطة التي عرفتها خلال هذا الموسم الدراسي تكون قد أسست للفعل التربوي التشاركي وبادرت إلى انفتاحها على المحيط محاولة منها لتجاوز الإيقاع الرتيب والروتيني الذي تسير عليه أغلب المؤسسات التعليمية ومن تم إبراز دور التنشيط التربوي والثقافي كوجه من الممارسة التربوية الفعالة.

محمد بوطسغونت

تهنئة

بناء على حصولهما على أعلى معدل سنوي على مستوى نيابة اقليم الحسيمة تم انتقاء التلميذتين: أشهبار أمل والوعزيزي مريم، من ثانوية ابن رشد بابن بوعياش ، لأجل المشاركة في حلقة تكوينية بجامعة الأخوين بإفران ما بين 14يوليوز و17 منه. وبهذه المناسبة نهنئ تلميذتينا ونتمنى لهما مزيدا من النجاح والتألق في مسيرتهما الدارسية.

تيفراز

□ مدير النشر: حسن الجرموني
□ رئيس التحرير: سعيد الغزواني

▪ سكرتير التحرير: عبد المنعم الأزرق
▪ المستشار الفني: عبد القادر السكاكي
▪ هيئة التحرير: جمال المحدالي الحسن أسويق - محمد الداودي
▪ المتعاونون: محمد بوطسغونت فريد الحمدوي - رشيد الموساوي أحمد الشيخي - حكيم مسعودي

▪ رقم الإيداع القانوني: 2003/0013
▪ ملف الصحافة: 03-1
▪ عنوان المراسلة: شارع المرابطين رقم 22- الحسيمة
▪ الهاتف: 039982250
▪ الفاكس: 039980584

▪ رقم الحساب البنكي: 21111536012900017
البنك الشعبي - وكالة محمد الخامس - الحسيمة
▪ التصفيف: والاخراج: تيفراز
▪ السحب: مطابع الميثاق
▪ التوزيع: سوشبريس

بيان اللجنة المحلية لمتابعة آثار الزلزال بجماعة آيت قمرة

لقد مرت ثلاثة أشهر على الزلزال الذي ضرب إقليم الحسيمة ونواحيه، وعشر سنوات عن زلزال ماي 1994 ولازال سكان الإقليم يقاسي ويلات وتبعات زلزال 24 فبراير 2004 من قبيل المبيت في العراء في ظروف تنعدم فيها أدنى شروط الحياة، وما يترتب عن ذلك من مخاطر الزواحف وأمراض فتاكة تهدد سلامة ساكنة الإقليم.

وفي الوقت الذي كان فيه سكان الإقليم يعيش على بصيص من الأمل في تدبير جيد لتبعات الزلزال يأتي البرنامج الحكومي المعلن من طرف الوزير الأول يوم الاثنين 24 ماي 2004 ليبدد كل الآمال والانتظارات، ولا سيما في الشق المتعلق بإعادة إسكان المتضررين، وكذلك الضبابية التي اعترت البرنامج الحكومي في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية زاعما فك العزلة عن المنطقة، وهذا ما يؤكد استمرار الدولة المخزنية في نهج سياسة تأبيد الحصار المضروب على المنطقة.

واعتبارا منا لضخامة حجم الفاجعة التي تعرض لها سكان إقليم الحسيمة وسكان جماعة آيت قمرة خاصة، نعلن للرأي العام المحلي الوطني والدولي ما يلي:

1. رفضنا للبرنامج الحكومي المعلن عنه لاسميا الشق المتعلق بإعادة إسكان المنكوبين، والذي يتعارض كليا مع قانون البناء المضاد للزلازل.
2. رفضنا لنتائج الخبرة التقنية المغشوشة واللاعلمية التي شابتها خروقات في تحديد حجم الأضرار التي لحقت بالبنايات وكذلك الزبونية والمحسوبية وإقصاء لأغلب المنازل رغم ما رصد من أموال لهذه العملية.
3. استنكارنا لتوقيع رؤساء الجماعات المتضررة على نتائج الخبرة.
4. تحميل المسؤولية للحكومة ولكل المتمخزنين في فرض البرنامج الحكومي عنوة والذي يهدف بالأساس إلى جعل الريف مقبرة جماعية لساكنتها.
5. نستنكر المنع الذي تعرضت له مسيرتنا، والذي يتعارض مع حق التظاهر والاحتجاج.
6. ندين بشدة السلوك الذي التجأ إليه ممثل السلطة المحلية وأعوانه (محاولة إرغام البعض على تسليم التعويض تحت التهديد) وهذا ما يتنافى مع حقوق الإنسان.

مطالبتنا ب:

- إعلان إقليم الحسيمة منطقة منكوبة، وما يصاحبها بأفضلية اقتصادية واجتماعية وسن برنامج حكومي لتنميتها بشكل شامل.
- اعتبار كل البنيات التقليدية غير صالحة للسكن.
- إعادة بناء كل البنيات التقليدية حتى لا يعاود سيناريو زلزال 1994 وذلك برصد ميزانية كافية لإعادة البناء.
- مطالبتنا برصد كل الدعم المالي (الوطني والدولي) لإعادة إسكان المنكوبين (ستتكفل الدولة بالبناء).

وفي الأخير نهيب بكل المناضلين والفعاليات والإطارات في مواصلة كل الأشكال النضالية لتحقيق المطالب المشروعة لسكان إقليم الحسيمة.

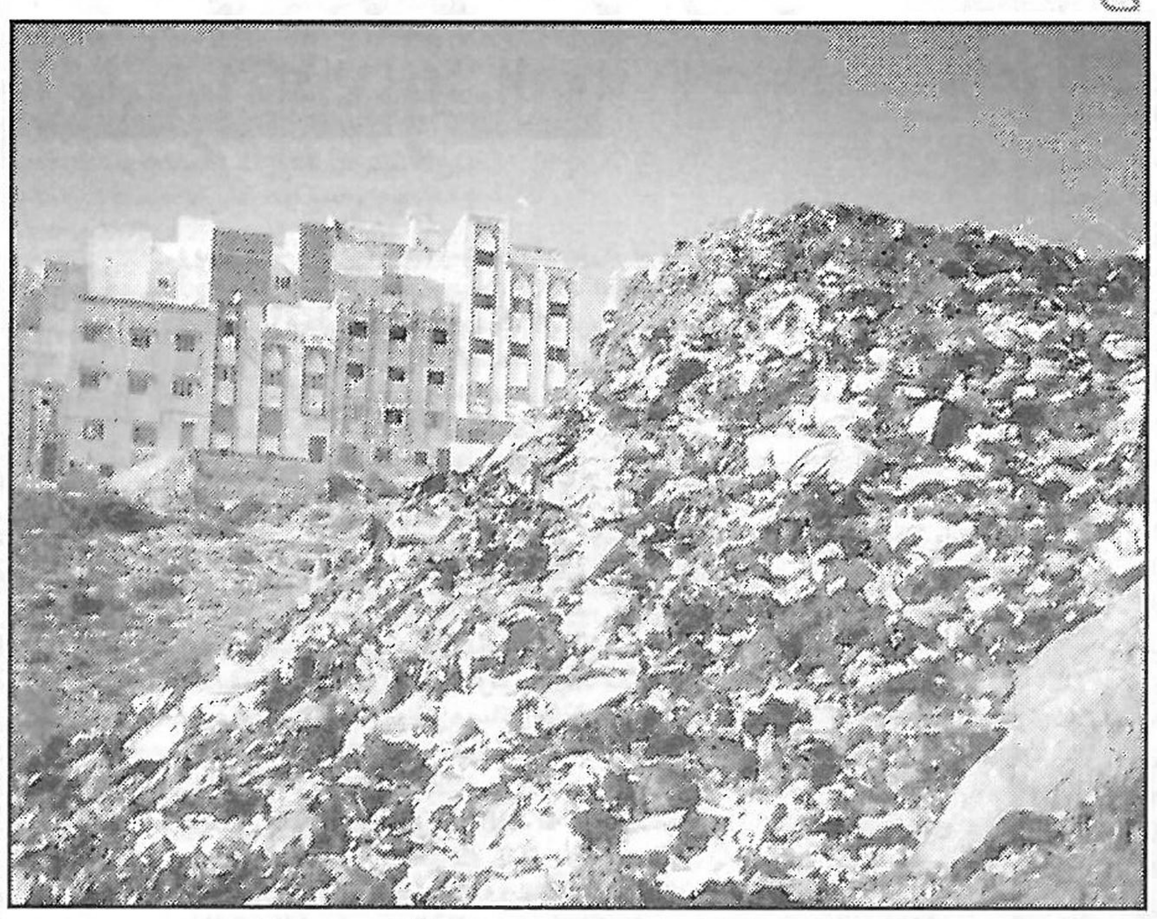
عن اللجنة.

بلاغ من الجامعة الوطنية للتعليم بالحسيمة

عقدت الجامعة الوطنية للتعليم بالحسيمة يوم 2004/05/04 جمعها العام السنوي وذلك بمقر الاتحاد المغربي للشغل حيث تمت تلاوة التقريرين الأدبي والمالي والمصادقة عليهما كما تم انتخاب المكتب النقابي الجديد والذي جاءت تشكيلته على الشكل التالي:

خالد الأجباري، كاتب عام، م.م بني عبد الله.
محمد ملاح، نائبه، اع.سيدي عابد.
اليماني قسوح، أمين المال اع.بني عبد الله.
عبد الحفيظ الخطابي، نائبه م.م.إيعكين.
محمد المساوي، م. الوثائق، م.م بني جميل.
رشيد أديوبان ،مستشار، م.م إيعكين.
فريد بنحدو، مستشار، ثا.البادسي.
خالد أمغار، مستشار، م.م تفساست.
أحمد بوكزير، مستشار، مدرسة الحي الجديد.
فائز البقالي، مستشار، م.م إيصوفين.
ياسمين بورزوبع مستشار م.م سنادة.

عين قيفراز



جائزة الوعي واليقظة

إن الصورة تناقش موضوعا جد حساس ومعقدا، وأكثر خطورة على حياة ومستقبل البشرية . إنها القمامات والنفايات التي تعتبر من معيقات التنمية بإقليم الحسيمة، لكونها تفاقمت ولا يمكن التخلص منها في غضون 10 أو 15 سنة بتراكماتها الضخمة والهائلة التي شكلت سلاسل جبلية من النفايات .

نعلم جميعا أنه لا يمكن التخلص من النفايات نهائيا، ولكن يمكننا التقليص من حدة خطورتها، كمزبلة سيدي عابد التي تصب بشكل مباشر في البحر، مما يهدد باندثار الحياة البحرية في تلك المواقع، كما أن قلة وعي الساكنة تساهم بشكل كبير في انتشار النفايات لكونه لا يعرف مدى خطورة هذه المعضلة.

□ (التقرير الصحفي المصورالفائز بالجائزة الوطنية الأولى للصحفيين الشباب حول البيئة لموسم 2004 إنجاز التلميذ أحمد عبو ، تأطير الأستاذ جمال المحدالي، ثانوية أبي يعقوب البادسي، نيابة الحسيمة)

الحسيمة :بداية صيف حار برائحة الواد الحار

مرحبا بالصيف ومرحبا بزوار الحسيمة الكرام ، فصيف هذه السنة حار على كل المستويات. إذا كان الزلزال العنيف الذي جاء بشره و خيره هو ظاهرة طبيعية فإن ما هو غير طبيعي هو أ، تصير جوهرة البحر الأبيض المتوسط نتنة. ما ذنب سكان هذه المدينة التسمم ليلا بالأدخنة الخطيرة المنبعثة من مزبلة سيدي عابد و التسمم نهارا بالروائح الكريهة المنبعثة من مصفاة الواد الحار بصباديا؟.هذه الروائح تجعل المرء يفضل استنشاق هواء مرحاض عومي عن استنشاق هذه المصيبة. أيها المسؤولون أنقذوا هذه المدينة.

المديرية الاقليمية للمياه و الغابات تجتث غابات المتنزه الوطني للحسيمة

رغم ضعف الغطاء الغابوي الشجري للمتنزه الوطني للحسيمة المتميز بمناخ شبه جاف و رغم شدة انجراف التربة بكل المتنزه الوطني ، و التدهور العام الذي يعرفه الغطاء النباتي نتيجة الرعي المكثف و الحرائق المتعمدة. باشرت مديرية المياه و الغابات بالحسيمة انطلاقا من بداية شهر ماي قطع عدد كبير من أشجار الأوكاليبتوس و الصنوبر بالجهة الشمالية من غابة " حريرث" الموجودة قرب دوار ثافنسة بجماعة إزمورن. وهي منطقة توجد ضمن تراب المتنزه الوطني.

تأسيس فرع جمعية مدرسي علوم الحياة و الأرض بالحسيمة

عقب الجمع العام الذي حضرته فعاليات تربوية محلية تمثل الأكاديمية الجهوية للتربية و التكوين لجهة تازة- الحسيمة- تاونات والنيابة لوزارة التربية الوطنية وجمعية مفتشي التعليم الثانوي و جمعية مفتشي التعليم الابتدائي و عدد كبيرمن مدرسي و مدرسات علوم الحياة والأرض بإقليم الحسيمة، تأسس فرع جمعية مدرسي علوم الحياة و الأرض AESVTبالحسيمة بتاريخ 30ماي 2004

و قد تمخض عن هذا الجمع العام التاسيسي انتخاب أعضاء مكتب الفرع وتوزيع المهام على الشكل التالي:

- عزيز الحمدوني كاتبا للفرع .- حكيم مسعودي: نائبه
- علي نوار: مقررا - جمال أبرو : نائبه
- الأمين البوطي: أمينا للمال - عبد الحميد توفيق: نائبه
- المستشارون/ات:عياد الطاهري، صباح المرابط، ثورية بنونة.

بيان تنسيقية الهيئات المدنية لمتابعة آثار الزلزال بإقليم الحسيمة

إن المجلس التنسيقي لتنسيقية الهيئات المدنية للإغاثة ومتابعة آثار الزلزال بإقليم الحسيمة، المنعقد يوم الأحد 30 ماي 2004 بمقر الجمعية لحقوق الإنسان، بعد تدارسه للبرنامج الذي تقدم به السيد الوزير الأول يوم 200/05/24 حول تأهيل الإقليم وإعادة بناء المنازل المتضررة من زلزال 24 فبراير، ومناقشته المستفيضة للتقرير العام الذي تقدمت به السكرتارية الإقليمية للتنسيقة، وبعد وقوفه على المنازل المتضررة، يعلن للرأي العام ما يلي:

1- تنديده بالخروقات والتجاوزات التي طالت عملية الإحصاء وتشخيص الأضرار التي قام بها المختبر العمومي للدراسات والخبرة LPEE، التي لا يستند تصنيفها للمنازل التقليدية إلى أي أساس موضوعي.

2- تنبيهه للحكومة وتحميلها المسؤولية عما سيترتب عليه من نتائج سلبية في حالة تشبثها بتنفيذ الصيغة المعلنة في برنامج إعادة بناء المنازل المتضررة بالوسط القروي.

3- مطالبته ب:

- تأجيل عملية توزيع المساعدات المخصصة لإعادة البناء وفقا للتصنيف الجائر المعتمد للمنازل التقليدية المبنية بالحجارة والطوب.
- الرفع من مستوى الغلاف المالي المخصص لإعادة بناء المنازل المتضررة مع رفع حصة الدعم لكل أسرة منكوبة توخيا لتحقيق الإسكان.
- مساواة المنازل المتضررة في حجم الدعم المرصود لساكنيها لإعادة بنائها بالتطبيق الصارم لقانون التعمير ومقتضيات البناء المقاوم للزلازل.
- إيجاد حل للأسرة المنكوبة التي كانت تقطن منازل ليست في ملكيتها بالوسط القروي.
- تعويض لكل المتضررين في المجالات المختلفة: "الفلاحة، التجارة، المهنة الحرة، الحرف...الخ".
- فتح الباب للتعاون الدولي بطريقة فعالة للمساهمة في إعادة الإعمار.

4- رفضه المشاركة في عملية التوزيع وفق المعايير المعلنة، للمساهمة في إعادة الإعمار.

5- استعداده لفضح كل التجاوزات والخروقات والوقوف إلى جانب الساكنة المنكوبة، وخوض جميع الأشكال النضالية لتحقيق المطالب العادلة والمشروعة.

6- مناشدته لجميع الهيئات الفاعلة بالإقليم لاستجماع القوى، وتنسيق المواقف لحمل الحكومة على تدبير حقيقي لملف إعادة بناء المنازل، وتعاطي جدي مع تنمية المنطقة.

7- مناشدة الساكنة التحلي بروح التضامن والتآزر في مواجهة آثار الكارثة ومخلفاتها.

8- ولا يفوت مجلس التنسيق في الأخير أن يسجل الجوانب الإيجابية التي تضمنها البرنامج الحكومي المتعلقة بتنمية وتأهيل الإقليم والتي من شأن تنفيذها أن يشكل مدخلا للإقلاع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة.

عن مجلس التنسيق

جمعية قدماء تلامذة مولاي علي الشريف بالحسيمة

انعقد يوم 15 ماي 2004 بمقر الجمعية المغربية لحقوق الإنسان بالحسيمة جمعا عاما لتجديد المكتب المسير لجمعية قدماء تلامذة ثانوية مولاي علي الشريف، وبعد تلاوة التقريرين الأدبي والمالي والمصادقة عليهما بالإجماع ، وكذلك المصادقة على إدخال تعديلات على القانون الأساسي للجمعية ، انتقل الجمع العام إلى انتخاب أعضاء المكتب الجديد والذي جاءت تشكيلته على الشكل التالي :

الرئيس: فكري أومغار
نائبه : حلمي بنتهامي
الكاتب العام:الزياني محمد
نائبه: عبد الحميد الغلبزوري
أمين المال: فكري أمزير
نائبه: كريم بوشرقي
المستشارون: نور الدين لمعلم- عادل اقنيبس _ محمد بادي _ عبد المجيد الصديقي _ نور الدين أبقوي.

الجمعية المغربية لتنمية الريف:

ستتركز جهودنا على الإسهام في نفض الغبار عن الذاكرة الوطنية فيما يخص تاريخ المنطقة وثقافتها وأصالتها

دوافع إنشاء الجمعية:

الدافع الجوهري و الأساسي وراء إنشاء الجمعية المغربية لتنمية الريف هو "الزلزال" الذي عرفه إقليم الحسيمة مؤخرا في فبراير 2004 والذي أبان للعالم أجمع مدى الفقر والتهميش والخصاص الذي عرفته هذه المنطقة من وطننا الحبيب ومدى احتياجها إلى البنيات التحتية من طرق وكهرباء وماء ومدارس ومستشفيات، فأحدث هذا الزلزال الطبيعي زلزالا في أفئدتنا وعقولنا أيقظنا من سبات عميق.

بحيث، أن الأيام الموالية لهذه الكارثة عرفت تحركات مكثفة جدا لجميع المغاربة وخاصة أبناء المنطقة لمد يد المساعدة للمتضررين بكافة الوسائل والطرق وبشتى الإمكانيات.

أيقظ هذا الزلزال الضمائر الحية وبعث فيها الحياة وهز في أعماقنا الحنين إلى أهلنا المنكوبين وإلى جذورنا وأصولنا ووحدنا كمغاربة يدا واحدة وجسدا واحدا يحس بعضنا ببعض، وجعلنا نسارع إلى مد يد المساعدة بأقصى ما نملك في أسرع وقت.

إلا أن بعض هذه المساعدات والإمدادات والمجهودات الفردية التي انطلقت من الرباط ظلت في حاجة إلى تنظيم في إطار جمعوي يوحدها ويؤطرها، لذلك كانت هذه الجمعية.

هذا إضافة إلى ما خلفه هذا الزلزال فينا من إحساس بالرغبة في المساهمة في تنمية البادية وعلى الخصوص منطقة الريف التي عانت كثيرا من تهميش ممنهج لسنوات طويلة وعانت من جحود أبنائها الذين غادروها ولا يزورونها إلا نادرا وبشكل انفرادي للحظات معدودة لاسترجاع الذكريات وزيارة الأهل والتأسف على الواقع المزري والبئيس الذي يعيشه أبناء المنطقة. فكانت هذه الرغبة الملحة في الإسهام في خلق تنمية حقيقية بالمنطقة هي الدافع لخلق هذه الجمعية.

فكان أن اجتمع ثلة من الفعاليات والأطر والمثقفين المنتمين لمختلف مناطق المغرب، واتفقوا على إبراز هذه الجمعية إلى الوجود حتى تعمل بجانب الجمعيات وسائر مكونات المجتمع المدني لما فيه خير هذا الوطن ولما فيه دفع عجلة التنمية إلى الأمام.

وبصفتي من أبناء منطقة الريف وتحديدا من قرية" تيزي عياش" بجماعة آيت قمرة فإنني عايشت بعمق معاناة أفراد عائلتي وأهلي بعد الكارثة، وعاينت مثلهم الحرمان من وجود طريق معبدة توصل الإعانة والدعم لهذه القرية وتفرض عليها العزلة التامة عن العالم، حينما تتساقط الأمطار وتغرق المسالك الطرقية في الوحل.

ونفس الشيء بالنسبة للقرى المجاورة "تزاغين، إمرنيسن، بوخليف، آيت زكري، أيت داود" حيث كانت الوفيات بكثرة وحيث كانت الفاجعة، وكانت المأساة بحجم كبير، وحيث خيم الحزن والإحساس الفظيع بالبتم والعزلة القاسية.

هذه القرى الجميلة الساحرة بطبيعتها الخلابة الآسرة تختزن في عمقها الكثير من الذكريات والكثير من البطولات والمآثر التاريخية، إلا أن الإهمال والنسيان والتناسي طالها لحقب طويلة وحولها إلى واقعها المزري الحالي.

للإنسان أن يتصور كيف يمكن لأشخاص أن يعيشوا في القرن الواحد والعشرين ،عصر المعلوميات وغزو الفضاء والعولمة، في قرى مهمشة لا تصل إليها أي طريق وغير مجهزة لا بالماء ولا بالكهرباء، كيف يتصور أن يتم نقل المرضى إلى المستشفيات البعيدة وكيف للصغار أن يدرسوا في مدارس بعيدة بعدة كيلومترات، وكيف لهؤلاء أن يراجعوا دروسهم في مساكن تفتقر للإنارة وللماء، وكيف لهؤلاء أن يشعروا بانتمائهم للقرن الواحد والعشرين؟

لذلك، فإننا في الجمعية المغربية لتنمية الريف سنحاول جهد الإمكان المساهمة في فك العزلة عن المنطقة والمساهمة في خلق بنيات تحتية ومشاريع تنموية للنهوض بالمستوى المعيشي لسكانها والحيلولة دون هجرتهم الجماعية إلى مناطق أخرى، ولنفض الغبار عن الواقع المزري والبئيس من جميع الجوانب: الاقتصادية والثقافية والصحية والبيئية والرياضية، لعل وعسى أن نفي ببعض ما في أعماقنا من ديون إلى الوهاد والربوع والجبال التي رضعنا فيها حليب أمهاتنا وحبونا فيها، وحلمنا دوما بغد مشرق يطل عليها ذات يوم.

لهذا ستتركز جهودنا على الإسهام في نفض الغبار عن الذاكرة الوطنية فيما يخص تاريخ المنطقة وثقافتها وأصالتها والإسهام في تحسيس أبنائها بمدى الاحتياج إلى جميع مجهوداتهم وطاقاتهم أينما كانوا وأيا ما كان تخصصهم وميدان اشتغالهم، سواء كانوا داخل المغرب أو خارجه، لقول الشاعر:

كم من منزل يألفه الفتى××× وحنينه دوما لأول منزل.

لهذا، فإننا نمد أيدينا لجميع الجمعيات والفعاليات والمنظمات المهتمة من أحل الإسهام جميعا في خلق تنمية حقيقية وملموسة بمنطقة الريف المغربي طبقا للمثل القائل:

"بدل أن تلعن الظلام، اشعل شمعة".

■ **رئيس الجمعية: -عبد الكريم الموساوي**

بيان من الجمعيات المدنية لآيت حذيفة

عقدت الجمعيات المدنية اجتماعا يومه 2004/06/7 بحضور ممثلي مكاتبها، وبعد مناقشة البرنامج الحكومي المعلن عنه من طرف الوزير الأول يوم 2004/05/24 بالحسيمة والمتعلق بإعادة إعمار إقليم الحسيمة إثر الزلزال الذي ضرب المنطقة يوم 2004/02/24. وخاصة الجانب المتعلق بإعادة إيواء وإسكان المنكوبين المتضررين، وكذا الأساليب الملتوية التي تدبر بها السلطات المختصة هذه العملية، نعلن للرأي العام المحلي والإقليمي والوطني ما يلي:

.1رفضنا لنتائج اللجنة التقنية المعلن عنها، نظرا للخروقات والتلاعبات التي شابت عملية تحديد الأضرار. مثال (إدراج بعض المنازل المهجورة لسنوات عديدة ضمن لوائح المستفيدين).

2-رفضنا للتصنيف الذي اعتمدته اللجنة، على اعتبار أن جميع المنازل التقليدية بالبادية متضررة.

3=رفضنا لإقصاء مركز بني حذيفة بصفة نهائية من إجراء الخبرة التقنية.

4=رفضنا للبرنامج الحكومي المتعلق بإعادة إسكان المنكوبين، الذي يتعارض وطموحاتهم.

5=استنكارنا للسلوكات والتصرفات التي تهدف إلى الضغط على السكان من أجل تسلم الحصص الهزيلة والسخيفة.

مطالبتنا ب:

1-إدراج جميع المنازل التقليدية(المبنية بالطوب والحجر) المقصية من طرف اللجنة التقنية ضمن لوائح المستفيدين.

2-اعتبار جميع المنازل التقليدية غير صالحة للسكن، ويجب إعادة بناؤها من طرف الدولة.

.3اعتبار إقليم الحسيمة منطقة منكوبة، ورصد جميع الإمكانات المتوفرة من أموال وطاقات بشرية من أجل إعادة إعمار المنطقة، وإدماجها في النسيج الاقتصادي والاجتماعي الوطني.

4-مساندتنا المطلقة لجميع مواطني الجماعات الأخرى لرفضهم استلام التعويضات الهزيلة والسخيفة الممنوحة من طرف السلطة.

وفي الأخير نهيب بكل الفعاليات والإطارات والمناضلين لمواصلة جميع أشكال الضغط لتحقيق وانتزاع الحقوق المشروعة للمنكوبين.

الجمعيات الموقعة:

جمعية آيت حذيفة للثقافة والتنمية / جمعية إحدوتا للتنمية
جمعية كمون للتنمية / جمعية عمروموحند للماء الشروب

بيان جمعية آيت حذيفة للثقافة والتنمية

عقد مكتب جمعية آيت حذيفة للثقافة والتنمية يومه الأحد 9/05/2004 تدارس فيه نتائج اللجنة التقنية المكلفة بإحصاء وتحديد المنازل المتضررة جراء الزلزال الذي ضرب المنطقة يوم 24/02/2004وأصدر البيان التالي:

1-رفضنا لعملية المعاينة التي قام بها المختبر العمومي للدراسات والتجارب على اعتبار أنها لم تشمل جميع المنازل المتضررة بما فيها منازل مركز جماعة بني حذيفة التي استثنيت بصفة نهائية.

2-رفضنا للخروقات التي شابت هذه العملية من قبيل عدم إدراج بعض المنازل المتضررة باللوائح النهائية، مقابل إدراج منازل غير متضررة وأخرى مهجورة.

3-رفضنا للتعويضات المرصودة لإعادة البناء التي لا تتناسب ومعايير البناء المضاد للزلازل.

جمعية آيث يوسف وعلي للتنمية والبيئة والتضامن

انعقد بمدرسة سيدي بوعفيف يوم الأحد 2004/05/04 على الساعة الرابعة مساء الجمع العام التأسيسي لجمعية تنموية تحمل إسم" جمعية آيث يوسف وعلي للتنمية والبيئة والتضامن"وباختصار(A A D E S) وذلك بحضور العديد من الفاعلين الجمعويين والمهتمين وعموم المواطنين بعد المناقشة والمصادقة على القانون الاساسي . انتقل الجمع العام إلى انتخاب أعضاء المجلس الإداري الذي انبثق عنه المكتب التنفيذي الذي وزع المهام بين أعضائه كما يلي

امغار امحمد رئيسا
وأعروص احميدو نائبه
فراجي امحند كاتبا عاما
عبد الحق الادريسي أمينا للمال
البوكري سليمان نائبه
يزيف محمد ، البوكري أحمد، السطحيوي عبد الخالق ومخلص محمد مستشارون
باقي أعضاء المجلس الإداري هم: واعروص تحاني، أمغار عبد الحق، المتوكل محمد، واعروص محمد، المتوكل امحمد وبوشار عبد الخالق

عن الجمعية

بيان الجمعية المغربية لحقوق الإنسان فرع الحسيمة

تابع أعضاء الجمعية المغربية لحقوق الإنسان بالحسيمة عن كثب، الوقفات والمسيرات الإحتجاجية التي نظمت من قبل المواطنين في عدد من الجماعات المتضررة من الزلزال الذي ضرب الإقليم يوم الثلاثاء 24 فبراير 2004 (آيت عبد الله، الرواضي، آيت قمرة، آيت يوسف وعلي، إزمورن وإمرابطن...) للتنديد بنتائج الخبرة التي أنجزها المختبر العمومي للدراسات والخبرة، والتعبير عن رفضهم للطريقة التي عالجت بها الحكومة ملف إعادة بناء المنازل المتضررة في الوسط القروي... والمكتب المسير للفرع بعد استحضاره للأجواء السائدة داخل مختلف الدواوير والمداشير وللأوضاع المزرية التي يعيشها السكان المنكوبون، ووقوفه على مضامين البرنامج الذي أعلن عنه الوزير الأول يوم الإثنين 24 ماي 2004 والذي تعتزم الحكومة تنفيذه لتنمية الإقليم، يعلن للرأي العام ما يلي :

1=إحتجاجه على أسلوب التهديد والتخويف الذي إلتجأ إليه بعض المسؤولين في السلطة والجماعات المحلية لإرغام المواطنين على تسلم المساعدات المتمثلة في مبلغ مالي وكمية من الإسمنت والحديد، ولإسكات الأصوات المطالبة بتصحيح الإختلالات وتمكين المنكوبين من حقوقهم كاملة .

2=تنديده بالخروقات التي طالت إحصاء وتصنيف المنازل المتضررة، ويحمل المسؤولية في ذلك للمختبر العمومي وأعوان ورجال السلطة وبعض المنتخبين .

3=إعتباره الغلاف المالي الذي خصصته الحكومة لإعادة البناء، لن يمكن الأسر المنكوبة من بناء مساكن تحترم مواصفات البناء المقاوم للزلازل، خاصة وأن معظم هذه الأسر فقيرة وأغلب المنازل المنهارة كليا أو جزئيا كانت مشيدة بالطوب والحجارة .

4=تضامنه مع احتجاجات المواطنين، وفي هذا الصدد ينوه بالأجواء الحضارية التي سادت كل الوقفات والمسيرات الإحتجاجية .

5=مطالبته المسؤولين ب :

أ- اعتبار إقليم الحسيمة منطقة منكوبة، والإعلان عن إجراءات تحفيزية وتسهيلات ضريبية قصد استعادة الرواج الإقتصادي وتشجيع السكان على الإستقرار .

ب- التعامل الجدي مع مطالب الساكنة المنكوبة، وذلك بالرفع من قيمة الغلاف المالي المرصود وتوزيعه بالتساوي مع مراعاة الجوانب الإجتماعية .

ت- إيجاد حل منصف لمئات الأسر التي كانت تسكن منازل ليست في ملكيتها .

ج- وضع برنامج قريب المدى للقضاء كلية على المنازل التقليدية في العالم القروي وإعادة تشييدها بكيفية تستجيب لمتطلبات البناء المضاد للزلازل .

6=استغرابه من إصرار السلطات المركزية على عدم اتخاذ التدابير العقابية في حق المسؤولين المتورطين في اختلاس مساعدات زلزال 1994 وفيضانات نونبر 2003، وفي حق المستهترين بأرواح المواطنين وممتلكاتهم، ويذكر بمطلب إبعاد رموز الفساد، أيا كان نوعه، عن المسؤولية وعن المنطقة .

7=مناشدته وسائل الإعلام بمتابعة تطور أوضاع المنكوبين وإبراز مطالبهم .

المكتب المسير

وقفة احتجاجية

في إطار البرنامج الاحتجاجي الذي سطره الفرع، وقصد توفير الشروط الضرورية لانخراط واسع لجميع المكونات الفاعلة بإقليم الحسيمة في النضال، للضغط على الحاكمين وحملهم على الاستجابة لمطالب المنطقة، خاصة المطالب الاستعجالية للسكان المتضررين من الفيضانات التي شهدها الإقليم في نوفمبر 2003 ومن الزلزال العنيف الذي ضربه يوم الثلاثاء 24 فبراير 2004، نظمت الجمعية المغربية لحقوق الإنسان بالحسيمة يوم الجمعة 21 ماي 2004 وقفة احتجاجية رائعة شارك فيها ممثلون وممثلات عن العديد من التنظيمات المدنية والسياسية والنقابية العاملة بإقليم الحسيمة، وشارك فيها أزيد من 300 مواطنة ومواطن، للتأكيد على استمرارهم في دعم المنكوبين وعن استعدادهم لخوض كل الأشكال النضالية، و للتعبير عن رفضهم الجماعي لأسلوب التسويف الذي ينتهجه المسؤولون تجاه الساكنة المنكوبة، والتنديد بلامبالاتهم وتماطلهم وعجزهم عن التحرك العاجل لإيجاد حل لآلاف الأسر التي باتت منذ ثلاثة أشهر تنام في العراء أو في خيام بسيطة لا تتوفر فيها أدنى الشروط الصحية... وردد المحتجون شعارات باللغتين الأمازيغية والعربية تطالب الحاكمين بالإسراع في بناء ما دمره الزلزال، وبإعادة الحيوية والنشاط للقطاعات الاجتماعية والاقتصادية، وتنمية المنطقة ورفع الحصار الظالم الذي ضرب على الريف منذ عدة عقود، ومحاكمة المتورطين في اختلاس مساعدات زلزال 1994 وفيضانات 2003 وزلزال 2004، وبإبعاد العابثين بأرواح المواطنين وممتلكاتهم عن مراكز المسؤولية وعن المنطقة... وكانت الوقفة مناسبة طالب من خلالها المشاركون بإجلاء الحقيقة عن الجرائم التي اقترفت في الريف سنوات 58 و59 و84. واختتمت الوقفة بكلمة المكتب المسير التي عاهد من خلالها المشاركين على المضي قدما في مسيرته النضالية ومؤازرته المتواصلة لكل ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان وكل الفئات المقهورة، وفي مقدمتهم منكوبو الزلزال. وتجدر الإشارة إلى أن الوقفة الاحتجاجية كانت محاصرة من قبل قوات التدخل السريع التي كانت مدججة بالهراوات، والتي أغلقت جل المنافذ المؤدية إلى مقر الفرع، حيث لم يتمكن عدد كبير من المواطنين من الوصول إلى مكان الوقفة، ولقد استنكر الفرع ومعه المشاركون في الوقفة هذا التعامل القمعي مع شكل احتجاجي حضاري.

المكتب المسير

جماعة زاوية سيدي عبد القادر

لماذا أقصيت من خبرة المختبر العمومي للدراسات والتجارب؟

كما هو معلوم فإن جماعة ز.س.ع القادر، التي تقع جنوب غرب الحسيمة تحدها جماعة بني حذيفة من الشمال وجماعة سيدي بوزينب من الجنوب وجماعة شقران من وبني ع الله من الشرق وجماعة سيدي بوتميم غربا حسب الإحصائيات الأخيرة يبلغ عدد سكانها ما يقرب 7000 نسمة موزعين على 980 أسرة بمعدل 7أفراد لكل أسرة.

أصيبت هذه الأخيرة بنفس الدرجة التي أصيبت بها باقي الجماعات المتواجدة في دائرة الزلزال الأخير الذي ضرب إقليم الحسيمة، غير أن المستغرب له أن هذه الجماعة تمتاز حسب السلطات الإدارية بوضع مزدوج، فهي تارة تندرج ضمن المناطق المتضررة من الزلزال وتارة أخرى غير ذلك. فبالإضافة إلى وضعيتها المزرية على جميع المستويات لا تزال السلطات الإدارية تتعامل معها بطريقة أقل ما يقال عنها أنها "الحكرة" رغم أن هذه الأخيرة ليست من شيم المغاربة.

فخلال الأيام الأولى للزلزال، اعتبرت الجماعة على أنها ضمن المناطق المتضررة ورغم ذلك لم تتم تغطية الأسر بالخيام إلا بنسبة 30٪، أضف إلى ذلك أن القنطرة المشيدة على وادي غيس (الطريق الإقليمية رقم5207) خربت منذ شهر نوفمبر 2003. من جهة أخرى تم انتقاء ما لا يزد على 75 منزلا من طرف المكتب العمومي للتجارب والدراسات على أنها العدد النهائي للمنازل المتضررة من الزلزال الأخير، معتمدا طريقة في العمل أقرب إلى المزاج والتعليمات الظرفية منها إلى منهجية علمية جديرة بمكتب للدراسات والتجارب.هذا ورغم احتجاجات السكان ومساعي المستشارين الجماعيين وموقفهم الذي تجسد في الانسحاب من اللجنة التقنية الرباعية التي كان من المفترض أن تقوم بتحديد وإحصاء الأضرار داخل كل جماعة.

لكل هذا لأن سكان الجماعة يطالبون بإدراج بناء القنطرة المخربة جراء الفياضانات الأخيرة ضمن المشاريع المبرمجة لمشاريع إعادة إعمار وتأهيل وتنمية إقليم الحسيمة وإيفاد لجان تقنية لتحديد الأضرار الفعلية التي تعرضت لها المنازل التي تشققت وتصدعت بشكل لافت حتى يطمئن السكان على مصيرهم.

جماعة أيت عبد الله

بيان تنسيقية الهيئات المدنية

نحن جمعيات المجتمع المدني المتواجدة بتراب جماعة آيت عبد الله المجتمعة بتاريخ 25/ 05/ 2004، وبعد اطلاعها على نتائج الخبرة التقنية لتي أجرتها Ipee (المختبر العمومي للدراسات والتجارب)، ودراسة البرنامج الحكومي المستعجل وخصوصا ما يتعلق باعادة إسكان الأسر المنكوبة، وبعد نقاش مستفيض ومسؤول بين جل الجمعيات نعلن للرأي العام المحلي والوطني ما يلي :

1=رفضنا لنتائج الخبرة التقنية التي اعتمدت النسب المئوية في تحديد حجم الأضرار التي لحقت بالمنازل و الذي يتنافى مع معايير البناء المضاد للزلازل .

2=نستنكر الخروقات التي شابت عمليات الإحصاء (الزبونية، إقصاء بعض المنازل وعدم الأخذ بعين الإعتبار عدد الأسر القاطنة بكل منزل وبمفهوم السكن الريفي .

3=نرفض رفضا قاطعا مشروع البرنامج الحكومي الخاص بإعادة الإسكان لكونه لا يلبي انتظارات ومتطلبات السكان .

4=نستنكر استثناء جماعة بني عبد الله من الإستفادة من البرنامج الحكومي المعلن عنه .

ونطالب :

1=إجراء [illegible] عادة أكثر نزاهة بإشراك فعاليات المجتمع المدني وباعتبار البنايات التقليدية بنايات غير مضادة للزلازل .

2=برصد ميزانيات واعتمادات مالية كافية لاعادة الإعمار والبناء .

3=إعطاء الأهمية القصوى لجماعة آيت عبد الله على مستوى البنيات التحتية .

وفي الأخير نهيب بكافة فعاليات المجتمع المدني محليا وإقليميا ووطنيا وبكل المواطنين بالوقوف إلى جانب المنكوبين في انتزاع حقوقهم المشروعة

ونتمسك بحقنا المشروع في اتخاذ كافة الأشكال النضالية في أفق تحقيق المواطنة الكاملة .

وعليه نهيب بكل المواطنين سكان الجماعة بالحضور المكثف يوم الجمعة /28 05/2004على الساعة العاشرة صباحا لعقد لقاء تحسيسي حول مشروع البرنامج الحكومي الخاص بإعادة إسكان الأسر المنكوبة بتأطير من الجمعيات العاملة بتراب جماعة آيت عبد الله، وذلك أمام مقر الجماعة .

الجمعيات الموقعة على البيان :

1=جمعية افزار للتنمية والتعاون .
2=جمعية آيت عبد الله للتنمية والثقافة والتعاون والتضامن .
3=جمعية بوخليفة للتنمية والتعاون .
4=جمعية إبونهارن لضحايا الزلزال .
5=جمعية آيت سعيد للتنمية والثقافة .
6=جمعية بوغرداين للتنمية الفلاحية .
7=جمعية إبوهلالن للثقافة والتنمية والتعاون .

ترجيست

عندما تكذب الحكومة

هل سيتحقق المستحيل ، الأمل الذي راود أهل صنهاجة منذ أمد بعيد، هل ستلتزم الحكومة بإنجاز ما صرح به الوزير الأول بعد اجتماع لجنة وزارية خاصة، هل سيخرج المستشفى المتعدد التخصصات الذي رصدت له حسب الوزير الأول ، ميزانية خمسة ملايير سنتيم إلى حيز الوجود وينهي معاناة سكان دائرة ترجيست ونواحيها مع التطبيب؟ وهل ستعمل الدولة على إنهاء تخوفات السكان وتكون ، هذه المرة ، مسؤولة عن تصريحات وزرائها عبر تحقيق إحدى المطالب المشروعة والملحة لسكان المنطقة؟

فبعد زيارة ملك البلاد إلى الحسيمة يوم 10 يونيو الأخير ، وبعد أن أزيح الستار عن برنامج التدشينات التي قام بها داخل الإقليم والذي أبان عن الإقصاء الذي طال دائرة ترجيست من مشروع إعادة الإعمار ومن أي مشروع تنموي يستطيع من خلاله رد الاعتبار للمنطقة حدثت بالشارع الترجيستي رجة غير طبيعية مشوبة بنوع من الإحباط ترجم على شكل أسئلة متعددة يؤطرها سؤال مركزي : هل بالفعل سيتم إقبار مشروع مستشفى ترجيست؟

إذا كان الحق في الصحة ، حق من حقوق الإنسان وشرط من شروط المواطنة ، فإن من يتساءل عن الصحة العمومية بمدينة ترجيست يجد الجواب في خيمة تم نصبها بعد الزلزال المدمر لليلة 24 فبراير لتكون بديلا لقاعة المرضى التي أصيبت بتصدعات أصبحت اثرها من عداد البنايات الآيلة للسقوط.

إن مستشفى مدينة تارجيست الذي كان من المفروض أن يقدم الخدمات الصحية لأربعة عشرة جماعة قروية وجماعة حضرية أي لما يزيد عن 100 ألف نسمة، أصبح وبالكاد لا يقدم إلا تلك الخدمات البسيطة وكان "قدر" الإنسان الذي ينتمي إلى دائرة تارجيست هو الإنتقال الأبدي إلى مدن أخرى كالحسيمة ، تطوان وفاس... للإستشفاء ، كما أن الموت على الطرقات أصبح من "قدر" نساء تارجيست أمام كل الصعوبات تعتريهن أثناء الولادة وكم هي عديدة الحالات التي توفيت في الطريق قبل الوصول إلى مستشفى محمد الخامس بالحسيمة في الوقت الذي كثر فيه الحديث عن حقوق الإنسان وعن حقوق المرأة، هذا دون أن نتحدث عن القاعة الوحيدة للولادة والتي كان يتوفر عليها مستشفى تارجيست التي تفتقر لأبسط المقومات الصحية.

إن فكرة بناء مستشفى بمدينة تارجيست متعدد التخصصات بغلاف مالي قدر بخمسة ملايير سنتيم، جعل السكان وحتى الذين كانوا قد شدوا الرحيل لمغادرة المدينة في اتجاه مدن " المغرب النافع"، يترقبون ويتردد في انتظار ما ستحمله الأيام من جديد ، وهل ستتحمل الدولة مسؤوليتها في تأهيل ورد الإعتبار للمنطقة التي ظلت لمدة نصف قرن تعاني من التهميش والعزلة والتي ساهمت (أي الدولة) في خلق ثلة من المنتفعين الذين اقتاتوا وما يزالوا على مائدة اقتصاد الريع الذي لم يعمل سوى على تفقير المنطقة وتكريس تهميشها . إن مطلب بناء مستشفى بترجيست يبقى، إلى جانب توفير البنيات التحتية الأساسية الأخرى، بمثابة إعادة الحياة إلى هذه المدينة الفتية المهددة بالإفراغ.

ترى هل سقوط تدشين هذا المستشفى من أجندة التدشينات الملكية الأخيرة له علاقة بالتقارير التي أنجزت حول المنطقة باعتبارها منطقة لم تتأثر بزلزال 24 فبراير من طرف السلطات المحلية وبتزكية من المجالس المنتخبة أم انها كانت من باب التأجيل الذي ربما طال مشاريع أخرى بالإقليم؟.

أم أن هذا المشروع لم يعد موجودا وأصبح مصيره مصير مشاريع أخرى لم تر النور إلى يومنا هذا: مقر دائم لرجال المطافئ- محكمة ابتدائية _ خلق منطقة صناعية، بناء ثانوية أخرى... إذا كان مشروع المستشفى قد الغي فعلا فإننا من جهتنا نتساءل عن مصداقية تصريحات حكومتنا " المحترمة" وهل بالفعل تستطيع الحكومة أن تكذب؟ وأمام سكوت المسؤولين عن تدبير الشأن المحلي بدائرة ترجيست وسكوت البرلمانيين الثلاث الذين ينتمون إلى الدائرة وسكوت كل من المسؤول عن تدبير الشأن الإقليمي والمسؤول الثاني عن تدبير الشأن الجهوي ، نقول لهم: أليس من باب الجرأة الانسحاب من تحمل المسؤولية إعلانا منكم عن فشلكم في تسيير الشأن المحلي والإقليمي والجهوي والدفاع عن المصالح الحيوية للمواطن التارجيستي؟!

بنعمر علي

تعقيب على مقال

توصلت جريدتنا بتعقيب من السيد مدير ثانوية ترجيست، حول المقال الذي نشر بالعدد الماضي من جريدتنا تحت عنوان: بعد الزلزال الطبيعي يأتي الزلزال الإداري. جاء فيه:

تبعا للمقال الصادر بجريدة تيفراز العدد 13 مايو 2004 تحت عنوان "بعد الزلزال الطبيعي يأتي الزلزال الإداري" أود التعقيب على ما جاء في هذا المقال الذي يجانب الصواب وحقيقة الأمور من عدة وجوه، ذلك أن:

– باب المؤسسة الذي يدعي صاحب المقال أنه مفتوح أمام المتسكعين والمنحرفين، لم يكن قط كذلك، وإنما هو فقط باب لولوج التلاميذ والأطر التربوية إلى مؤسستهم. ويسهر على فتح وإغلاق الباب بواب.

– إذا كان صاحب المقال يدعي غياب الأنشطة الثقافية والرياضية بالمؤسسة فذلك محض افتراء وبهتان؛ لأن هذه السنة على الخصوص، شهدت تنظيم العديد من الأنشطة، نظمتها مختلف لجن الأنشطة وبمساهمة فعالة من التلاميذ.

– أما موضوع المذكرة المتعلقة بالاستفادة من السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فلم تكن متعلقة باستكمال الدروس الجامعية من جهة، ومن جهة أخرى حددت المذكرة مجموعة من الشروط؛ أذكر منها تحديد عمر المشارك بين 15و17 سنة، والذي كان شرطا أقصى6 تلاميذ تم اختيارهم من طرف أساتذة مادة الإنجليزية. ولم تتوفر الشروط إلا في التلميذة إيمان قاضي، والتي فضلت عدم المشاركة.

– اما بالنسبة للمذكرة المتعلقة بدورة تكوينية لمدة 6 أسابيع بالولايات المتحدة الأمريكية كذلك، والتي تشترط تفوق تلميذ المستوى النهائي في مواد الإنجليزية، الرياضيات، الفيزياء، وعلوم الأرض. فمرة أخرى وباقتراح من أساتذة المواد المعنية تم انتقاء التلميذة إيمان قاضي بكامل الموضوعية، وبعيدا عن كل ما ليس له علاقة بالمجال التربوي، وكان معيار التفوق هو الأساس في اختيار التلميذة المذكورة.

وتفضلوا بقبول فائق التقدير والاحترام، والسلام.

توقيع مجموعة من الأطر التربوية المنتمية للمؤسسة (9توقيات).

بيان من سكان جماعة الرواضي



نحن ساكنة دواوير جماعة الرواضي المعتصمين أمام مخزن المهزلة لتوزيع الإسمنت والحديد منذ 20- 06- 2004 احتجاجا على الطريقة التي نهجتها الحكومة لمعالجة تعويض المتضررين جراء الزلزال الذي ضرب الإقليم يوم 24- 02- 2004. والتي تتمثل في تصنيف المنازل إلى4 حالات: مهدمة كليا – جزئيا – خطيرة الإستعمال – حالات أخرى. رغم أن منازلنا كلها مبنية بالحجر والتراب وبأسلوب تقليدي جدا . وقد استعملت السلطات المحلية شتى أساليب التهديد والترغيب واتهام البعض بتحريض المواطنين على «الفوضى» و البعض الآخر بالوصولية وذلك عن طريق المقدمين وبعض الممثلين الجماعيين . وعليه فإننا نعلن للرأي العام الوطني والدولي ما يلي :

1- نستنكر كافة الخروقات التي شابت لائحة المتضررين : منازل مهجورة، منزلين لشخص واحد، أسرة تستفيد من ثلاثة منازل، منازل متضررة بدون استفادة .

2- ندين بكل قوة كل أساليب السلطة التعسفية وإشاعة البلبلة لتنفيذ البرنامج الحكومي دون الأخذ برأي السكان .

3- نطالب المسؤولين بإعادة النظر في طريقة تعويض المتضررين وذلك بإنصافهم عبر بناء منازلهم بدون استثناء .

4- رفض نتائج الخبرة التقنية التي صنفت المنازل التقليدية إلى4 حالات .

5- نعتبر أن مساهمات صندوق ١٠١ منحت للسكان المتضررين كأسر وليس للمنازل كيفما كانت .

6- نسجل عدم اكتراث السلطة بالمخاطر التي يواجهها السكان جراء الزواحف والكلاب المسعورة والأمراض المنتشرة خاصة بين الصغار .

7- نحيي بحرارة كافة المواطنين محليا وفي الجماعات الأخرى الذين وقفوا بالتزام ونظام للدفاع عن حقوقهم المشروعة .

8- نشيد بكل من ساندنا في محنتنا وخاصة الجمعية المغربية لحقوق الإنسان فرع الحسيمة، وكذا باقي الأصوات الأخرى وطنيا ودوليا .

9- نعلن التزامنا بالصمود والتحدي إلى غاية تحقيق مطلبنا العادل، وذلك بتنفيذ كل الأشكال النضالية الممكنة .

"خلية تصميم" وإعادة إسكان المنكوبين:

بين دهاء المسؤولين و سذاجة المنتخَبين

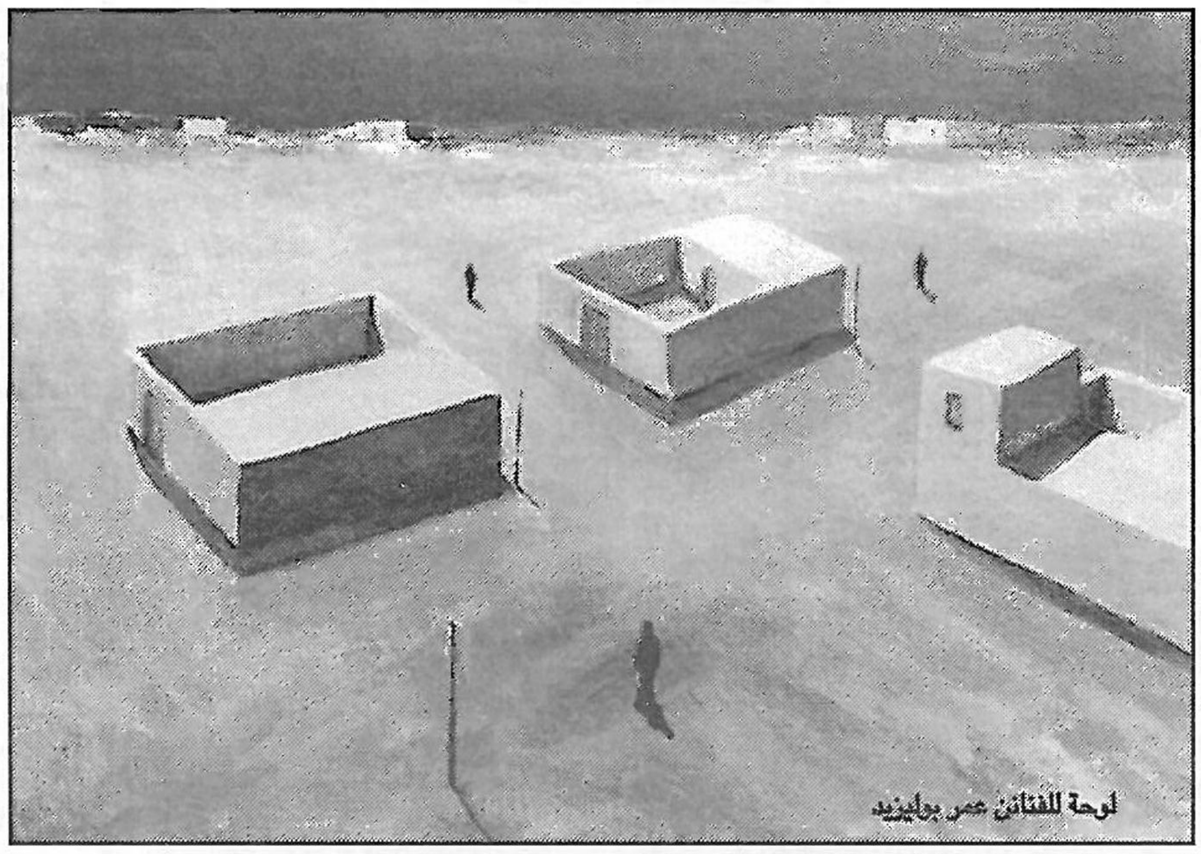
بين عشية و ضحاها، و بدون سابق إعلام، بدأت شاحنات كبيرة في الوصول إلى إقليم الحسيمة، صبيحة يوم 2004/06/01، و هي محملة بالحديد و الإسمنت. و لتوّه فهم المواطنون أن الأمر يتعلق بنسخة معدلة _ قليلا- من سيناريو المساعدات التي وزعت على ضحايا زلزال 1994: قضبان و لفافات حديدية، بضعة أكياس من الإسمنت و دُرَيْهمات معدودة، و به الختام. أما البقية الباقية فستكملها، طبعا، تلك الحملات الإعلامية المحمومة الرسمية و غير الرسمية، إذ ستجعل المنازل المنهارة مبنية بقدرة قادر، وفق أحدث التقنيات، و المنازل المتصدعة مرممة تحت إشراف أكبر الفرق التقنية كفاءة...و ستصف في جمل إنشائية منمقة كيف أن المواطنين الذين كانوا بالأمس منكوبين و مذعورين تحت الخيام و البراريك، قد أصبحوا يسكنون في أمن و أمان منازلَ ما كانوا ليحلموا بها قبل حادثة الزلزال المعلومة، و ذلك وفق خطة حكيمة و مستعجلة و ضعها المسؤولون الساهرون على سلامة و مستقبل المواطنين. هذه هي الحقيقة المرة التي أُلِفناها عن مسؤولينا فما انتظرنا أو ننتظر منهم سواها، ما دامت دار لقمان على حالها.

■خالد لبحار

و ها هو ذا وزير الإسكان الذي أطل علينا ذات صباح من إذاعة الرباط، بمناسبة الزيارة الملكية الأخيرة إلى إقليم الحسيمة، يصرح و كله ثقة في النفس أنه بعد طول تفكير و تأمل من طرف جميع المتدخلين تم الاتفاق على برنامج دقيق و متكامل لإعادة إسكان المتضررين و وفي إطار هذا البرنامج المتكامل ! تم إعداد "خلية تصميم" سيوزع على جميع المتضررين بالمجان. نعم، هذا ما قاله السيد الوزير بالحرف : "لقد أعددنا خلية تصميم و ليس تصميما". حكومة و متدخلون !...فكروا و تأملوا، ثم اجتمعوا و ناقشوا فتفتقت عبقريتهم عن "خلية تصميم". هذا ما ينطبق عليه المثل العربي السائر : تمخض الجبل فولد فأرا. و الحال، أن "خلية تصميم" هاته إطلاق جديد و عجيب في آن الوقت، يعني به السيد الوزير المعروف ببشاشته وخفة ظله، تصميما لغرفة واحدة و وحيدة. تصوروا، وزارة للإسكان و التعمير متدخلون و فاعلون !...أنجزوا، أو فكروا في إنجاز، تصميم لغرفة واحدة ليُوزّع على مواطنين منكوبين في منطقة من أنشط المناطق الزلزالية في المغرب، و تصوروا أيضا عائلات ممتدة، تتشكل من أسر تفوق الأربعة أحيانا، ستسكن بأفرادها الذين يتجاوزون الخمسة عشر في غرفة واحدة، أليس هذا شبيها بحالة السجين الذي كان يقطن غرفة واسعة شيئا ما، ثم سرعان ما يُلقى به في زنزانة انفرادية وضيقة(الكاشو) !؟ ما ذنب هؤلاء المواطنين الذين ألِفوا الاستقرار في منازل كبيرة () رغم بساطتها- ذات غرف كثيرة و شاسعة، حتى يُحشروا في غرفة واحدة كما تنص على ذلك فكرة "خلية تصميم" المذكورة؟ نطرح هذا التساؤل بالرغم من أننا نعي جيدا، بحدسنا كمغاربة، كلام السيد الوزير بمنطوقه و مفهومه، فهو يريد أن يقول للمنكوبين: بعد أن تقبلوا بهذا التصميم العجيب، عليكم أن تتصرفوا كما هو متعارف عليه لدى المغاربة جميعا في مجال البناء و غير البناء.

إن مثل هؤلاء المسؤولين هم من يتحدثون، بلا حشمة، عن محاربة السكن العشوائي و القضاء على الغش في البناء، و يرفعون شعار السكن اللائق و المستجيب للخصوصيات المعمارية المحلية، و المقاوم للزلازل... أليست فكرة "خلية تصميم" هاته هي منتهى التشجيع على السكن العشوائي و الغير اللائق، و منتهى الاستهزاء بالمواطنين و تعريض حياتهم و مستقبلهم للخطر !؟

قد نجد عذرا لمثل هؤلاء المسؤولين فيما يقررونه حينما نعلم أنهم يعيشون و أسرَهم-بعيدا- آمنين مطمئنين في فيلاتهم الفخمة، و أنهم يخططون ويبرمجون، كذلك من بعيد، لمواطنين مغلوبين على أمرهم يعيشون تحت الخيام و تحت رحمة الحرارة و لسعات الحشرات و الزواحف بين جبال و شعاب الريف الوعرة. فالمثل الفرنسي يقول "البعيد عن العين بعيد عن القلب كذلك"، إلا أننا لا يمكن أن نجد و لو ذرّة عذر لبعض المسؤولين المحليين، خاصة أولئك الذين انتدبهم المواطنون، و وضعوا فيهم ثقتهم ليدافعوا عن حقوقهم و مصالحهم، حين استقبلوا برنامج الحكومة المتعلق بإعادة إسكان المنكوبين بالتهليل و التبريك لدرجة أن أحد المستشارين الجماعيين التابع لجماعة آيث عبد الله، إحدى الجماعات الأكثر تضررا بالزلزال المعلوم، أطل علينا ذات زوال من إذاعة الرباط (قسم البرامج الريفية)، فبدأ يلقي كلاما يشبه التأنيب و الوعيد، حاثا المواطنين الذين امتنعوا عن أخذ "المساعدات" على الإسراع إلى أخذها رفقة التصميم المجاني الذي تم إعداده لهم، و ناصحا إياهم بالبحث عن هذا الأخير أينما وجد، فالمهم أنه موجود؛ فإذا لم يجدوه في الجماعة المحلية عليهم أن يبحثوا عنه في العمالة و إذا لم يجدوه في العمالة عليهم أن يبحثوا عنه في الوكالة الحضرية، المهم أن لا يتوقفوا عن البحث. فالبحث البحث عن التصميم يا من ليس في قائمة اهتماماتهم اليومية سوى البحث عن التصميم. و يستمر هذا المستشار المحترم في إسداء مزيد من النصح للمتضررين قائلا لهم: بعد أخذكم لهذه المساعدات، طالبوا بالمزيد فهذا القدر أفضل من لا شيء، فالمخزن ليس من مهمته إعادة إسكان المنكوبين، فهذه مصلحة خاصة، إن مهمته هي إنجاز المشاريع الكبرى ذات النفع العام. و كأني بهذا المستشار/الدكتور قد قدم من المريخ لا يعلم ما ينص عليه الدستور المغربي، و لا ما تتضمنه المواثيق الدولية التي صادق عليها المغرب و لا اطلع على تجارب البلدان الأخرى فيما يخص إعادة إيواء المنكوبين ضحايا الكوارث الطبيعية. نهمس في أذن هذا الشخص و ندعوه – إذا كان يعرف جغرافية جماعته و تاريخ الإدارة المغربية جيدا- أن يتخيل مواطنيه المنكوبين و المنهوكين يتنقلون يوميا من دواوير مثل بوزْدور و آيث ادريس و إدْهْدوهن ومارُويْ و إبونْهارن...- نقول: يتنقلون فقط- إلى مقر جماعة آيث عبد الله، حتى لا نقول إلى مقر مشروع الوكالة الحضرية أو إلى العمالة حيث سيضيعون، من دون شك، بين دهاليز و مكاتب مثل هذه الإدارات دونما أدنى فائدة. كما نهمس في أذنه لنقول له : إن المشرفين الحقيقيين على مهزلة إعادة الإسكان يتحدثون عن مجرد "خلية تصميم" بينما أنت تتبجح بالتصميم الكامل والمجاني، أهي السذاجة منك و الجهل أم الاستهانة بالمواطنين و الكذب عليهم ؟ ! و الغريب في الأمر، أن الكلام الذي صرح به هذا المستشار و غيره شبيه إلى حد التطابق بما يروجه أعوان السلطة من مقدمين و شيوخ بين المواطنين ليقنعوهم بأخذ "الإعانات"؛ ممثلون نصبهم السكان للدفاع عن مصالحهم يدعونهم كما المقدمين لأخذ إعانات لا تسمن و لا تغني من جوع ليبنوا بها قبر حياتهم بأنفسهم ! إنها مفارقة غريبة و مشمئزة حقا.


لوحة للفنان عمر برايزيد

و ها هو نائب رئيس جماعة آيث يوسف و علي يطل من نفس الإذاعة المذكورة، يُسأل عن سبب امتناع المواطنين عن أخذ "المساعدات" فيجيب بالحرف، أن السبب في نظره هو انشغال السكان بجمع المحاصيل الزراعية ! ثم يتابع : بعدما سيفرغون من ذلك سيأتون لأخذ المساعدات ! و لم يفت هذا المستشار أن يضيف –وبكل وقاحة- إلى السبب المذكور أسبابَ أخرى، لكنها لم تكن من نظره، لقد استظهرها حرفيا من البيانات والنداءات التي أصدرتها هيئات المجتمع المدني بخصوص مهزلة إعادة الإسكان؛ فشتان ما بين السبب الأول الذي هو من نظر السيد المستشار و تلك الواردة في البيانات المذكورة؛ شخص يهلل مع المهللين و يوقع مع الموقعين على برنامج إعادة الإسكان، ويبرر عدم أخذ المنكوبين للمساعدات بكونهم منشغلين بجمع المحاصيل الزراعية، ثم يتلوى على المبررات التي بررت بها هيئات المجتمع المدني رفضها القاطع لذلك البرنامج فيتبناها كما لو أنها من إبداعه؛ إنها أفكار و مواقف لا يربط بينها أي رابط، فأي هذيان هذا و أي استهتار بالمستمعين و المُتَلّين !؟

في عدد سابق من هذه الجريدة، كنا قد تحدثنا عن التخبط و العجز الكبيرين اللذين أبان عنهما المسؤولون بخصوص مواجهة آثار كارثة زلزال 24فبراير الماضي، و كنا قد خرجنا بخلاصة أساسية مفادها أن محاسبة جميع المسؤولين السابقين و الحاليين أضحت مهمة مستعجلة وخطوة ضرورية و أساسية يجب اعتمادها إذا أردنا فعلا أن نعيد إعمار منطقة الريف و ندفع بها نحو إقلاع حقيقي؛ نوعي و شامل. كما أن السكان بوعيهم ويقظتهم و بوحدتهم و تضامنهم و بانخراطهم في أشكال تنظيمية جديدة، يمكن لهم أن يحدوا من جميع أشكال الفساد و النهب و التهميش التي تطال بلادهم: الريف. وها نحن نرى كيف أن نفس الأخطاء لا زالت تتكرر و نفس العقليات ما زالت تتحكم في مصير البلاد و العباد- رغم فاجعة الزلزال و مخلفاتها- بدءا بالطريقة التي أُجْريت بها الخبرة على المنازل المتضررة، و انتهاء بنوع المساعدات التي خُصِّصت للمتضررين و الكيفية التي توزَّع بها؛ فكلنا لاحظ و تأكد بما لا يدع مجالا لأدنى شك كيف أن منا زل متهدمة و مهجورة لم تُعمَّر منذ السبعينات تصدرت لوائح المنازل المنهارة بفعل الزلزال ! و أخرى سقط تحت أنقاضها عدة ضحايا لم يتم إحصائها نهائيا، و منازل لم تصب بأدنى ضرر أحصيت ضمن المنازل المنهارة جزئيا، و أخرى عُدت منهارة كليا في حين أنها لم تصب إلا بشقوق بسيطة، و كيف أن أسرا محسوبة أو مقربة من رجال و أعوان السلطة أصبحت تحتل مواقعها ضمن قوائم المنكوبين المقترَحين ليستفيدوا من الإعانات، في حين أن منازلها لم تصب بأي ضرر...إلى غير ذلك من الخروقات الخطيرة و الفاضحة. و قد سمعنا عن التهم التي تُبودلت بين السلطات المحلية وأعوانها من جهة و مسئولي L.P.E.E من جهة أخرى، بخصوص هذه الخروقات ! وبين مثل هذه التهم المتبادلة، وغياب المحاسبة و تغييب القانون و الاكتفاء برفع الشعارات الجوفاء تضيع مصالح المواطنين و تتعرض حياتهم للخطر و تتوقف عجلة التنمية الحقيقية للمنطقة.

و أخيرا، نريد أن لا تفوتنا هذه الفرصة دون أن نطرح السؤال البديهي التالي على السيد وزير الإسكان والتعمير : معالي الوزير، أنت الذي تعرف جيدا قوانين وأعراف البناء، صرحت يوما لقناة "إتم" في معرض جوابك عن سبب تأخر الحكومة في إعادة إسكان ضحايا زلزال الحسيمة، بأن المواطن الذي يريد أن يبني مسكنا خاصا به، يحتاج إلى شهور و شهور للقيام بالإجراءات اللازمة قبل الشروع في عملية البناء، من اختيار للموقع و إعداد لتصميم و رخصة البناء و بحث عن العمال... فما الذي يجب على المواطنين المنكوبين في إقليم الحسيمة أن يعدوه أولا لإعادة بناء منازلهم وفق معايير البناء المقاوم للزلازل: اختيار المكان الملائم للبناء ثم إعداد التصميم المناسب، أم إحضار بضعة أكياس من الإسمنت و بضعة قضبان حديدية من عيار 6و 10و تخزينها أولا، ثم البحث بعد ذلك عن الرخصة و "خلية التصميم"؟

بين الإرتباك الواضح والتناقض الصارخ

تقديم :

إذا كان من الطبيعي أن تشهد منطقتنا زلزالا عنيفا خلف المئات من الضحايا والمشردين، باعتباره كارثة طبيعية ، وإذا كان من العادي أن تعرف عملية الإنقاذ وتوزيع المساعدات ارتكابا وتجاوزات باعتبار الظرفية الإستثنائية والمفاجئة للحدث، فإنه من غيرالطبيعي ولا العادي أن يتم الإعلان عن برنامج استغرق مدة زمنية كافية وكبيرة من طرف الحكومة التي سخرت له طاقات بشرية مهمة، يمكن لكل واحد أن يكتشف عيوبه وثغراته، سواء تلك المتعلقة بكونه يتعارض مع طبيعته الإستعجالية، أو ما يتعلق بالشق المخصص لإعادة الإعمار في العالم القروي، وهو ما يهمنا بالدرجة هنا الأولى، الغير قابل للتطبيق .

١- في مفهوم الإستعجالي :

نقول إن أمرا ما هو أمر استعجالي، إذا كان لا يقبل التأجيل، بمعنى أننا عندما نسمع عن برنامج استعجالي، فإننا ننتظر منه أن يعالج ما هو غير قابل للتأجيل نظرا لحساسيته وأهميته، فهل يمكن أن يختلف إثنان حول أيهما يستحق الصبغة الإستعجالية : إسكان العائلات المنكوبة التي تقضي أيامها ولياليها في العراء أم إقامة مركبات ترفيهية واستشفائية حتى ؟

إن البرنامج الإستعجالي يجب أن يسعى إلى معالجة وضعية جديدة تولدت بسبب من الأسباب، ومحاولة إعادة المياه إلى مجاريها والرجوع إلى الحالة العادية، إذن لما حدثت الهزة ما هي الوضعية التي تغيرت ويتوجب معالجتها ؟ وهل شق الطرق وإقامة مركبات ترفيهية ومرافق إجتماعية تسببت الهزة في تولد الحاجة الإستعجالية إليها ؟ بشكل أكبر من إيواء البشر ؟

إن إقامة كل المرافق الإجتماعية والترفيهية هي مهمة وضرورية للمنطقة التي هُمِّشت لعقود من الزمن، وكل محاولة لربطها بالنسيج الوطني وإدماجها فيه، هي محاولة طيبة سيرحب بها الكل وستدخل السعادة بطبيعة الحال على جميع قاطني الإقليم، لكن إيواء السكان المنكوبين هي صاحبة الأولوية، حفاظا على كرامة الإنسان من جهة، وتأكيدا للرابطة التي تجمع المواطن بالدولة .

وهنا لا بد من الإشارة إلى نظرية ماسلو في التسلسل الهرمي للحاجيات البشرية، حيث يؤكد في بحث له عن وجود تسلسل تراتبي للحاجيات (حاجات : فزيولوجية، الأمن، الحب، التقدير، فحاجات تقدير الذات) ، حيث أنه كي يحس الفرد، مثلا، بحاجاته إلى الأمن يجب أن يكون قد حقق إشباعا لرغباته الفزيولوجية، وهكذا فالجسم عندما يشعر برغبة وحاجة ماسة إلى الطعام، فإن جميع الحاجات الأخرى ستتراجع إلى الوراء، وتتجند كل طاقات الكيان العضوي للعمل من أجل إشباع الجوع، وتصبح الحاجات الأخرى غير مدرجة ضمن اهتماماته .

وهذا ما غاب عن أولئك الذين كانوا وما زالوا يطبِّلون لهذا البرنامج، الذين يحسبون أنفسهم من نخبة المجتمع المدني، عندما توجهوا إلى سكان يعيشون في العراء كي يقنعوهم بفوائد البرنامج، فقوبلوا باستهجان ومعارضة حادة . فالذي يعيش وضعيته، وأنا من بين الذين يعيشون في العراء، سيعرف فعلا قوة الحاجة إلى المأوى، وهي حاجة توجد قبل الحاجة إلى التفكير في التنمية والإندماج .

٢- ارتباك وتناقضات :

إن البرنامج الذي أُعلِن عنه، لا يتناسب بتاتا مع حجم الإنتظار الذي خلقه، ولا مع طول مدة إعداده، ولا يتوفر على أي انسجام مع ذاته كبرنامج حكومي من المفترض أن تتوفر فيه شروط المنظومة المتناسقة، ولا مع سياق الأحداث .

– سمي البرنامج ب «الإستعجالي» في حين أن الأهمية فيه أُعطيت لبرامج غير استعجالية قياسا على استعجالية مشكل السكن، وقد تم توضيح هذا الإشكال سابقا .

– إن المبالغ المرصودة لمساعدة المتضررين على بناء السكن، بالإضافة إلى هزالتها، تكشف عن ارتجالية واضحة في تدبير الأمور وحل المشاكل، فلم يتم التفكير في كيفية إيصال هذه المساعدات إلى المستفيدين، ولا في كيف ستتم عملية البناء، (من يبني، بماذا، كيف...؟!) .

– إذا سلمنا بمصداقية المختبر العمومي للدراسات والتجارب الذي أُسندت إليه عملية الخبرة التقنية، فإنه من غير المنطقي ولا العملي أن ترتبط المساعدات، بالنسبة للبناء التقليدي، بذلك التصنيف الخشبي. فكيف نفسر وجود فارق في التعويضات بين السكن المنهار والمهدم جزئيا والذي يشكل خطرا على مستغليه؟ إذا كان هناك فارقا، فيجب أن يكون لصالح ذلك البناء المهدم جزئيا ما دام يتطلب ميزانية إضافية لإتمام هدمه، وليس فقط الاكتفاء بإصلاحه، لأنه تقنيا غير قابل للإصلاح.

–يقترح البرنامج تقديم القليل من الإسمنت والحديد لإصلاح منازل بنيت بشكل تقليدي، فما هذا؟ إنها قمة الارتباك والارتجال. لماذا لا يتم تسمية الأشياء بمسمياتها، وضبط كل الخطوات؟

– في جميع الحالات، فإن قانون إلزامية البناء المضاد للزلازل أصبح ساري المفعول، وأعلنت الحكومة صرامتها في تطبيقه بالحسيمة، باعتبارها منطقة نشيطة زلزاليا، فكيف نطلب من سكان نعرف دخلهم الضعيف أن يحترموا معايير البناء المضاد للزلازل، ونحن نقدم لهم فقط مساعدة غير كافية؟!

٣- عن «إعادة الأعمار»:

قبل الحديث عن «إعادة الإعمار»، من المشروع أن نتساءل هل كان هناك فعلا «إعمار»؟ إن الدراسات التي تناولت قضية الإعمار في كل منطقة الريف، تشير إلى وجود عدة مراحل شهدتها المنطقة، حيث عرفت رواجا من خلال مجموعة من المراكز الحضرية والموانئ التي كانت نشيطة إقتصاديا وسياسيا، وكانت تلعب دورا مهما في علاقات المغرب بأوروبا، يمكن ذكر: «تارغا»، تيجيساس، مستاسة، بادس، بوسكور، النكور، المزمة...قبل أن يتم تدمير بعضها من طرف الفاطميين والمرابطين والغزو الأجنبي، لتتقلص تدريجيا قبل أن يحل فيها المستعمر الإسباني ويضع النواة الأولى للمركز الحضاري بـ«بيا» وترجيست، وبقي الوضع عما هو عليه حتى بعد الاستقلال، إذ لم تشهد المنطقة أي برنامج إعماري أو مخطط تنموي، فقط بعد السبعينات، بدأت الأموال الآتية من الضفة الأخرى بعد ظهور الهجرة إلى أوروبا، في تشييد والمساهمة في إقامة مراكز حضارية وتطوير العمران. فالسؤال المطروح هو لماذا لم يظهر أي مركز حضري بعد تدمير بادس والنكور إلى غاية دخول المستعمر الإسباني؟ ولماذا يغيب في المنطقة «السكن الإقتصادي»؟ ولماذا لم يتم تشجيع المنعشين العقاريين للاستثمار في المنطقة؟

خاتمة:

إن التفكير في حل مشكل هؤلاء المنكوبين الذين هم في حاجة إلى سكن يعيشون فيه حميميتهم، ويصون كرامتهم، ويقيهم من قساوة الطبيعة، يجب أن يكون نابعا من كون أن هؤلاء المواطنين ينتمون إلى هذا الوطن الذي عبر بكل تلقائية عن تضامنه معهم وتقديم المساعدة لهم، وأن يكون حلا عمليا متقنا وليس حلا مؤقتا وهدرا للمال والزمن. وإن الهروب إلى الأمام وسياسة الأمر الواقع لا تجدي عندما يتعلق الأمر بحاجيات توجد في أسفل هرم الحاجيات البشرية بالنسبة لذلك المنكوب الذي يواجه الآن الطبيعة بأساليب بدائية.

عبد الحفيظ فلاح

الزلزال في... ماطارو

أسماء أوطاح/ ماطارو

ارتجّت أركان كل بيت مهاجر ريفي في أوروبا بوصول خبر زلزال 24 فبراير. كان رد الفعل زلزالا هزّ الأوصال ومزق الكينونة. زلزال زاد من جبروته الخوف، لعدم معرفة حقيقة ماجرى والحصيلة وما بعد الحصيلة.. والإحساس بالعجز عن فعل أي شيء قد يخفف من وقع الفاجعة.

واشتد البكاء والعويل والآه والعزاء... لكن ماذا بعد؟ تساءل المهاجرون وأجابوا عن السؤال في حينه. انضموا لبعضهم البعض وقرروا ونفذوا أضعف الإيمان؛ لأن أكبره كان لمن عاش الزلزال. وقد وجدوا في الإطارات الأوروبية المتضامنة مع الإقليم خير معين لهم للقيام بمبادرة تضامنية قد لا تحقق الشيء الكثير، لكن دونها سيكون هناك شعور باللاجدوى وعدم استحقاق الانتماء لتلك الأرض التي تئنّ.

وفي مدينة ماطارو، إقليم برشلونة، قامت ذات المبادرات في ذات يوم وقوع الزلزال، إذ تشكلت لجنة من عدد من مكونات المجتمع الماطاروي التي تحمل هم المهاجر وهمّ التعايش بين المهاجرين والسكان الأصليين، بمعية المهاجرين الريفيين المقيمين بالمدينة، إضافة إلى بلدية ماطارو، لتعلن قيام حملة تضامنية استعجالية، وباشرت مجموعة من الأنشطة:

– فتح حساب بنكي لجمع التبرعات.

– تنظيم حملة إعلامية في الصحافة المرئية، المسموعة والمكتوبة.

– إرسال طائرة مساعدات بالتنسيق مع الصندوق الكاطالاني للتعاون من أجل التنمية.

عقد تجمعين إعلاميين.

– تنظيم وقفة تأبينية بعد مرور شهر على الفاجعة.

عرض مبيعات في مختلف التظاهرات الثقافية المنظمة بالمدينة.

وقد كان المهرجان التضامني ليوم 29 ماي الأخير، آخر الأنشطة المنظمة في إطار الحملة، متضمنا البرنامج التالي:

-1 فقرات غنائية من أداء المجموعات التالية:

– مجموعة «تواتّون» من مدينة ماطارو.

– مجموعة «عينومازيغ» من مدينة فيك.

– مجموعة «ءامازيغ» من مدينة برشلونة.

– محمد ثيغانيمين من مدينة مانيوم.

– مجموعة els partidaris من ماطارو.

– Ernest Martinez

– Mutte off

2= لوحات من الرقص الشرقي من أداء فرقة LVI الكاطالانية.

3- سكيتش فردي باللغة الإسبانية تحت عنوان «الزلزال في المهجر» من تأليف أسماء أوطاح.

4- عرض مبيعات مختلفة (ملصقات، أقمصة...)

5- بيع مأكولات من مساهمة مدرسة لتعليم الطبخ ببرشلونة.

وبخصوص القاعة التي احتضنت المهرجان فهي من مساهمة مركز CLAP للسهرات. ومن أهم مكونات اللجنة المنظمة للحملة:

– مجموعة من الريفيين المقيمين بمدينة ماطارو.

– بلدية ماطارو، التي حضر عمدتها المهرجان.

– المجلس الجهوي للماريزم.

– فدرالية جمعيات الجيران بمدينة ماطارو.

– جمعية جيران حي روكافوندا بماطارو.

– جمعية كوديسيما لحماية البيئة.

"من وحي إعادة الإعمار":

القصص الخرافية والإشاعات تتحدى وسائل الإعلام الحديثة

بعد أن اعلن الوزير الأول عن البرنامج الحكومي في اللقاء الذي جمعه بممثلي السكان وبفعاليات من المجتمع المدني بمقر ولاية جهة تازة-الحسيمة-تاونات والمرتبط بما أسموه" إعادة الإعمار بمنطقة الحسيمة " بعد زلزال 24 فبراير 2004 وما أعقب ذلك من ردود فعل من سكان بعض الجماعات الذين عبروا عن رفضهم للمساعدات المقدمة لهم في إطار إعادة البناء.

سكان هذه الجماعات نظموا مسيرات ووقفات احتجاجية ضدا على الصيغة المعتمدة في معالجة موضوع إعادة البناء وكذلك لحجم المساعدة المرصودة لهذا الغرض.

ما عبر عنه سكان جماعات كل من ايت يوسف وعلى وايت قمرة وإمرابطن اضحى الحديث اليومي بين المواطنين كل بطريقته الخاصة بسرد ما يصلهم من أصداء وإطلاق العنان لمخيلتهم الواسعة للإبداعات الخيالية ، ومن الغرائب التي لم تستطع وسائل الإعلام لا المرئية ولا المسموعة نقلها للناس ليتمتعوا بحقهم في الخبر ، نذكر على سبيل المثال بعض ما يروج في صفوف العامة كل ما أتيحت لهم فرصة الحديث عن جماعة إمرابطن : " سكان تامسينت منحت لهم 16 مليون سنتيم كمساعدة لإعادة بناء منازلهم المتضررة من الزلزال لكنهم رفضوها مجددا"وفي نفس الاتجاه يذهب آخرون إلى القول أن سكان تامسينت اتفقوا على أن يحلقوا رؤوسهم جميعا تعبيرا عن غضبهم في حالة إذا ما أقدم أي مسؤول رفيع المستوى من الدولة على زيارة جماعتهم . ويشاع كذلك أن دولة قطر تبرعت لسكان القرى النائية بالحسيمة بحمير مرشومة بعلامة على جباهها حتى لا تباع ولا تشترى وأحد المواطنين بدوار أيت طاعة طلب من أبيه السعي للحصول على حمار من نفس النوع، لكن الأب امتنع عن ذلك بدعوى أن هذا الصنف من الحمير لا تستطيع مقاومة وتحمل الصعاب ووعورة التضاريس التي تتميز بها منطقة الريف.

" كان من الأولى أن تساهم قطر مع العراق في إعادة الإعمار بدل الحسيمة بهذه «الأحمرة» يقول احد الذين سمعوا الخبر .

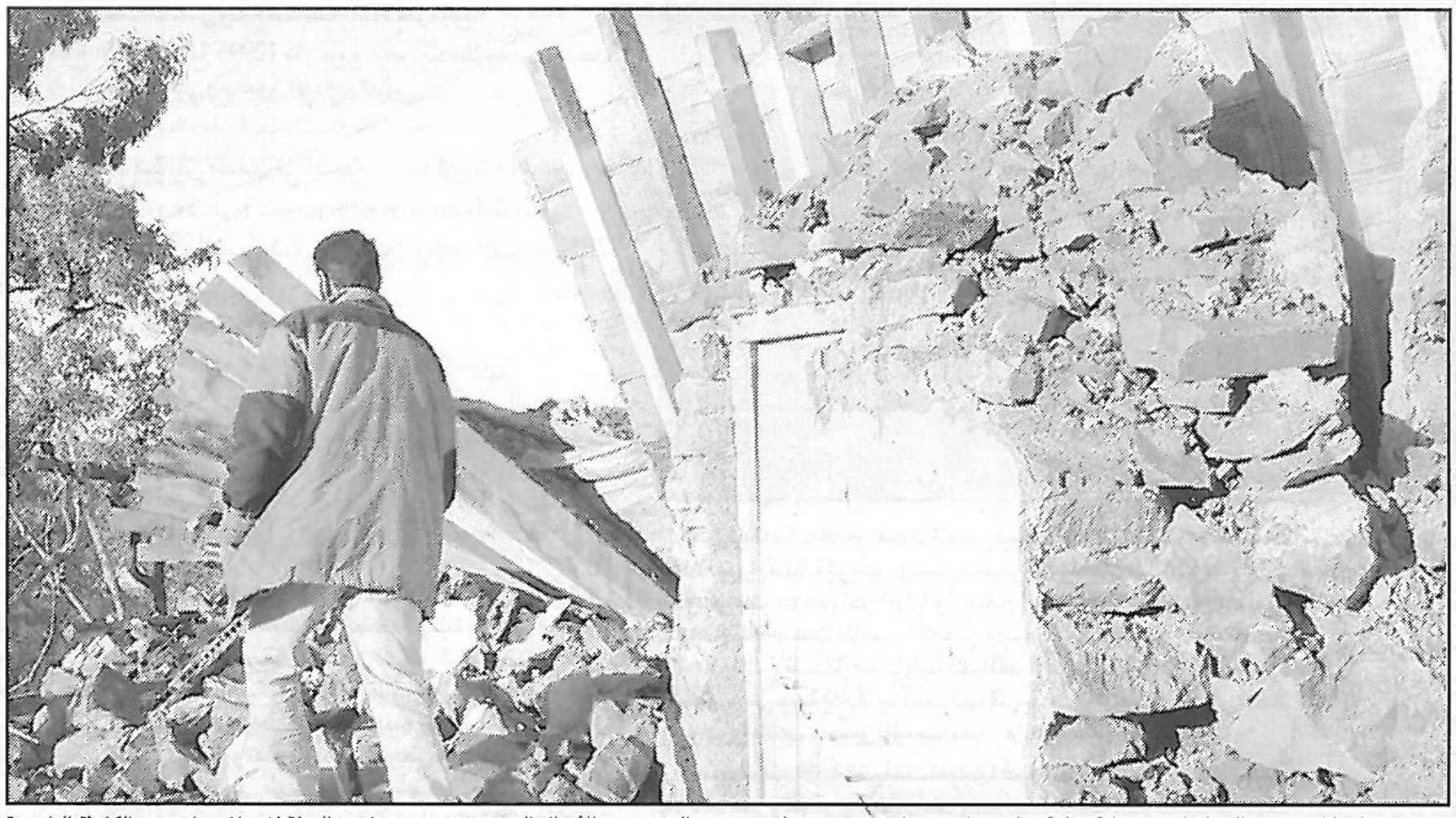
أما سكان جماعة منوذ فقد فكوا عقدة قريحتهم الشعرية عقب الزيارة الملكية الأخيرة للمنطقة مرددين شعار يقوا في مطلعه " امنوذ إكسي إكسي إرحسذ ما يمي": لماذا الحسد وامنوذ قد اخذ" والمقصود هنا الإستفادة من الإسمنت والحديد وقليل من الدراهم. هذه الدراهم التي استفاد منها أحد سكان الجماعة المذكورة وكانت فرحته كبيرة ، لكن كان لابد عليه أن يبلغ قائد ملحقة النكور بغحاطة علما حسب ما يراج مفادها أنه حصل على المساعدات النقدية وكذلك الإسمنت والحديد لكن يتوجب عليه نقل هذه السلعة وهذا ما تعذر عليه لكون المسافة التي تفصل دواره عن مقر الجماعة كبيرة وعند الوصول لن يتمكن من إيصالها إلى مقر سكناه نظرا لضعف بنية حماره وعدم اتساع حجم " الشواري" التي يضعها على ظهره والتي لا تفوق حجم طربوش كان يضعه على رأسه.

هذا النوع من الحديث الذي أصبحت تتناقله الألسن في الأوساط الشعبية لعموم المواطنين يفتقد لكثير من الصحة والموضوعية السليمة كالأحياء الشعبية التي تتسم بالبناء العشوائي وارتفاع لمعدلات الجريمة . والمطاعم الشعبية التي تفتقد في معظمها لأدنى الشروط الصعبة ، وقس على ذلك.

باستثناء المطالب الشعبية التي تبقى دائما عادلة ومشروعة في عيون الجماهير الشعبية طبعا.

محمد بوطسغونت

علينا ألا نخذل منكوبينا... وحذار من تكرار التجارب الفاشلة



مع بداية كل شهر تطل علينا جريدتنا "تفراز" بملف خاص حول موضوع محلي، يكشف بعض المستور من تفاصيل زاوية من زوايا أزمة التنمية الشاملة بهذه المنطقة المعزولة. وتعضده مواضيع أخرى منوعة لا تقل أهمية.

وخلال العدد الأخير (ع: 13)، جاء الملف استجابة لعطش جماهيري عام بالمنطقة، عطش المعلومة الحقيقية التي ظلت ضائعة بين الدعاية السياسية والإشاعات المتفائلة واليائسة، وأحاديث الكواليس ، وأخبار السوق...

عنوانه العريض كما يعلم عشاق جريدتنا هو :" إعادة إعمار وتأهيل الحسيمة" . ومن بين مواضيعه الأساسية، مقال أخينا سعيد الغزواني الذي كان عبارة عن تقديم واستعراض الخطوط العريضة لبرنامج الحكومة، مذيلا ببعض الملاحظات التي بدت في رأيه أساسية.

فاستهل ملاحظاته بالتحذير من النظرة التجزيئية في تقييم البرنامج الحكومي ن داعيا إلى التسلح برؤية استراتيجية شمولية في النظر وتقييم هذا البرنامج . ثم أعقبها بإشارة إلى المشاكل والصعوبات التي ستطرحها إعادة بناء مساكن المنكوبين، إلا أنه بالمقابل أكد على أن المشاريع التأهيلية المهمة ستدفع بتحريك عجلة " التنمية المحلية، ومنحها الإيقاع المطلوب، ليخلص إلى دعوة للانخراط في دعم البرنامج الجديد والفريد، معتبرا ذلك واجبا على الجميع ، بدل الاكتفاء بالتطبيل له ، ثم ننام مستريحين ، لأن ذلك سيكون بلاهة حينا وبلادة حينا آخر...

بمجرد إنهائي قراءة المقال، أحسست أن الملاحظات الواردة فيه، كانت في جوهرها انطباعا أوليا عاما تجاه البرنامج، لم تراع فيه أولويات المنطقة في الوقت الراهن. والتي تتجاوز، إصلاح شارع هنا، وشق مسلك هناك، أو مد أنبوب، وإصلاح مركب سياحي، أو تدشين وإعادة تدشين مشاريع قديمة / جديدة. مع ما لهذه المشاريع من أهمية، بعد إيجاد حل حقيقي للساكنة المنكوبة بالمنطقة، يحول دون تدشين سكة لقاطرة الهجرة الجماعية.

لعل ردود الفعل التي أبداها المواطنون بالقرى المنكوبة تجاه البرنامج الحكومي، وخاصة الشق المتعلق منه بإعادة بناء مساكنهم، والتي اتسمت بالرفض والاحتجاج، رغم كل التطبيل الذي قوبل به من طرف المسؤولين والانتهازيين، وحتى بعض الذين اختلطت عليهم مسؤوليات الدولة الآنية وديونها السابقة تجاه المنطقة. فأعوزهم التمييز بين الأموال التي ضخت في صناديق الدولة لإصلاح ما دمرته الكارثة الطبيعية، وما خربته يد الإهمال والفساد في مخزن "المغرب النافع " منذ استقلال البلاد.

وهنا أقول لأخينا سعيد: إن واقع الحال أفصح من كل مقال، ومن كل البيانات الصادرة من هذه الجهة أو تلك، ومن كل المذكرات المطلبية المرفوعة إلى السيد الوزير الأول بخصوص نقائص واختلالات البرنامج الحكومي، فالشعب عبر عن رأيه بعفوية، وطالب ببيت محترم لكل أسرة منكوبة بدل مبالغ ومساعدات لا تكفي إلا لبناء أرصفة لنصب الخيام في انتظار البناء مستقبلا... كيف؟ ومتى؟ ... هذا ما يرفض المنكوبون تأجيل الجواب عليه.

ومن مظهر يقظة أبناء الشعب هنا أيضا، أنهم لم يطلبوا أصلا لهذا البرنامج، فكيف نخشى أن يناموا مستريحين ، مادام "قدرهم الحكومي"أن وعدوا بليال أخرى في العراء. بالمقابل نجد أن كل من طبل لهذا المشروع بكليته ورقص، قد لحقه العار والخزي، لأن أجواء المأتم والجنازة ما تزال جاثمة على الخرب والجدران الآيلة للسقوط بالقرى المنكوبة.

حتى ممثلو المنكوبين المنتخبين الذين أذعنوا لوعد أو وعيد مسؤولي الدولة الكبار، أصبحوا لا يساوون أكثر من خدام أوفياء للمخزن في مساعدة المقدم والشيخ، بعد أن أقالهم منتخبوهم قولا وفعلا، نتيجة موافقتهم وقبولهم بالأمر الواقع. وأصبح من الأفضل لكثير منهم، حفاظا على ماء وجوههم، إن بقيت بها حمرة، ان يقدموا استقالاتهم. بعد ان فقدوا ثقة المواطنين، بل وحتى ثقة الدولة في مدى تمثيليتهم مستقبلا.

وأخيرا أقول مع صاحب المقال:" يجب التحلي بروح المسؤولية من لدن الجميع بغية التصدي لكل من سولت له نفسه التلاعب بمصير هذا الإقليم"...، وأضيف بل مصير منكوبي هذا الإقليم منذ خمسة أشهر تقريبا بالزلزال أولا، والمتضررين منذ خمسة عقود بسياسة التهميش ثانيا. حتى لا نكون قد ساهمنا في إنجاح خطة التهجير من وراء لافتة " إعادة إعمار"، لتكون الانطلاقة أسلم، وكل الأمل معقود على يقظة الشعب، ووعي مثقفيه الشرفاء. والمعركة مازالت في بدايتها للدفاع عن حقوق هذه المنطقة في الإعمار والتنمية بكل الطرق الحضارية والمشروعة.

عبد الرحمان الزكريتي

هذا الغلاف

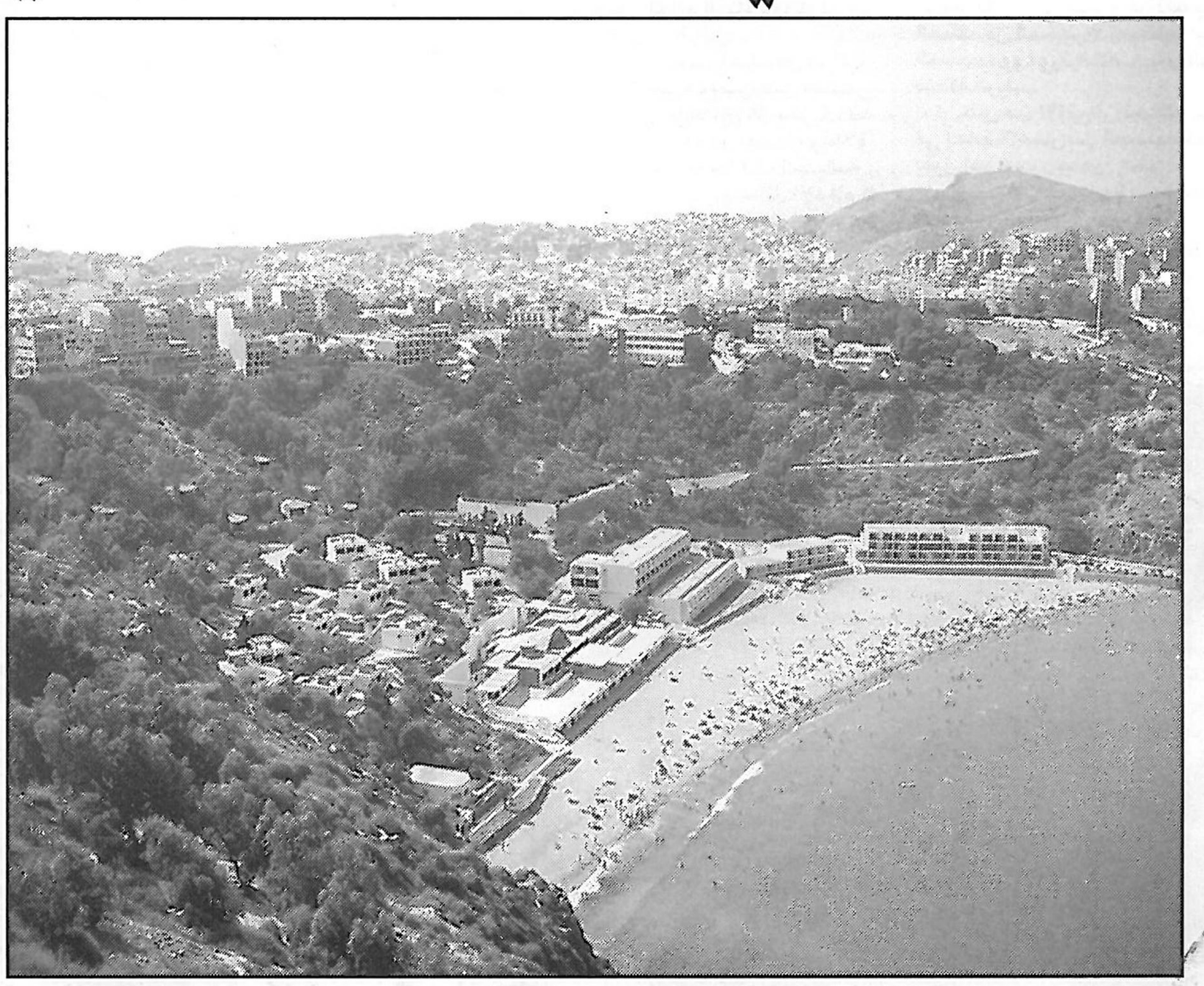
بحلول فصل الصيف، يكتسي موضوع الشواطئ والمنشآت السياحية للإقليم أهمية خاصة، بالنظر إلى كون القطاع السياحي يشكل قاطرة حقيقية للدفع قدما بالتنمية المستدامة والمنشودة للمنطقة، خاصة وأن الحسيمة تحوز إمكانيات ومؤهلات طبيعية متنوعة هائلة، تجمع بين البحر والجبل والشجر.

أما هذا الغلاف، فيحصر موضوعه في الشواطئ والمنشآت السياحية المتوفرة بها. لذلك، عمدنا إلى محاولة الإحاطة بكل أو قل أهم الشواطئ التي يزخر بها الإقليم، لاسيما تلك التي يؤمها الناس ويتخذونها فضاءات للاصطياف. ولعل تقصينا للموضوع قد قادنا إلى الإمساك بحقيقة ثابتة ومحورية مفادها: أن إقليم الحسيمة، من جهة، وهبته الطبيعة وجها سياحيا بالفطرة؛ وبالتالي فإن جمالية شواطئنا تسحر الناظرين القائمين والعابرين وحول ذلك لا يتجادلون. ومن جهة أخرى، بالمقابل نجد الإنسان الوصي على هذا المجال، لا يبذل، من طرفه، أي جهد بغاية الرقي أكثر بهذه الطبيعة الفاتنة أو الإبقاء عليها، كما هي، على الأقل؛ حيث يتراءى أمامنا الإهمال وسوء الاستغلال والتأهيل المؤجل. تلك، إذن، هي السمة الغالبة على شواطئنا ومنشآتنا السياحية بالحسيمة.

وتجدون بين طيات هذا الغلاف ما يؤكد هذه الحقيقة.

شاطئ كيمادو: بين الجمال الطبيعي وسوء الاستغلال البشري

■ سعيد الغزواني



بطاقة تقنية للمركب السياحي "كيمادو" بالحسيمة:

التعريف: شركة المغرب السياحي التابعة لصندوق الإيداع والتدبير.

التأسيس:

- فندق محمد الخامس سنة 1961.
- مركب "كيمادو" سنة 1964 .
- ملحقة فندق محمد الخامس 1974 .

المساحة:

- فندق محمد الخامس تبلغ مساحته2820 متر مربع.
- مركب "كيمادو" وتبلغ مساحته 7020 متر مربع.
- ملحقة محمد الخامس وتبلغ مساحته 3156 متر مربع.

المجموع الإجمالي يبلغ 12996 متر مربع، أرض محفظة ومسجلة تحت اسم شركة المغرب السياحي وصندوق الإيداع والتدبير.

الخاصية:

- فندق محمد الخامس مصنف في 4نجوم، وطاقته الإيوائية 74 سرير.
- مركب كيمادو مصنف في 3 نجوم، وطاقته الاستيعابية204 سرير.
- ملحقة محمد الخامس مصنف في 2نجمتين، وطاقته الاستيعابية 72 سرير.
- 30شالهات، وطاقتهم الاستيعابية 118 سرير.

مجموع الطاقة الإيوائية للمحطة السياحية تصل 468 سرير.

وتتوفر هذه المحطة على المرافق التالية: 2 مطعم - صالون - 2حان - نادي ليلي - محلات تجارية - 2 ملعب لكرة المضرب - 3شرفة كبيرة - موقف للسيارات - إضافة لتجهيزات أخرى.

مرحلة ماقبل تفويت المنشأة:

مع بداية عقد الستينات من القرن الماضي، عمدت الدولة المغربية، وبشكل فجائي، إلى إيلاء منطقة الحسيمة أهمية خاصة فيما يرتبط بإنعاش السياحة المحلية، حيث وقع اختيار الحسيمة من ضمن المناطق الخمسة ذات أولوية الإعداد، لتحظى بامتيازات جبائية إضافية من طرف قواني الاستثمار. هكذا عمدت الدولة إلى بناء المركب السياحي "كيمادو" بمدينة الحسيمة وفندق تدغين بكتامة، من قبل صندوق الإيداع والتدبير والمكتب الوطني للسياحة سنة 1961، وقد شكل هذا المركب السياحي طوال عقود الستينات والسبعينات والثمانينات، رافعة حقيقية لتنشيط الحركة السياحية بالإقليم وإنعاش اقتصاده، ومعلمة عمرانية متميزة وبطبيعة فاتنة ياما أغرت فئات عريضة من السياح من مختلف بقاع العالم إلى درجة أن كيمادو اشتهرت صورته عبر البطاقات البريدية في كل أنحاء المعمور.

شركة المغرب السياحي:

هي فرع من صندوق الإيداع والتدبير ((CDJ، أنشئت هذه المؤسسة في أواخر الخمسينات وهي متخصصة في التدبير والتسيير الفندقي والسياحي، وتفرعت عنها مجموعة من الفنادق المصنفة ومركبات سياحية في جل أرجاء المغرب، انطلاقا من شمال المغرب ثم الجنوب وكذا الوسط ويوجد مركز إدارة شركة المغرب السياحي بالرباط، تحت اسم شركة مجهولة الاسم(SA)، وكان رأسمال الشركة آنئذ 16.000 مليون درهم. إلى حدود الثمانينات كانت شركة المغرب السياحي تعد مدرسة في مجال التسيير الفندقي والسياحي، بحيث تخرجت منها أجيال من الأطر التقنية بكفاءة عالية في تدبير الإدارة الفندقية والسياحية على السواء.

وفيما بعد تأسست شركات سياحية وطنية أخرى فرضت على شركة المغرب السياحي التراجع نحو الوراء وبالتالي بدأت تفقد الدعم من صندوق الإيداع والتدبير.

أسباب خوصصة قطاع المغرب السياحي بالحسيمة:

بدأ قطاع المغرب السياحي يعرف نوعا من الركود وتراجعا مهولا في المداخيل ونقصا حادا في الحجوزات، وضعفا بينا على مستوى الخدمات والتسيير؛ إضافة إلى نهب وسطو عدد من الإقطاعيين على الشركة بفضل وجود"لوبيات" ضغط داخل الإدارة والمصالح التابعة لصندوق الإيداع والتدبير. نتيجة لذلك، أمست المؤسسة تعيش وضعية متردية على كافة الصعد والمستويات. ويتحمل مسؤولية ذلك المالك الأصلي للشركة من جهة أولى؛ والحكومة من جهة ثانية، ما دامت أنها قد مهدت الطريق لمن بادر إلى اتخاذ القرارات والتلاعب بمصير المؤسسة بعيدا عن كل محاسبة أو مراقبة.

نتيجة هذه الأزمة التي باتت تعيشها شركة المغرب السياحي، فيما يخص سوء التسيير والتدبير والاختلاسات وعدم إعادة الهيكلة لهذه الشركة من طرف الدولة في شخص صندوق الايداع والتدبير. حيث تم الاهتمام بالشركات الأخرى التابعة للصندوق في الجنوب والوسط، الشيء الذي جعل شركة المغرب السياحي لمنطقة الشمال تقف على حافة الإفلاس النهائي وبالتالي ضرورة تفويتها للقطاع الخاص.

مرحلة تفويت وخوصصة المركب السياحي "كيمادو":

منذ 1994، أصبح المركب السياحي بالحسيمة من بين منشآت الدولة المستهدفة بالتحول إلى القطاع الخاص بغاية إعادة الاعتبار للمؤسسة وإعادة هيكلتها فيما يرتبط بخدماتها وكذا الرفع من مستواها واستمرار نشاطها السياحي وتحسين أدائها وتقوية قدراتها. كانت تلك هي النية المزعومة من قبل الحكومة "التيقنو - قراطية" آنئذ بغرض التفويت. غير أن ذلك لم يتم لاعتبارات عديدة، منها أن نقابة عمال ومستخدمي المغرب السياحي التابع للكونفدرالية الديموقراطية للشغل بالحسيمة، كانت قد أصدرت بيانا أعلنت فيه عن موقفها الرافض للخوصصة وتفويت المؤسسة، وكذا الوقفات الاحتجاجية التي تبعت هذا الإعلان.

وفي سنة 1999 نجد من جديد هذه المحطة السياحية يتم إدراجها ضمن قائمة المؤسسات المستهدفة بالتفويت، وذلك بضغط من صندوق الإيداع والتدبير على الوزارة المعنية بحكم أن المدير العام لهذا الصندوق ينتمي لإحدى العائلات الاستقلالية والاتحادية، حيث تم عرضها على وزارة الخوصصة المشرفة مباشرة على كل التطورات المتعلقة بعملية التفويت وفقا للقوانين الجاري بها العمل. ومرة أخرى لم تنجح هذه العملية، خاصة بعد أن راسل الاتحاد المحلي لـ: ك.د.ش بالحسيمة، وزير الخوصصة في الموضوع، والذي كان رده بتاريخ 16/ 08/1999 بالحرف الواحد: "فإنني أنكركم أنه قد تم سحبه من لائحة المؤسسات الفندقية المرفقة لقانون 39/89، وتم إرجاع الملف إلى صندوق الإيداع والتدبير المالك الأصلي للمركب" (مراسلة موقعة من طرف وزير القطاع العام والخوصصة قبل تفويت الوزارة إلى فتح الله أولعلو).

غير أن واقع الحال يقضي بأن هذا المركب السياحي تم تفويته في ظروف غامضة جدا، بحيث تصرف خلالها صندوق الإيداع والتدبير في شخص مديره العام "القاري" كمالك له وتم تفويته بطريقة غير شرعية تماما، لأنه كان من الواجب أن يخضع لقانون الخوصصة رقم 89/39 المصوت عليه بتاريخ 11 دجنبر 1989 الصادر بظهير 1990.

ففي 1999/07/15 كان قد فوت وقدم كهدية لمن لم يحلم بذلك مطلقا، مقابل ثمن بخس بلغ 2,2مليون درهم، وهو ما لا يعادل لا ثمن الأرض ولا حتى ثمن التجهيزات المنقولة، علما أن أسعار العقار بالحسيمة تحتل أعلى المستويات مقارنة بالمعدلات الوطنية، حيث لا ينزل ثمن المتر الواحد من الأرض عن مليون سنتيم في أحسن الأحوال.

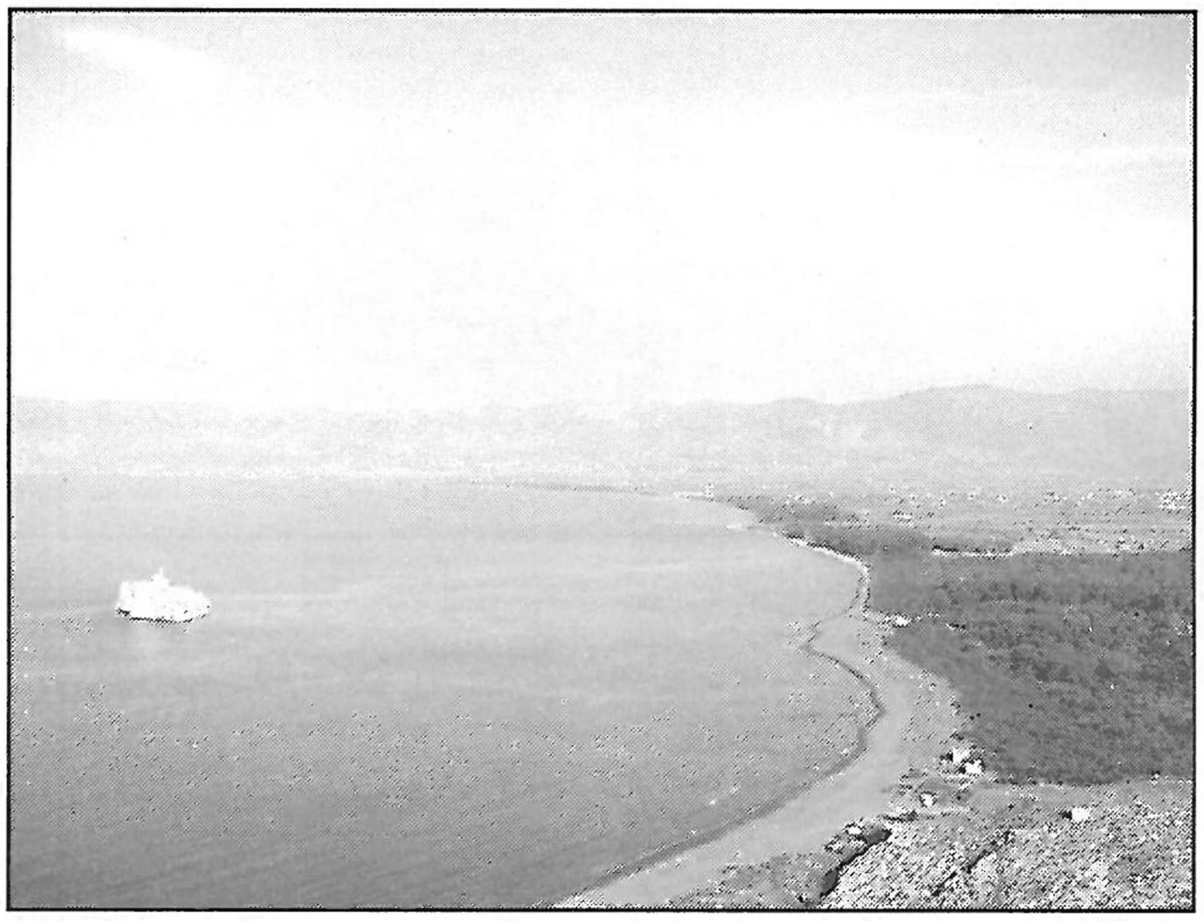
وأخيرا بيع وفوت... ولكن لمن؟؟؟ لشخص لا علاقة له مطلقا بالاستثمار والإنعاش السياحي، وهذا ما يتنافى مع ما هو منصوص عليه في دفتر التحملات في بنده الخامس من الفقرة الرابعة الذي يقول: "يجب على المستعيد أن يكون من أصحاب الصناعة السياحية أو يتوفر على تخصصات في هذا الميدان". فأي تخصص يتوفر عليه صاحبنا الفائز بالصفقة الخيالية غير تخصص تربية الأبقار؟!

إن ما حصل للمحطة السياحية "كيمادو" بالحسيمة، يعد نموذجا صارخا للإهمال وسوء التسيير والتدبير وتملص الدولة من واجبها في حماية الممتلكات العمومية وصيانتها وإبعادها عن أيدي المفسدين المفلسين. ولئن كانت الدولة قد انتبهت، أخيرا، لخطورة ما أقدمت عليه من قبل، ووعدت بإعادة هذا المركب لحظيرة المؤسسات العمومية من خلال الإشارة الواردة في خطاب الوزير الأول الذي تلاه خلال الشهر المنصرم، فإن الأمر يستدعي التعجيل باسترجاعه وإصلاحه ووضعه رهن إشارة المهنيين المنتسبين للقطاع بغرض استعادة هويته المفقودة ونشاطه الإشعاعي في مجال قطاع السياحة الذي يعد رافعة أساسية في سبيل تحريك دواليب التنمية المستدامة بالإقليم.

شاطئا "الصفيحة" و "الطايث"، نموذجان للاغتيال المنهج لمستقبل السياحة الشاطئية بإقليم الحسيمة

للحسيمة خليج هو أكبر خلجان المغرب جميعها، و هو فوق ذلك يفوح بعبق التاريخ، ما دام أن جزءه الغربي و الأوسط شكل على مر التاريخ إحدى المراسي و المحطات المهمة لجميع الشعوب التي كانت سفنها تعبر من شرق إلى غرب الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. و هكذا فقد ذُكر في المصادر و النصوص التاريخية القديمة و الحديثة تحت مسميات عدة منها Sex insulas و مرسى المزمة و Albou-zema و ثِجْذيتْ ثمَقْرانت (أو الرملة الكبرى)...و لعل الحكايات المشحونة بعناصر أسطورية و المطبوعة بنوع من الإجلال و القداسة، التي لا زال الأهالي يحكونها عن هذا الفضاء، هي أكبر دليل على تجذره في التاريخ و غناه بالأحداث و الملاحم التاريخية المنسية.

يدعى الفضاء الذي كان يقع ضمنه المرسى المذكور، اليومَ، بـ : SFIHA و الطايث، و يمتد ما بين مصب وادي أغيس شرقا و جزيرتيْ Sfiha غربا.



■ خالد لبحار

إلى حدود بداية الأربعينات كان هذا الفضاء عبارة عن كتلة كبيرة من الرمال البحرية، تدفع بها الرياح الشرقية و الغربية و الشمالية السائدة في المنطقة، بشكل دائم و مستمر، باتجاه السهل المجاور. و في عام 1942 قامت سلطات الاستعمار الإسباني بإبرام اتفاق مشروط بشروط أربعة مع سكان أجدير، مُمَثلين في أفخاذهم الستة عشر، يقضي بتثبيت الرمال الشاطئية الممتدة ما بين إفري نْ ماصاقا غربا و صارو أمجّاح شرقا. و قد تمت هذه العملية عبر مرحلتين : في المرحلة الأولى تم تقطيعها إلى مربعات كبيرة عبر غرسها بالقصب و ببعض أشجار الأوكاليبتوس، و كان ذلك عام 1942. أما المرحلة الثانية، فكانت أواسط الخمسينات، أي عشية الاستقلال، حيث غُرس المكان بشكل تام و نهائي بالأكاسيا و الصنوبر الحلبي و المظلي.

و في عام 1962، حُولت هذه المساحة الرملية، التي أصبحت غابوية، إلى قرية متخصصة في السياحة الإيكولوجية، تابعة لشركة Club Med، بحيث تم تسييجها و تهيئتها بطريقة تتناسب و السياحة الصيفية، كما أضيفت إليها بعض الأشجار التزيينية مثل السرو الشائع و أنواع من النخليات.

أما الشريط الغابوي المتشكل من الأوكاليبتوس و الصنوبر، و الممتد من صارو أمجّاح غربا إلى مصب وادي النكور شرقا، فقد غرس خلال فترة لاحقة، أي مع بداية الستينات. و كانت المساحة التي يشغلها الآن عبارة عن مستنقعات ناتجة عن فيضانات نهريْ أغيس و النكور و الأودية الأخرى الثانوية، و عن تصريف مياه السقي الزائدة على الفلاحين.

إن هذا الشريط الغابوي ، بجزئيْه الأول و الثاني، لم يعمل على حماية السهل المجاور من زحف الرمال البحرية وحسب بل عمل و يعمل بفعالية على حماية المحاصيل الزراعية من الرياح البحرية القوية و المشبعة بالملوحة.

منذ الستينات، و أمام التوسع العمراني الذي عرفته مدينة الحسيمة و المراكز القريبة منها مثل إمزورن و آيث بوعياش، عرفت الرمال البحرية للشواطئ القريبة من هذه المراكز العمرانية استغلالا كبيرا و بشعا، و قد تحمل شاطئ السواني و الطايث حصة الأسد من هذا الاستغلال، لدرجة أن رمال هذا الأخير استُغلت بصفة تامة و نهائية مما جعل مياه البحر تتقدم عدة أمتار إلى الأمام ملتهمة مساحة لا بأس بها من الشريط الغابوي المذكور. و كان لعدم احترام القوانين المنظمة لاستغلال الرمال، و لغياب المراقبة و استشراء الفساد و الرشوة الدور الحاسم في هذا الاستغلال البشع غابة ما تكون البشاعة. و رغم أن شاطئ Sfiha بقي إلى عهد قريب بعيدا عن أيادي التخريب،فإن عدوى هذه الأخيرة بدأت تطاله في السنين الأخيرة، خاصة بعد توقف Club Med عن استقبال السياح.

و لعل أخطر ما في هذا النهب، أنه يتم ليلا و نهارا و طيلة أيام الأسبوع، تحت أعين و إشراف رجال المخزن المتواجدين في عين المكان، و أمام الغياب المطلق للمصالح الأخرى المعنية، و هي مديرية وزارة التجهيز و إدارة المياه و الغابات.

هناك مشكل أخر يعاني منه هذين الشاطئين _وغيرهما- لا يقل خطورة عن الأول، إنه مشكل النفايات المنزلية التي تصلهما بكثافة ملفتة للنظر، عبر البحر انطلاقا من مزبلة سيدي عابد، و عبر البر بواسطة الأودية المختلفة التي تصب في خليج الحسيمة.

لقد كثر الحديث مؤخرا عن استعدادات المغرب لرفع سقف السواح الذين يزورون بلادنا إلى عشرة ملايين سائح مع مطلع سنة 2010، كما أن مشروع جطو المتعلق بإعادة إعمار و تأهيل إقليم الحسيمة، بعد زلزال فبراير الماضي، جعل من تطوير و إنعاش القطاع السياحي إحدى محاوره الأساسية. و أمام ما تتعرض له شواطئ الإقليم _ بدون استثناء- من تشويه و تدمير مستمر و ممنهج تحت إشراف أشخاص و جهات يفترض فيها حماية رمالها، و ما ينتج عن ذلك من امتناع للمستثمرين الأجانب، و غيرهم، عن الاستثمار على ضفافها، نود أن نطرح الأسئلة التالية على المسؤولين المحليين و المركزيين : هل استقبال عشرة ملايين سائح، و إنعاش السياحة في إقليم الحسيمة يتم عبر الإصرار على تدمير آخر ما تبقى من شواطئنا ، و إطلاق أيدي رجال المخزن المختلفين، على آخر حبات رمالها في تواطؤ مكشوف بينهم و بين العصابات المتخصصة في نهب الرمال !؟ و هل يمكن، في نظركم، أن نضمن المستقبل السياحي الذي تتحدثون عنه في خطبكم،للشاطئين المذكورين، على سبيل المثال، بإغراقهما بمختلف أنواع النفايات، و بقطع و اجتثاث الشريط الغابوي المجاور لهما !؟ إلى متى سيظل مسؤولو الاستقلال، اليومَ، صامتين و متفرجين على تخريب ما صانه و حماه مسؤولو المستعمر بالأمس !؟

و أمام التجاهل الرهيب و المتعمد من طرف المسؤولين المحليين لهذا التدمير الخطير الذي يطال آخر ما تبقى من شواطئ إقليم الحسيمة، و صمِّهم لآذانهم في وجه كل النداءات و الاستنكارات و الشكايات التي ما فتئ الغيورون ذوو الضمائر الحية و المحبون لهذه البلاد، يصدرونها و يبعثون بها للقائمين على الشأن المحلي، فإنه لا يسعنا إلا أن نتوجه بالنداء إلى المسؤولين على الصعيد المركزي مطالبين إياهم بالتدخل العاجل لحماية و إنقاذ الشاطئين المذكورين و غيرهما، و ذلك بـ:

- محاسبة المسؤولين المتورطين من بعيد أو من قريب فيما آلت إليه هذه الشواطئ.
- الإيقاف الفوري لسرقة الرمال المتبقية.
- الإيقاف الفوري لسرقة الرمال من داخل الغابة حماية لأشجارها من السقوط.
- الإيقاف الفوري لقطع و اجتثاث أشجار الشريط الغابوي الذي يفصل الشاطئ عن السهل المجاور، خاصة جزءه الشرقي الممتد ما بين صارو أمدجاح و مصب وادي النكور.
- ترميم هذا الشريط الغابوي، بإعادة تشجير الأجزاء المخرَّبة منه.
- توفير حراس دائمين و ميدانيين حراسة هذه الغابة.
- العمل على إيجاد حلول عاجلة للأزبال المنزلية التي تلقى في الأودية المؤدية على هذين الشاطئين و غيرهما.
- تهيئة مصب وادي أغيس و حماية ما تبقى من غطائه النباتي من عبث العابثين و دوْس الجرارات.
- تشجيع المستثمرين على إنشاء مزيد من المقالع الرملية على طول الأودية، لما تمثله من حل ناجع لنهب رمال الشواطئ البحرية.

إن تنفيذ مثل هذه الإجراءات الضرورية أضحى اليوم مهمة مستعجلة أكثر من أي وقت مضى، و لا يمكن بدونها أبدا أن نضمن استغلالا رشيدا و مُستداما لأحد أجمل و أكبر شواطئ إقليمنا.

مراكز اصطياف الأسر التعليمية:

فضاءات لقضاء العطلة الصيفية أم مخيمات للاجئين؟!

كانت الانطلاقة الأولى لعملية الإصطياف والتخييم المنظمة من طرف مؤسسة الأعمال الاجتماعية للتعليم على الصعيد الوطني لفائدة نساء ورجال التربية والتكوين صيف 2002، هذه العملية تمت تحت إشراف لجن إقليمية مكونة من أعضاء تابعين للنيابات وممثلي الفروع الإقليمية.

خلال صيف 2002، استفاد من هذا النشاط التخييمي 45 مصطافا على مستوى نيابة الحسيمة. هذه العملية شابتها عدة صعوبات ومشاكل أبرزها تتمثل في تداخل الاختصاصات وعدم وضوح المسؤوليات وهذا ما دفع بالمكتب الإقليمي لفرع الحسيمة إلى رفع تقرير إلى المكتب الوطني لمؤسسة الأعمال الاجتماعية للتعليم يقترح فيه إسناد عملية الاصطياف والتخييم لمكتب الفروع من حيث التدبير الإداري والتحصيل المالي والإشراف المباشر على مراكز الاصطياف على أن تقوم النيابات بالدعم اللوجيستيكي وتوفير أدوات العمل وتقديم التسهيلات اللازمة حتى تمر هذه العملية في أجواء صحية.

ويضيف التقرير"يجب توفير وقت كاف يسمح بمسك الطلبات وتصنيف الرغبات والإجابة عليها وذلك بتوزيع المراسلات المتعلقة بالموضوع على لمؤسسات التعليمية أواسط شهر مارس على أساس أن يكون آخر أجل لمسك الطلبات هو الأسبوع الثاني من شهر يونيو باعتبار أن هذه المرحلة الأولى من التخييم تبدأ يوم 14 يوليوز" .

ما يمكن أن نسجله خلال صيف 2003 هو الاحتفاظ بالتدبير المزدوج مع تحويل مداخيل هذه العملية لفائدة الفرع بعد خصم مصاريف الصيانة، وتعويضات الأعوان أما عن عدد لمستفيدين من الاصطياف فقد انخفض من 45 إلى 43.

الملاحظ أن الإقبال على هذه العملية يبقى محدودا بالرغم من الموقع السياحي الهام الذي تحضى به مدينة الحسيمة وهذا يعود بالأساس إلى انعدام شروط التخييم بالمراكز المقترحة بحيث ينظم هذا النشاط بالحجرات الدراسية في ظروف أقل ما يمكن أن يقال عنها هو أنها سيئة . هذا الطواف الذي ينطلق من القسم كفضاء للعمل البيداغوجي والعودة إليه كمرقد للمصطافين هل يستحق أن نسميه اصطيافا؟ يقول الكاتب العام لفرع مؤسسة الأعمال الاجتماعية للتعليم بالحسيمة، ويضيف أنه لهذه الأسباب التمس الفرع من مؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للتربية والتكوين تجهيز مساحة أرضية بشاطيء السواني كمركز اصطياف دائم .

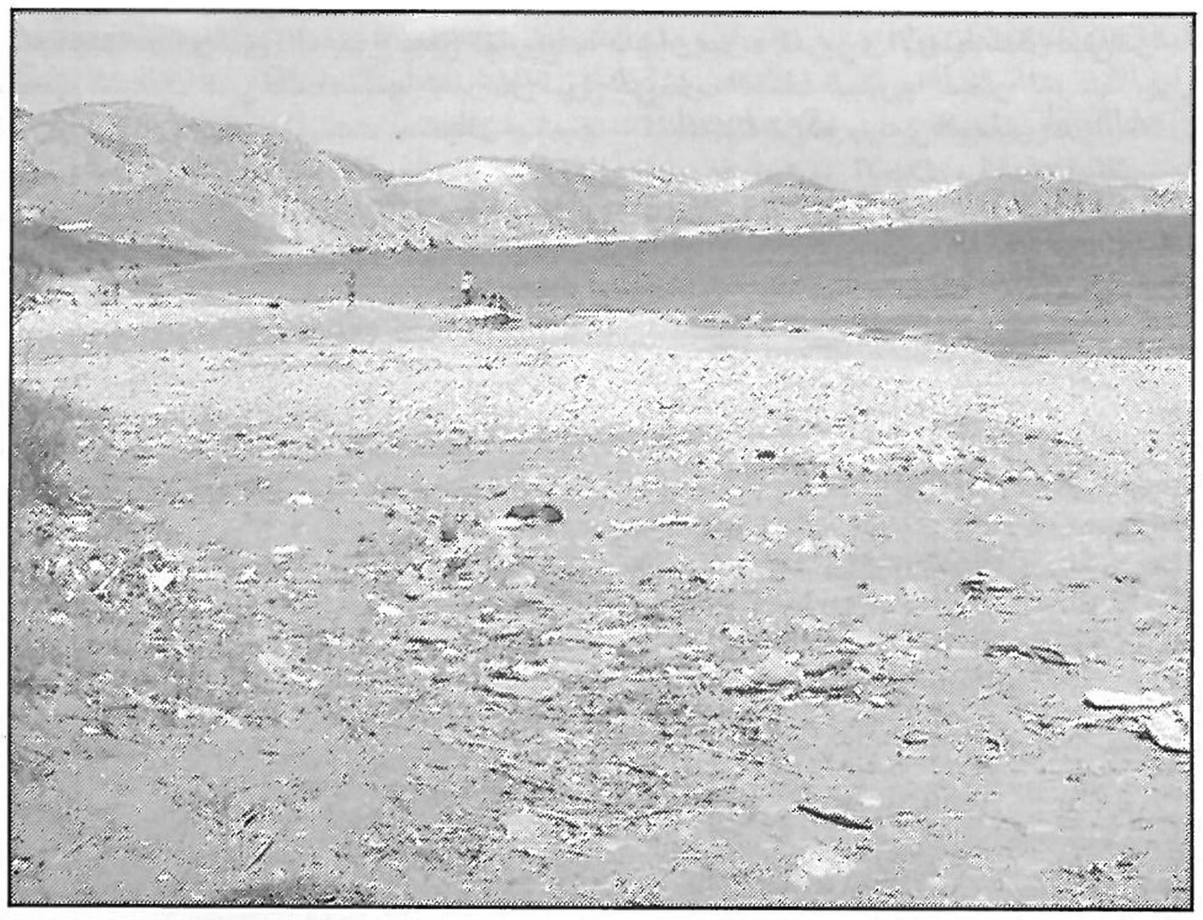
إن عدم توفر أغلب الفروع على مراكز حقيقية للاصطياف جعل الكثير من رجال التعليم لا يرغبون في الانخراط في هذه العملية لكونها تحط من كرامة الأسرة التعليمية التي كانت بالأمس القريب تسمى الفئة النيرة للمجتمع.

وللنهوض بالأعمال الاجتماعية لفائدة أطر وموظفي قطاع التعليم وخاصة في مجال الاصطياف والتخييم لا بد من تمكين الفروع الإقليمية للمؤسسة بمراكز حقيقية للاصطياف وتجهيزها بما يليق بهذه الفئة حتى تستفيد من حقها في التخييم في ظروف جيدة، بدل الزج بها في حجرات دراسية وكأن الأمر يتعلق بمخيمات اللاجئين.

■ **محمد بوطسفونت**

جمعية أزير لحماية البيئة:

لندق ناقوس خطر شواطئنا ونرفع الرايات السوداء



بالنظر إلى الأهمية الإيكولوجية والطبيعية التي تحظى بها الشواطئ البحرية، كان لزاما علينا حمايتها لكونها موردا يساهم في التنمية السوسيو اقتصادية المستدامة بالنسبة للتجمعات السكنية القاطنة بجوارها؛ غير أن الطريقة المتبعة حاليا لاستغلال الشواطئ على الصعيد المحلي تبين بوضوح كيف أنها غير مستدامة على الإطلاق. ولهذا السبب فإن جمعية أزير قررت التحرك لوقف التدمير الكبير الذي ما فتئت تتعرض له شواطئنا، ومن ثم دق ناقوس الخطر ورفع الرايات السوداء بالنسبة للشواطئ التي يقصدها المصطافون خلال فصل الصيف، ما دامت ملوثة أو عرفت استغلالا عمرانيا متوحشا يقضي بصفة نهائية على الجمالية الطبيعية لهذه الشواطئ. وتجدر الإشارة إلى أن الغرض من هذه الحملة هو توعية المواطنين وكل مستعملي الشواطئ بالحالة البيئية المتدهورة التي توجد عليها، مع المطالبة بإلحاح السلطات المعنية بالتدخل العاجل لحماية المناطق الشاطئية لما لها من أهمية بالغة في إنعاش السياحة بالإقليم. والغاية من هذه الحملة ليس معاقبة الجماعات المحلية التي تبقي على شواطئها بحالة سيئة للغاية أو إفزاع الزوار والسائحين بكثرة الأزبال والنفايات؛ وإنما نحن واثقون بأن حماية الشاطئ وتوفير الشروط البيئية والصحية هي الضمانة الوحيدة لاستقطاب السياحة ذات الجودة. وهذه المعايير البيئية والصحية للشواطئ هي من بين أهم الالتزامات التي اعترف بها المغرب وأقرها بعد مؤتمر "ريو دي جانيرو". لذلك ، فالمعايير التي اعتمدناها لرفع ووضع الرايات السوداء أخذنا فيها بعين الاعتبار العناصر السلبية مجتمعة في شاطئ واحد. وتأتي في الدرجة الأولى جودة المياه، القرب أو البعد عن المزابل والنفايات، المياه العادمة، مدى توفر شروط النظافة، العمران المشوه لجمالية الشاطئ. هذه، إذن، هي أهم العناصر التي اعتمدناها لإعلان الرايات السوداء.

تبعا لذلك، فإننا حين نتحدث عن شواطئ إقليم الحسيمة بالتحديد، ففي الواقع نحن نتحدث عن شواطئ بمميزات خاصة جدا، لاسيما وأن الشواطئ المغربية تتميز إجمالا بالامتداد الكبير، في الوقت الذي نجد فيه إقليمنا يتميز بشواطئ ذات جمالية خاصة ونادرة تتمثل في شواطئ بمساحات ضيقة وبمحاذاة فجاج الأجراف ومصبات الأنهار. وهو ما لا نقع عليه في المناطق المغربية الأخرى.

وإذا حاولنا ملامسة المشاكل العديدة التي باتت تعرفها شواطئ إقليمنا، فإننا سنجد بأن أولى هذه المشاكل تتمثل في كونها شواطئ تنتمي لحوض البحر الأبيض المتوسط، وتتسم بخاصيات ثابتة من قبيل أنها قليلة العمق وهادئة وتياراتها البحرية غير قوية ومغلقة. وإذا ابتدأنا بالشاطئ الأطول الممتد من الصفيحة حتى منطقة حذيذ، فسنجد أن أكبر مشكل يعاني منه هذا الشاطئ يتمثل في التلوث الذي يشكل خطرا محدقا بالمصطافين، بحيث أن ثمة مصدرين أو رافدين لهذا التلوث: فمن جهة أولى، هناك المياه العادمة(الوادي الحار لمدينتي بني بوعياش وإمزورن). ومن جهة ثانية، نقع على معضلة الرمال المنهوبة، لدرجة أن ٧٥ _من رمال هذه المنطقة تنهب بطريقة غير قانونية تماما. إضافة إلى مشكلة الأزبال والنفايات المشكلة من المواد الصلبة غير القابلة للتلف أحيانا. وإذن ، فهذه العناصر مجتمعة كافية لأن تجعل من هذا الشاطئ الكبير، مع استثناء المنطقة التي تقع بحدودها القرية السياحية لنادي البحر الأبيض المتوسط، شاطئا ملوثا بامتياز، وبالتالي فهو غير صالح للاستغلال أو السباحة، ذلك لأن المصطافين بهذا الشاطئ معرضون في أية لحظة للإصابة بعدوى مختلف الأمراض الجلدية على مستوى أجسادهم بالنظر إلى وفرة المواد الملوثة بهذا الشاطئ.وبالتالي فهذا الشاطئ يستحق راية سوداء.

بالنسبة لشاطئ "إسري"(اسبالماديرو)، طبعا هو يعد من أجمل الشواطئ بقربه من المدينة وحصاه الصغيرة، غير أن مشكلته الرئيسية تكمن في انعدام الخدمات المقدمة فيه، مما يجعله عرضة لنفايات الأجور التي تأتيه من معمل الأجور المجاور له، كل هذا يجعل منه شاطئا غير صالح للاستعمال بدوره.

أما كالابونيطا (الشاطئ الجميل)، فهو يعد أيضا من أحسن الشواطئ بتواجده قرب مدخل المدينة، كما يتوفر على مخيم وخدمات جيدة، من قبيل التنظيف اليومي وجمع الأزبال وخدمة الزبناء والرواد، بيد أن المشكل الكبير الذي يعانيه هذا الشاطئ هو جواره لمصفاة الوادي الحار للحي الذي يتواجد به هذا الشاطئ، إضافة إلى تواجد مجزرة المدينة على مقربة منه، الشيء الذي يعرضه للتلوث الدائم بسبب دماء الذبائح خاصة، كل ذلك يساهم بصورة واضحة في التقليل من أهمية وجمالية هذا الشاطئ.

أما فيما يخص كيمادو، فالجميع يعلم أن هذا الشاطئ يعتبر القلب النابض للمدينة، بحيث كان إلى عهد قريب يمثل لؤلؤة المدينة، ومن غير شك فهو لايزال إلى اليوم محط إعجاب الجميع، خاصة وأنه لازالت تقدم به بعض الخدمات الأساسية لروادة وهذا أمر جيد ولاشك، إلا أن تواجده الملامس للميناء يجعله عرضة لأنواع مختلفة من التلوث، بحيث نجد أن المياه العادمة لحي بأكمله"ثوذرين ن الملك" تصب في اتجاه الميناء، الذي هو ملوث أصلا بالزيوت والمحروقات التي تخلفها مختلف المراكب، خاصة وأن المكتب الوطني لاستغلال الموانئ لا يستخدم بعض الآليات والمحركات المخصصة لدفع المياه الملوثة بدعوى تعطلها أو ما شابه ذلك، الشيء الذي ينتهي إلى تحول كل ذلك نحو باب الميناء وبالتالي إلى شاطئ كيمادو.

بالنسبة ل"ثغزاث" أي الشريط الساحلي الممتد من سيدي عابد إلى حدود جزيرة "شيبولا"، فإننا نجده بدوره من الشواطئ الأكثر تلوثا بسبب الأزبال والنفايات الصلبة(وهي مجموع أزبال ونفايات مدينة الحسيمة) التي ترمى بجبل سيدي عابد. هذا، إضافة إلى المواد المركزة لمصفاة الوادي الحار التي تلفظ بدورها نحو المزبلة العملاقة/ سيدي عابد، ودون أن ننسى كذلك الرماد السام الذي يخلفه إحراق هذه المواد. ثم إن مياه المصفاة غير مصفاة تماما، مما يجعل هذه المياه غير صالحة للسباحة. وحين نصل إلى فج "أغزار أبولاي" المقابل لشط "تيمشضين"، نكتشف من جديد مياه الوادي الحار الآتية من ميرادور الأعلى وميرادور الأسفل، وهي المياه التي لا تجد أمامها في نهاية المطاف سوى هذا الشاطئ الذي يصل فيه التلوث درجة التخمة، ويبدو ذلك واضحا من خلال الاشمئزاز الواضح الذي يعبر عنه المواطن المار من هذا الطريق، حيث الروائح الكريهة تزكم الأنوف. كما أن ملاحظة وفرة بعض النباتات الخضراء بهذا الشاطئ دليل آخر على تلوث هذه المنطقة بنسبة عالية جدا، لأنها نباتات طفيلية وغير طبيعية. لذلك، فالاقتراب من هذا الشاطئ قصد العوم ينطوي على خطر الإصابة بأمراض جلدية عديدة.

وفيما يخص شاطئي "إزضي" و"ارمود"، فهما شاطئان صغيران من حيث الحجم وأقل تلوثا بالمقارنة مع الشواطئ السالف ذكرها، ولكن ثمة مشكل آخر يتمثل في كون هذين الشاطئين اللذين يقصدهما عدد كبير من الرواد لا يجدون فيهما أي خدمات تذكر على مستوى النظافة بالخصوص، الأمر الذي يفرض على المصطافين قضاء حاجاتهم البيولوجية بين الفجاج والوديان المجاورة للشاطئين، مما ينتج عنه تلوث المجال وبالتالي تأفف واشمئزاز المصطافين من الاستمتاع والاستجمام هناك.

وبوصولنا إلى شاطئ تلا يوسف نكون قد وصلنا إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بالكارثة العظمى للمنطقة البحرية برمتها، إذ بعدما كان هذا الشاطئ يشكل تحفة طبيعية بجمال فاتن جدا، بفضل الشهرة التي عرفها من قبل رواده ومحبيه، غدا اليوم سوقا مربحة لكل الجشعين والمتلهفين الذين وصل بهم الأمر إلى الاستيلاء على الأراضي العمومية لاسيما بعد أن تم تعبيد الطريق نحو الشاطئ مباشرة، وهو ما سيفضي إلى تشويه جمالية هذا الشاطئ باجتزاء واقتطاع طرف مهم منه واستغلاله في منافع شخصية لا غير، فنتج عن ذلك التقليص من مساحة الشاطئ التي كانت أكبر بكثير مما هي عليه الآن، إضافة إلى إغلاق مجموعة من منافذ وروافد الوديان التي كانت تصب في اتجاه الشاطئ، إضافة إليالعمل على توسيع الطريق الطبيعية التقليدية لهذا الشاطئ، حدث كل هذا لأجل أغراض شخصية فحسب من دون التفكير في المصلحة العمومية للمواطنين. أما الطامة الكبرى، فتكمن في ذلك البناء الضخم بالإسمنت المسلح، أي مركب "تشافاريناس- بيتش"، الذي لا ينسجم مطلقا مع الطبيعة التقليدية والبدوية المحلية، إذ كان من الأجدى أن يكون هذا البناء مصمما بشكل يتناغم مع ذلك الفضاء الغابوي البسيط، من قبيل بناءات صغيرة في شكل شاليهات كما حصل لشاطئ كيمادو، حيث ما تزال شالهاته تحتفظ برونقها الأخاذ وجمالها الطبيعي رغم مرور السنين. لأن السائح الأجنبي الذي يقصد مثل هذا المكان لن يندهش كما يفعل الكثير منا وإنما يستغرب ويستهزئ من مثل هذه المشاريع الإسمنتية التي لم تعد تغري السواح الأجانب الذين غدوا يبحثون عن ما هو ثقافي محلي وليس البنايات الزجاجية والإسمنتية التي تركوها وراءهم، ولا أدل على كل ذلك من القلة القليلة لعدد السياح الوافدين على هذا المركب منذ افتتاحه.

وتجدر الإشارة إلى أن القانون ينص على أن المساحة التي ينبغي أن تخصص للشاطئ يجب أن لا تنزل عن ٦٠ مترا، لكن الذي حدث هو أن أصحاب البنايات والمنازل بهذا الشاطئ، وبغاية تحفيظ أراضيهم، سارعوا إلى توسعة الطريق لأجل إضفاء مشروعية قانونية على أعمالهم التدميرية؛ أما الأفظع من كل هذا، فهو ما حدث أخيرا عندما عمد صاحب مشروع "تشافاريناس بيتش" إلى البناء وسط الشاطئ زاعما بأنه لم يخرج عن إطار ما هو مسموح به قانونيا، ما دام أن هذا البناء يعد مؤقتا ومفككا، والحال أن الواقع يكذب هذا الأمر، لأن البناء الذي اعتمده هو بناء صلب، بحيث أن الأرضية تم تشييدها بالإسمنت المسلح، أما السقف الذي جعله من نبات "أزراف" فهو مجرد خدعة للتظليل. وهذا كله، يفضي بنا إلى القول بأن ٧٠ _من هذا الشاطئ أمسى تحت تصرف هذا الشخص بوحده. وهذا الأمر سيربك بشكل كبير زوار هذا الشاطئ ويجعلهم في حيرة من أمرهم بسبب العرقلة التي يسببها ذلك. وبصراحة، فإن مثل هذا الاستغلال الجشع وغير المشروع لمكان عمومي جعل من هذا الشاطئ مجرد مقهى كبير لا غير.

يبقى شاطئا "طريس" و"كلايريس"، فإذا كانت مشكلة الأول هي الوادي الحار بدوره الذي يعتبر مصدرا كبيرا للتلوث؛ فإن مشكلة كلايريس تكمن في أنه شاطئ يقصده الكثير من القرويين الذين ما زالت ثقافتهم البيئية ضعيفة. لذلك فأكبر مشكل يعاني منه هذا الشاطئ هو تراكم الأزبال التي تجعله في حالة يرثى لها.

وإذن، يبدو أن إقليمنا بالكامل لا يحتوي على أي شاطئ - يقصده الناس للاصطياف - بحالة صحية جيدة.

أعده للنشر:س.غ

الساحل البحري للمتنزه الوطني بالحسيمة

استعمال مادة سامة وخطيرة تهدد المجال البحري وحياة الإنسان

طفت على سطح الساحل البحري للمتنزه الوطني بالحسيمة، منطقة كلايريس تحديدا، معضلة خطيرة جدا، وتتمثل في لجوء بعض "القراصنة" الجدد إلى استخدام مادة سامة، وهي سلفات أو كبريتات النحاس وتعرف محليا ب"التوثيا"، بكميات كبيرة جدا؛ الشيء الذي يترتب عنه تدمير شامل للموارد البحرية الحيوانية والطبيعية، زيادة على تهديدها لحياة الإنسان، بالنظر إلى أن تلك الأسماك المصطادة بهذه المادة السامة تتجه نحو استهلاكها من قبل الإنسان في نهاية المطاف، وهو ما يجعل من هذه المسألة إجراما حقيقيا في حق ثرواتنا البحرية التي ما فتئت تعرف تدهورا مهولا للغاية.

ولئن كان عدد مهم من الجمعيات المدنية قد انتبهت للأمر وحاولت توجيه اهتمام المسؤولين إلى خطورة الأمر، كما هو الشأن ل"جمعية الأعمال الإجتماعية لمتهني الصيد التقليدي بكلايريس" التي قامت بمراسلة بعض المسؤولين في الموضوع، منهم ممثل مندوبية الصيد البحري بكلايريس وكذا المندوب السامي للمياه والغابات ومحاربة التصحر بالرباط. غير أن الموضوع، لحدود الساعة، لم ينل بعد العناية التي يستحقها وربما لم تستوعب بعد الخطورة التي ينطوي عليها، ولا أدل على هذا من استمرار هذه العملية الإجرامية في حق الطبيعة والإنسان أما أعين الجميع.

في ذات الإطار توصلنا ببيان موقع من طرف خمس جمعيات مدنية تندد بهذا السلوك الإجرامي المنافي لكل الأعراف والقوانين البحرية التي صادق عليها المغرب وتطالب بالتدخل العاجل لوقف هذا النزيف الذي من المرجح أن تتناسل مشاكله وتتكاثر بمرور الوقت. وفيما يلي نص هذا البيان:

"تنامت خلال الآونة الأخيرة بشواطئ الحسيمة ظاهرة لم يسبق لها مثيل تنضاف إلى قائمة الظواهر التي تدمر الثروة السمكية خاصة والبيئة البحرية عامة. مثل الصيد بالجر في المياه الضحلة، استعمال المتفجرات، صيد وتسويق الأسماك دون الحجم القانوني...، حيث يعمد بعض الأشخاص إلى استعمال مادة "سلفات أو كبريتات النحاس"(CuSO4, 5H2O) sulfate de cuivre bleu المعروفة محليا باسم"التوثيا" إذ توضع في أكياس بلاستيكية ليتم بعد ذلك زرعها في البحر بكميات كبيرة تفوق عشرات الكيلوغرامات، وعلى مساحات شاسعة في قاع البحر، مستعملين في ذلك قوارب الصيد التقليدي، أو الزوارق المطاطية...

عند ذوبان هذه المادة السامة في الماء تقتل أعدادا هائلة من الأسماك ومنها على الخصوص، الأخطبوط الذي يعد من الأصناف المستهدفة في هذه العملية وعند مرور فترة زمنية محددة علة عملية الزرع، يعود هؤلاء الأشخاص لالتقاط _ بطريقة الغوص تحت الماء _ الأسماك المسمومة الميتة.

وبدأ سكان منطقة كلايريس (شاطئ إيليش) يلاحظون أعدادا من الأسماك تلقيها أمواج البحر نحو الشاطئ وهي ميتة، الشيء الذي ينذر بكارثة بيئية محققة.

تتجلى خطورة مادة "سلفات النحاس" في كونها تتكون من عناصر جد سامة وخطيرة على البيئة البحرية إذ تحتوي على مادتي: أيونات النحاس (Lon de cuivre) وحمض الكبريت ((Acide sulferique مما يسبب في التوقف الفجائي للتنفس الخلوي لجميع الكائنات الحية.

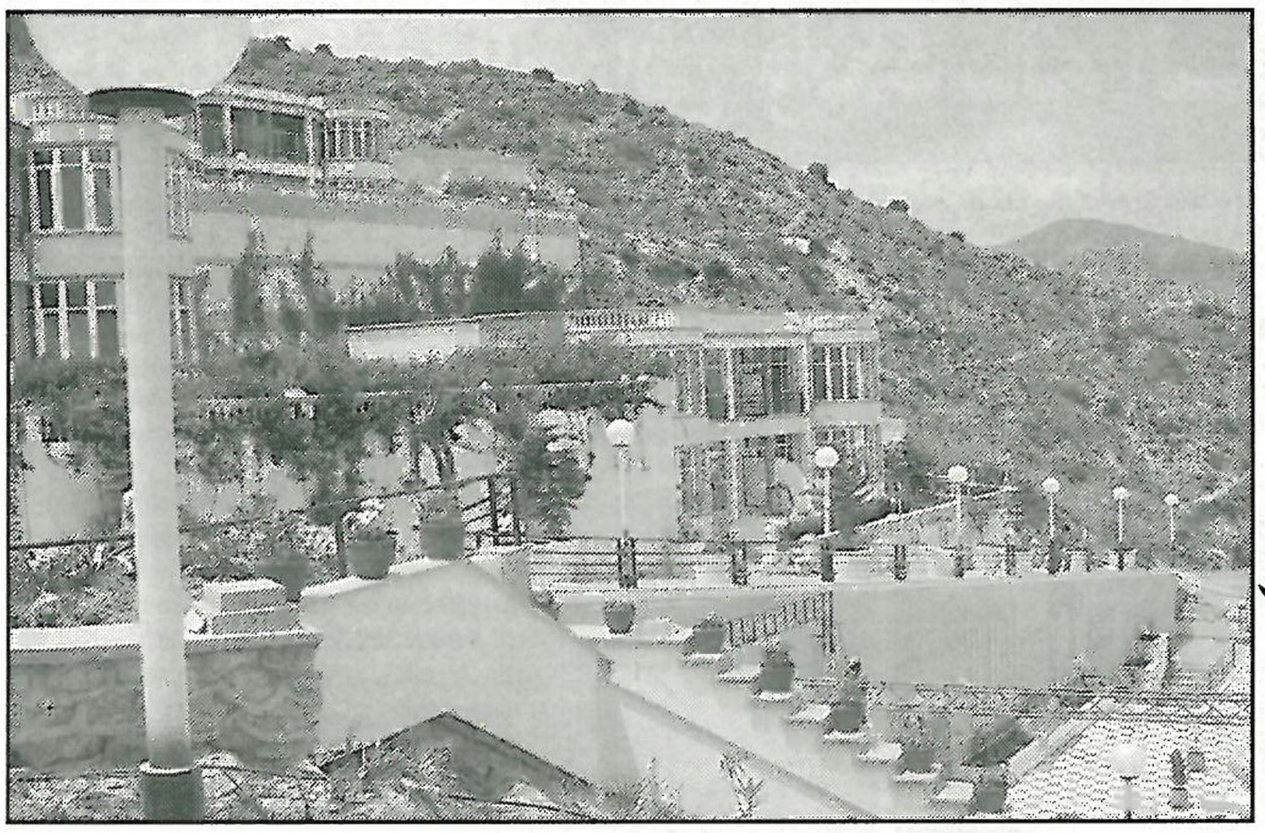
وبالتالي نتوقع تركيزا عاليا لعنصر النحاس في أجسام الأسماك التي تعيش في الساحل مما يسهل انتقاله إلى جسم الإنسان الذي يستهلك الأسماك المسمومة.

وعليه فنحن الهيئات والجمعيات المدنية الموقعة أسفله نعلن ما يلي:

- تذمرنا الشديد لما آلت إليه حالة البيئة البحرية.
- المطالبة من الجهات المسؤولة بالتدخل العاجل لتشديد المراقبة على مستعملي المواد المحظورة التي تهدد الثروة السمكية.
- مراقبة رخص الصيد بالغوص.

الجمعيات الموقعة:

- جمعية الأعمال الاجتماعية لمتهني الصيد التقليدي بكلايريس.
- جمعية أزير لحماية البيئة.
- جمعية البحارة والصيادين بميناء الحسيمة.
- جمعية بنعمان لبيئة والتراث.
- تعاونية البحارة والصيادين بكلايريس.



في حوار مع رشيد المرابط صاحب المركب السياحي

شافاريناس - بيش:

ماقمت به كان غيرة على منطقتي ودرسا لمن يجب أن يهمهم أمر النهوض بمنطقتهم وتنميتها

رشيد المرابط المعروف ب"شافارينا": هو أحد أبناء الحسيمة الذين يشقون طريقهم بإصرار نحو الاستثمار في قطاع السياحة. حين توجهنا إليه بأسئلتنا كنا مستفزين في أحيان كثيرة؛ لذلك أدهشتنا أجوبته الهادئة/الواثقة التي ظلت ممزوجة بابتسامة وقورة لم تفارق شفتيه منذ طرقنا معه أبواب الحديث، الذي أكد خلاله أن ما يطمح إليه هو إعطاء ذلك الوجه المشرق الذي يرتضيه كل أبناء الحسيمة لمدينتهم، لأن ما يضرهم يضره هو بالضرورة. كما يدرك تماما أن ما قام به كان يعد مغامرة حقيقية لقيت استهزاء من لدن البعض واعتبروه من المجانين، غير أنه أحب المغامرة وفضلها ما دام أن الهدف نبيل ويتعلق بالمساهمة في تنمية منطقته وإنعاش سياحتها واقتصادها.

س: نود أن نعرف في البداية كيف جاءتكم فكرة إقامة هذا المشروع السياحي الضخم بهذه المنطقة، والدوافع الحقيقية وراء ذلك، ثم التكلفة الإجمالية لهذا المركب...

ج: ساورتني فكرة هذا المشروع واستوطنت ذهني بقوة منذ خمس سنوات، أي سنة1999 بالضبط. فقبل ذلك ، كان قد قصدني أحد أقربائي، وهو ابن خالتي السيد الحسين أزناذ (طبيب يقيم ببلجيكا)، مقترحا علي الدخول معه في شراكة لشراء عمارة بالديار البلجيكية وإقامة مشروع اقتصادي مربح، خاصة بعد أن درسه من جميع النواحي وأثبت لي بالحجج ضمان نجاح المشروع. غير أني لم أبد له موافقتي في الحين. أما السبب، فيعود إلى إحساس دفين ظل يسكنني دوما حتى حينما كنت طالبا أتلمس طريق الحياة في ديار الغربة، ويتمثل هذا الإحساس في الحنين إلى موطني الأصلي وغيرتي وحبي لمدينتي، هذا الحب كان دوما حافزا قويا لأجل إهداء وصنع شيء ما يعود بالنفع والخير على مدينتي وأبنائها الأعزاء. وبما أني من عشاق شاطئ "ثارا يوسف »، بحيث كنت دوما من أشد رواده خلال فصل الصيف طوال أيام أواخر السبعينات، فقد كانت فكرة إقامة شيء ما ، منزل على الأقل، بهذا الشاطئ حلما جميلا ومستحبا راودني باستمرار. وخلال ذلك الصيف من عام 1999 نضجت الفكرة بذهني ، فاغتنمت فرصة تواجد قريبي وشريكي الحسين لأعرفه على جمالية وفتنة شاطئ "ثارا يوسف"، محاولا تغيير وجهة نظره فيما يخص المشروع الذي سبق أن اقترحه علي، ومستبدلا فكرته السابقة بفكرة إنشاء مشروع سياحي بهذا الشاطئ. الحقيقة أن الحسين أعرب في الحين عن إعجابه وتحبيذه للفكرة، إلى درجة أني شعرت معه، بمجرد أن فاتحته في الموضوع، بأن فكرة المشروع الاقتصادي ببلجيكا قد بدأت في التبدد من ذهنه وكاد أن ينساها بصفة نهائية، بحيث بدأ يخوض معي نقاشا جديا حول أهمية ما أرمي إليه؛ ولذلك لم أجد عناء في إقناعه بالأهمية البالغة للمشروع وانعكاساته الإيجابية على منطقة الحسيمة وأبنائها، ومن ثم انتزاع الموافقة المبدئية منه، والشروع في مباشرة العمل بتهييء متطلبات ملف المشروع وإعداد الوثائق والتصاميم وما إلى ذلك. في بادئ الأمر رصدنا ميزانية لاتتجاوز 600 مليون سنتيم كتكلفة إجمالية لإنجاز المشروع، لكن بمجرد مباشرتنا للعمل والبناء بدأت تلوح لنا صعوبات كثيرة وأفكار عديدة كان مجملها يصب في التأكيد على ضرورة إقامة شيء من الطراز العالي والرفيع يجعل أبناء مدينتنا يفتخرون به. هكذا، انتهى بنا الأمر إلى إقامة هذا المركب الفريد بتكلفة إجمالية بلغت 3 مليار سنتيم (30مليون درهم). ولابد من الاعتراف هنا أيضا، بأن كل ما قمت به تطلب مني جُهودا مضنية ومواكبة شاقة جدا، لكني فعلت كل ذلك بمحض إرادتي، وكان غيرة مني على منطقتي وأبنائها ودرسا بليغا لمن يجب أن يهمهم أمر النهوض بتنمية منطقتهم. لاسيما وأني كنت قد تلقيت اقتراحات ونصائح عديدة لأجل الاستثمار بمناطق أخرى وبتسهيلات لا تصدق، إلا أنني فضلت المغامرة والتشبث بالمستحيل، رغم أن الكثير من الناس واجهوني بالسخرية، بل هناك من ضمني إلى قائمة الحمقى والمجانين الذين يشقون بسيوفهم في الماء.

س: الواقع أنه في بداية الأمر كان ثمة تشجيع للفكرة، أي إقامة مشروع سياحي بهذا الحجم، لكننا لاحظنا فيما بعد، كيف أن مجموعة من الملاحظين عبروا عن استيائهم من سوء تسيير هذه المنشأة السياحية، لاسيما وأن الجميع كان يعتقد أن الخدمات ستكون احترافية ومن الطراز الرفيع، لكن سرعان ما اكتشفوا أنكم تخليتم عن بعض هؤلاء المهنيين الذين يتوفرون على خبرة عالية في هذا المجال ، لكي تتيحوا لنفسكم تسيير شؤونها وفق رغباتكم وأهوائكم...

ج: صحيح أني منذ البداية كنت أقول مع نفسي بأن الخدمات التي ينبغي تقديمها للزبناء لابد وأن تنطلق من عقلية مهنية احترافية، لذلك عمدت إلى جلب من ظننتهم كذلك، ومنهم مدير له خبرة في الاشتغال بمؤسسات عريقة بمدينة فاس وذات صيت وطني. لكن سرعان ما اكتشفت أني كنت على خطا، لأن تخصص هذا الشخص/المدير السابق لم يكن في ميدان السياحة، وفي المقابل وجدت أن المديرة الحالية، التي كانت نائبة له، تتوفر على شهادات تثبت أهليتها واستحقاقها لإدارة هذه المؤسسة من نواحي عديدة، منها: توفرها على دبلوم مهني معترف به وطنيا، واستفادتها من خبرة مهمة جدا أثناء اشتغالها بفندق أطلس - آسني بمراكش، الشيء الذي يخول لها إمكانية إدارة هذه المؤسسة بالكفاءة المطلوبة. أضف إلى ذلك، كونها امرأة وابنة المنطقة، وأنا من المدافعين الأشداء عن أهلية المرأة في توليها إدارة شؤون مثل هذه المؤسسات الكبيرة وقدرتها على إثبات الذات ونجاحها في ذلك، ومن ثم ضد العقلية الذكورية التي تحتقر المرأة وتحكم عليها بالفشل مسبقا. وأعتقد بأن الأيام بدأت تكشف لي صحة القرار الذي اتخذته. ثم لابد من فهم واستيعاب الصعوبات التي يعبر عنها الذين يأتون من مناطق أخرى، حيث يلاقون دائما صعوبة في التكيف مع ذهنية وثقافة مجتمعنا الصغير. وبما أننا نتوفر على كفاءات محلية ذات مستوى عال في التسيير ، فلماذا البحث عن آخرين من خارج المنطقة، وكما تعلمون فإن "أهل مكة أدرى بشعابها".

س: ولكن هناك من يتداول محليا أنكم لا ترغبون دائما في تشغيل أبناء المنطقة لأنهم يطالبون باستمرار بحقوقهم، وتفضلون بالمقابل بعض الذين انقطعت بهم السبل لأنهم لا يطالبون بأي شيء سوى الشغل مهما كانت ظروفه سيئة للغاية؟

ج: هذا غير صحيح مطلقا، ف 90٪ من المستخدمين في هذه المنشأة السياحية هم من أبناء المنطقة، لأن المسألة أساسية في نظري ولا يمكن الاستغناء عنها.

س: إنهم يشتكون باستمرار من العمل الشاق ولمدة طويلة تتجاوز الساعات القانونية للعمل، مع التعويضات الهزيلة أحيانا...

ج: من يقول ذلك؟ هل هناك من المستخدمين من باح لك بهذا؟ ينبغي أن يعلم الجميع أن تعاملي مع عمالي ، وبدون أي مبالغة، هو تعامل عائلي مثالي جدا، لأني أعتبر كل عمالي بمثابة شركاء وأصدقاء وإخوان لي ، بحيث لا أحاول أن أكون في برج عاجي، ولا أبتعد عنهم ولا أحسسهم بمنطق "الباطرونا"، بل أتقرب منهم وأنصت لمشاكلهم وأجتهد معهم في الوصول إلى حلها، حتى وإن كانت من صنف المشاكل الخاصة والعائلية، لاسيما وأن ذلك يريحني نفسيا، وبالتالي تدفع المستخدم للإحساس بالدعم والمساندة ، الأمر الذي يخلق لديه رغبة للتفاني في عمله وحبه. وعليك أن تعلم بأن مدخول عمالي يساوي، وربما يتجاوز أحيانا، مدخول موظفين يشتغلون كأطر داخل الدولة، وأنا صادق فيما أقول.

س: هل يمكننا أن نعتبر الآن بأن المشروع ناجح ويسير وفق تطلعاتك وما خططته له؟

ج: بالنظر إلى الأجواء العامة المميزة لمدينتنا، أستطيع القول بأن الأمور تسير بشكل طبيعي، لأن مدينة الحسيمة تعرف سياحة موسمية صيفية، لذلك أقر لك بأننا نشتغل شهرين في السنة (يوليوز وغشت)، وهذان الشهران يدران علينا نصف المدخول السنوي (50٪)، فخلال فصل الشتاء يكون هناك نوع من الركود العام للاقتصاد المحلي. إلا أنه مع ذلك لابد من الاجتهاد والبحث عن البدائل.

س: ألا ترى معي بأن مفهوم السياحة يحتاج إلى إعادة النظر في مضمونه عندنا، بحيث لا يزال فهمنا للسياحة مقتصرا على اللهو والتسلية وما إلى ذلك. والحال أنه يجب أن نضمنه معاني فنية وثقافية واجتماعية تنموية؟

ج: أنا متفق معك تماما، غير أننا لا نستطيع حرق المراحل والسير بسرعة تتجاوز إمكانياتنا، فنحن بصدد وضع اللمسات الأخيرة على قاعة من المستوى العالي جدا، أؤكد لك بأنها لا توجد بهذه المنطقة الشمالية برمتها، ونحن على استعداد للتعاون الإيجابي مع كافة الفاعلين الثقافيين والاجتماعيين والاقتصاديين بدون استثناء، لأن ما يهمنا في المقام الأول هو خدمة المنطقة وإرضاء أبنائها. وليس خاف على أحد، أن الكثير من الهيئات المدنية المحلية التي قصدتنا، تعاملنا معها بروح تضامنية كبيرة. كما أننا لازلنا نجتهد في بحث وسائل أخرى لأجل تدعيم هذه الأنشطة الإشعاعية ليس على المستوى المحلي فحسب وإنما الدولي أيضا. فمعلوم أنه خلال هذه السنة زارتنا مجموعة بلجيكية وأخرى هولندية، ولن أبالغ في شيء إذا أخبرتكم بأن الأمر قد راقهم كثيرا وعبروا عن استعدادهم غير المشروط لمواصلة هذه الزيارات وإشهار المدينة وبحث صيغ أخرى للتعاون. ونحن الآن وقعنا عقدة مع هيئة بلجيكية للأطباء سيقومون بزيارة المنطقة مرتين في السنة، وهيئة تعليمية هولندية كذلك، ولدينا اتفاقية تعاون مع وكالة أسفار بمنطقة أندلوسيا باسبانيا. وبغاية تحقيق هذه الأهداف فتحنا ثلاث وكالات أسفار لتحريك وإنعاش السياحة ليس محليا فقط وإنما وطنيا أيضا لتحقيق حلم المغرب في جلب 10ملايين سائح مع حلول سنة2010. ولابد من الإشارة في هذا الإطار إلى أن الأحداث الإرهابية التي عرفتها الدار البيضاء في 16ماي من السنة الماضية، ثم أحداث مدريد الأخيرة كان لها وقع سيء جدا على سياحتنا وسمعة بلدنا، وبالتالي فرضت علينا مضاعفة الجهود لإعادة الأمور نحو مجاريها الطبيعية.

س: أن تعمد إلى إقامة مركب سياحي هو أمر قد لا يقدر أحد منازعتك فيه، لكن أن تلجأ إلى نهب رمال الشاطئ العمومي وتوسيع طريقه واقتطاع جزء مهم منه، وجعل 70٪ من تراب هذا الشاطئ العمومي تحت تصرفك الخاص، فذلك يجافي المصلحة العامة للمواطنين ويتنافى مع حقهم المقدس في استغلال هذا الشاطئ والتمتع به...

ج: أؤكد لك بأن هذا الكلام لا معنى له على الإطلاق ولا يمكنني تصور ذلك حتى. فبالنسبة للرمال التي استخدمتها في البناء اشتريتها بمالي الخاص، وأنا مستعد للكشف عن فواتير تثبت ذلك لمن يهمه الأمر. أما ما قلته عن الطريق فأنا غير مسؤول تماما عما حصل، بل كنت معترضا على ما كان. وأنا لم أتجاوز يوما ما يسمح به القانون، فاستغلال الشاطئ كان بفضل شراء عقد السمسرة المعلن عنه من قبل جماعة إزمورن التي يقع على حدودها هذا الشاطئ، وقد فزت بها بطريقة شرعية، الشيء الذي يخول لي استغلال 30٪ من هذا الشاطئ وليس 70٪ كما أشرت، علما أني لحد الآن لم أستغل سوى 7٪ منه.وأعتقد بأن المستفيد الأكبر من هذه العملية هي الجماعة التي جلبت لخزينتها مداخيل مهمة لم تكن تحلم بها فيما سبق، وهذا حقها، كما أنها مسألة في غاية الأهمية مادامت تشكل مساهمة في خدمة وتنمية هذه الجماعة والمنطقة ككل.

س: ولكن دفتر التحملات الموضوع من قبل الجماعة يضع شروطا ويحتم على الفائز بعقد السمسرة، أن يبدأ بتأهيل الشاطئ عن طريق بناء المرافق الصحية قبل الشروع في الاستغلال. أليس كذلك؟

ج: طبعا هذا ما قمت به، وعليك أن تعرف بأني قمت بحل مشكل معقد جدا، يتمثل في بيوت النظافة التي كانت منعدمة في السابق على مستوى هذا الشاطئ، وقد وضعتها رهن إشارة جميع الرواد والمصطافين بالمجان، كما عمدت إلى وضع مسالك وأدراج ، بغرض تسهيل النزول نحو الشاطئ، ومنها أدراج خاصة بالمعوقين قصد مساعدتهم على النزول للشاطئ دون مشقة كبيرة. أما جمع الأزبال والنفايات فهي مسؤوليتي الخاصة. صحيح أنه كان هناك من قبل مشكل مرتبط بالمياه العادمة ومياه المسبح التي تحتاج لتبديل وتفريغ دائمين، وقد بذلت جهدا كبيرا خلال فصل الشتاء الأخير للتخلص بصورة نهائية من هذا المشكل، وليكن في علمك أن ذلك كلفني أزيد من 50مليون سنتيم خاصة مع الأمطار الغزيرة/ الطوفانية التي شهدناها هذا العام. وإذن فأنا لم أخالف ما ينص عليه القانون ولا دفتر التحملات.

س: مع ذلك، هناك الكثير من المراقبين ، خاصة المهتمين بمجال البيئة، الذين ما فتئوا يعربون عن استيائهم من المقهى الذي شيدتموه أخيرا، بدعوى أن هذا البناء غير مؤقت وغير قابل للتفكيك ويتنافى مع ما هو مسموح به قانونيا في هذا الإطار؟

ج: كل ما قمت به لا يخرج عن إطار ما هو مسموح به قانونيا، فهذا البناء عاينته لجنة مكونة من مسؤولين يمثلون جميع القطاعات والإدارات المعنية بهذا الشان في الإقليم، وضمنهم مسؤولون عن مجالي البيئة والسياحة، ولم يتم تسجيل أي خروقات قانونية. فبالنسبة للأرضية الصلبة نجدها في كل بناء سواء كان مفككا ومؤقتا أو دائما، والمقهى الموجود بهذا الشاطئ، قبل مجيئي وبعده، أليست أرضيته صلبة؟، ثم انظر لباقي الشواطئ (إزضي، كيمادو...) وكل الشواطئ في المغرب. إذن فلست أنا أول ولا آخر من قام بذلك.

س: لازال هناك من يردد بأن ما قمتم به كان اغتصابا لفتوة وجمال الطبيعة، فالإسمنت المسلح والزجاج أفسدا الطابع الموحش والبسيط الذي يميز هذا الفضاء...

ج: لقد قال لي أحد الأشخاص/ الفنانين ذات مرة:"إن شكل منشأتك تشبه إلى حد بعيد الأرنب البري (ءايارزيز)"، ولا أخفيك أن هذا التعبير قد راقني كثيرا، لأنه ينطوي على دقة وذكاء كبيرين في التشبيه، خاصة ونحن ندرك أن الأرنب البري من الحيوانات القليلة التي تعيش بهذا الفضاء، وهو ما يعني أني لم أرتكب جريمة في حق الطبيعة، ولم أشوه جمالية هذا المكان، بقدر ما كنت حريصا على هذا الجانب وبذلت كل ما في وسعي لأجل إضفاء رونق وجمالية على الفضاء ، وهذا ما أقوم به حتى في حياتي اليومية الخاصة، لأني من أشد المدافعين عن احترام وحب الطبيعة. ويكفيني دليلا على ما أدعي أن 10٪ من الميزانية الإجمالية للمشروع ذهبت للتشجير والبستنة والتجميل. فأنا كنت منذ البداية على وعي تام بأهمية البيئة والطبيعة في وقتنا هذا.

كلمة أخيرة:

أود من خلال هذا المنبر، أن أبلغ، كافة أبناء الحسيمة الحبيبة، رسالة مفادها أن هدفي الأول والأخير يبقى هو المساهمة المتواضعة في النهوض بتنمية منطقتنا، وإعطاء مدينتنا تلك الصورة النموذجية التي نبتغيها لها. فأنا يعز علي كثيرا أن أرى شباب مدينتي يأتيني أفواجا صباح مساء راغبين وطالبين للعمل، ولا يكون بمقدوري تلبية رغباتهم، وأتمنى من أعماقي أن أجد شغلا لكل من قصدني ...ولكن الله غالب!. ومن جهة أخرى، أطمح لكي أجعل من "ثارا يوسف" أجمل وأحسن شاطئ وطنيا على الأقل، مع شكري الخالص لكل الأصدقاء الذين آزروني طوال مسيرة البناء التي كانت شاقة من غير شك.

استجوبه: سعيد الغزواني

احتضار شاطئ السواني وانعكاساته السوسيواقتصادية على مستقبل المنطقة

إن تخريب شاطئ السواني يفقده قيمته السياحية و يهدد حوضي النكور و غيس بالتصحر نتيجة زحف الرمال الشاطئية على الأراضي الفلاحية و ارتفاع ملوحة مياه الآبار و تلوث خليج الحسيمة و صيد صغار الأسماك من بين أسباب تراجع الثروة السمكية بالإقليم.

يقع شاطئ السواني شرق مدينة الحسيمة وهو أطول شاطئ بالإقليم إذ يبلغ طوله بإضافة شاطئ الصفيحة 1.5كيلومتر و يتميز برماله السوداء الناعمة لدقتها . يمثل هذا الشاطئ الوسط الانتقالي بين وسطين ، الأول هو سهل النكور الذي يعتبر أحد أكبر السهول الفيضية على الواجهة المتوسطية للمغرب والثاني هو خليج الحسيمة الذي ترصعه الجزر الثلاث المستعمرة من طرف الإسبان منذ القرن السابع عشر. يعتبر هذا الخليج من المناطق الحساسة بيئيا لكونه يشكل منطقة لتوالد عدد كبير من الأنواع السمكية السطحية التي يعتمد عليها الصيد الساحلي بشكل أساسي ، كما يصب في هذا الخليج أهم وادين في الإقليم وهما وادي غيس و النكور الذي أقيم عليه سد محمد بن عبد الكريم الخطابي. كما يحد هذا الشاطئ شريط غابوي تم غرسه في بداية الستينات من القرن العشرين لوقف زحف رمال الكثبان الشاطئية على بقية السهل. وقد أثار هذا الشاطئ اهتمام المستثمرين السياحيين منذ الستينات فأقيم به نادي البحر الأبيض المتوسط و الذي ظل يشتغل بدون انقطاع إلى حدود السنة الماضية.

حيث تم الشروع في بناء مركب سياحي آخر من طرف شركة تدعى . Luna Rosaفما هو واقع حال هذا الشاطئ؟ و ما هي المشاكل البيئية التي يعاني منها خصوصا إذا عرفنا أن الشواطئ عموما مناطق جد هشة و سرعان ما تتأثر ؟ ما هي البنيات السياحية العامة التي تم إعدادها لاستقبال 3000مصطافا حسب إحصاء وزارة إعداد التراب الوطني و التعمير و الإسكان في صيف2010 ما هي الإجراءات المتخذة لحماية هذه الثروة الطبيعية؟

حكيم مسعودي

لنبدأ جولتنا انطلاقا من شاطئ الصفيحة الذي يتميز بجمالية خاصة لكونه محاطا بتشكلات كلسية تمثل نهاية الذروة الكلسية التي تبدأ في قرية الجبهة غربا، ولكون مياهه غير العميقة تسمح باستحمام الأطفال الذين لا يعرفون السباحة بعد بكل أمان ومقاهيه القصبية التي تنتصب كل صيف لتعرض على المصطافين مشروبات باردة و سردينا مشويا. لا يتوفر هذا الشاطئ على أية تجهيزات عمومية باستثناء مرحاضين أحدهما للنساء و الآخر للرجال واللذين تكلفت ببنائهما جماعة آيت يوسف وعلي و لكن دون أن يتم تشغيلهما، لا يتوفر هذا الشاطئ على أية خدمة عمومية لجمع النفايات باستثناء المجهود الجبار والمشكور الذي يبذله أصحاب هذه المقاهي غيرة على محيطهم في جمع و تنظيف الشاطئ و دفن ما تم جمعه بعد إحراقه. وأنت تمشي نحو الشرق باتجاه شاطئ السواني أول ما يجعلك تتسائل هو وجود حاجز من الشباك الحديدي و حارس خاص يخبرك بأنه لا يسمح المرور لأنه شاطئ خاص بنادي البحر الأبيض المتوسط ! Club Med هذا الجزء من الشاطئ محمي جدا وقد دفعنا ذلك إلى استكشاف مكوناته الطبيعية من أجل مقارنته بشاطئ السواني غير المحمي. يتكون الجزء المحمي من هذا الشاطئ من شريط رملي يتراوح عرضه ما بين 10و 40 مترا و هي منطقة تصلها مياه خلال المد وهيجان البحر. تليها منطقة عرضها حوالى 40مترا تسود فيها النباتات العشبية المقاومة للملوحة ثم يلي ذلك باتجاه السهل حزام آخر من أشجار الأكاسيا(mimo-Acaccia sa;Cyanophila;Cyclops...) عرضه حوالي 30 مترا تليه أخيرا غابة من أشجار الأوكالبتوس والصنوبر البحري والحلبي ويتجاوز عرضها 100متر.و بداخلها تم إقامة قرية نادي البحر الأبيض المتوسط وهي عبارة عن كثبان رملية شاطئية مثبتة بواسطة هذا الغطاء النباتي.

وإذا تجاوزنا قليلا هذا الجزء المحمي من شاطئ السواني لنجد أنفسنا في شاطئ يتكون من شريط أغلب مكوناته عبارة عن حصى يتخللها الرمل و لا يتجاوز عرضه في أغلب الأحيان عشرة أمتار. أول ما يشد انتباهك هو آثار عجلات الجرارات وغياب كل المكونات النباتية التي ذكرناها في الجزء المحمي من الشاطئ باستثناء غابة الأوكاليبتوس التي بقي منها شريط يتراوح عرضه ما بين 0و 50مترا أول أشجاره من جهة البحر في منطقة تلاطم الأمواج خصوصا في الجهة الشرقية أي عند مصب واد النكور تتبادر إلى الذهن.عدة أسئلة، هي لماذا صار هذا الشاطئ على هذا الشكل؟ من المسؤول على ذلك؟ ما هي انعكاسات هذا التخريب البشع؟

عند مصب واد غيس أو النكور تجد الجواب نهارا أما عند حلول الليل فقد تجده قبل الوصول إلى المصب!

أسباب تراجع عرض الشاطئ وتدهوره.

لقد شرع في استغلال رمال السواني منذ فترة الاستقلال بشكل ضعيف أولا ثم زادت سرعة استخراج الرمال من هذا الشاطئ بوتيرة متسارعة بزيادة النشاط العمراني في الإقليم، ولتقدير كمية الرمال المستخرجة منه يكفي تصور كمية الرمال التي استعملت في بناء ثلاث مراكز حضرية هي الحسيمة، إمزورن وبني بوعياش مع عدم إغفال جزء من تاركيست و باقي المراكز القروية الأخرى ، ربما هذا يكفي لتصور حجم وهول النهب الذي تعرضت له رمال هذا الشاطئ. و يفاجأ المرء عندما يعلم من مسؤولي مديرية التجهيز، أن لا أحد يملك رخصة لاستخراج هذه الرمال الشاطئية ، وأن كل الرخص تحدد مجرى واد غيس كمنطقة لاستخراج الرمل شريطة الابتعاد عن المصب ب 200مترا اتجاه عالية الواد! هذا طبعا هو القانون، لكن الواقع شيء آخر بحيث عندما تستطلع الأمر تجد تواطؤا لعدة أطراف تحملت مسؤولية حراسة هذا الشاطئ، وتعرف بأن الإتاوة التي يجب دفعها لنهب شاحنة من الرمل هي 50درهما لا غير. و أنه تم ابتداع عدة طرق "فنية" لإخراج الرمال من الشاطئ نحو بعض المنازل ليلا باستعمال الحمير أو الجرارات، ليتم بيعها بعد ذلك انطلاقا من هذه النقط. والكل يعرف لكن مع غض الطرف لأسباب متعددة إما انتخابوية أو مالية مباشرة أو غيرها . و" الكل طبعا معذور في إطار نقص الموارد و مناصب الشغل بالمنطقة" يقول أحد الذين سألناهم عن الأسباب.

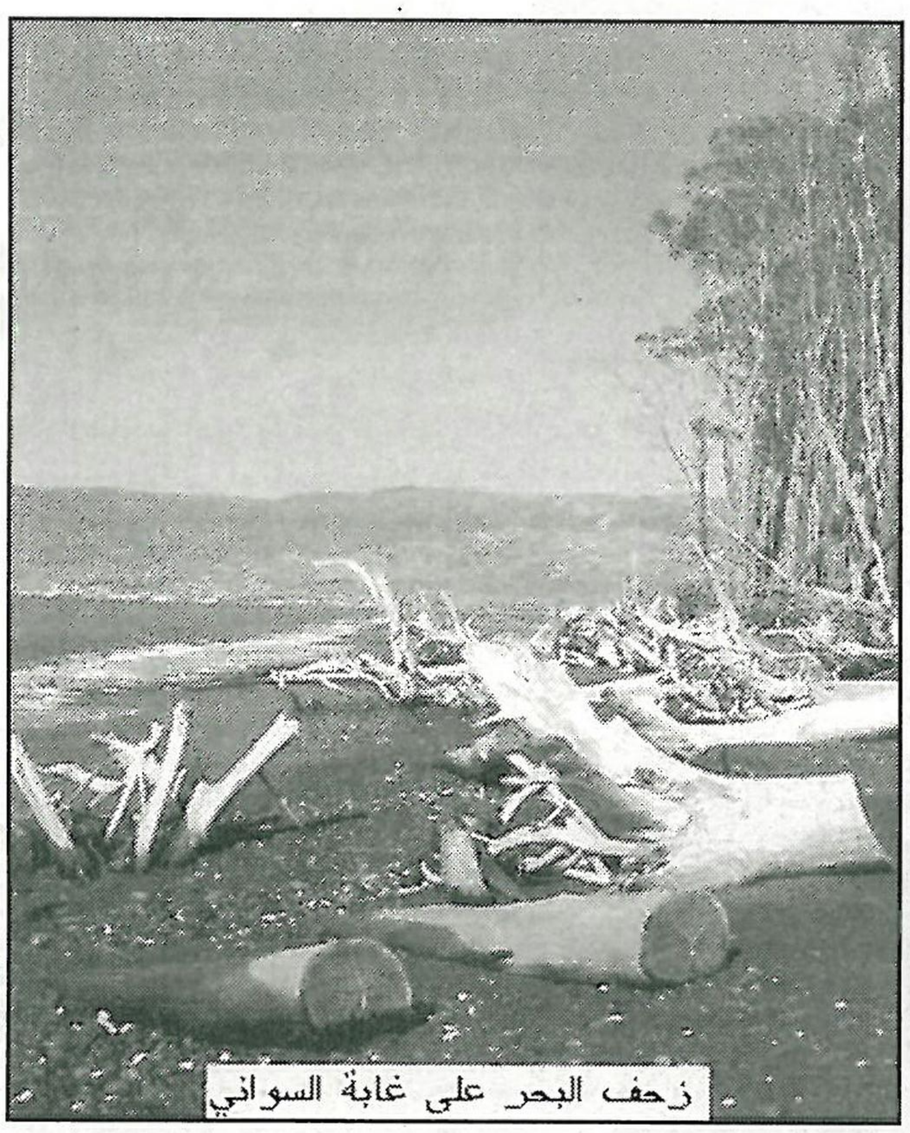
إذا كان نهب الرمال هو السبب الرئيسي لتراجع مساحة شاطئ السواني فإن بناء سد محمد بن عبد الكريم على واد النكور كان العامل الثانوي الذي قلل من الموارد الحتاتية Detritusالتي تسمح بتجديد رمال هذا الشاطئ.

انعكاسات تدهور تراجع رمال شاطئ السواني على المحيط البيئي

إن تراجع عرض الشاطئ نتيجة نهب رماله ونقص الموارد الحتاتية ليست بدون تأثير على المحيط إذ ما يمكن أن نسجله من تغيرات ملاحظة على الأمد القصير(15 سنة) هي تراجع كبير في عرض الشاطئ و " زحف" البحر على اليابسة مما ادى إلى القضاء بشكل نهائي على الأحزمة الغابوية التي سبق لنا وصفها في الشاطئ المحمي وحاليا قد وصل هذا الزحف إلى غابة الأوكاليبتوس التي أتى البحر على جزء هام منها(كما هو مبين في الصورة) وفي نقط أخرى اختفى الشريط الغابوي بشكل نهائي. إن اختفاء هذا الشريط الغابوي سيؤدي لا محالة إلى زحف الرمال الدقيقة المنقولة بواسطة الرياح على الأراضي الفلاحية الموجود مباشرة خلف هذا الحزام الغابوي الذي لم يغرس إلا من أجل تثبيت الكثبان الرملية ، ولنا في الضفة اليمنى لواد النكور و التي تنتمي إلى إقليم الناظور مثال صارخ، بحيث أن رمال الشاطئ نقلتها الرياح لتصل إلى تروكوت على بعد بضعة كيلومترات. فهل نريد مصيرا مماثلا لسهل النكور و للحوض المسقي لغيس؟!

من أخطر الانعكاسات المحتملة أيضا لزحف البحر على اليابسة هو ارتفاع درجة ملوحة الفرشة المائية لسهل النكور و التي توجد على عمق أقل من خمسة أمتار من العمق على مستوى الشاطئ حيث يمكن معاينة ذلك في مجموعة من الآبار التي تلطمها الأمواج حاليا.كما أن استخراج كميات كبيرة من المياه لأغراض زراعية سيزيد من حدة ظاهرة ارتفاع ملوحة الفرشة المائية التي ستعوضها مياه البحر، علما أن سهل النكور يعاني مسبقا من الملوحة المرتفعة في عدة مناطق. إن خطورة هذا التأثير ليست من باب التهويل إذ أنه بإسبانيا مثلا كان لمجموعة من الشواطئ المحاذية لسهول فيضية نفس المصير بعد الاستغلال المكثف لرمالها.

يتبين أن تخريب هذا الشريط الغابوي لشاطئ



زحف البحر على غابة السواني

إن اختفاء هذا الشريط الغابوي سيؤدي لا محالة إلى زحف الرمال الدقيقة المنقولة بواسطة الرياح على الأراضي الفلاحية الموجود مباشرة خلف هذا الحزام الغابوي

واقع حال مشروع "لوناروسا" المحال

المشروع السياحي لونا روساLuna Rossa بشاطئ السواني نموذج للاستثمارات الأجنبية المستهترة بالقوانين الوطنية و المساهمة في هدم البيئة.خطوات إنجاز هذا المشروع والمراحل التي قطعها إلى حد الآن لا تدل على اكثر من ذلك.

عند الحديث بشكل عام عن المشاريع التنموية بالريف الأوسط لا يمكن إغفال النشاط السياحي الشاطئي منه على الخصوص، نظرا لما يزخر به إقليما الحسيمة و الناظور من مؤهلات طبيعية وما يساهم به هذا القطاع في التنمية الاقتصادية المحلية بالنسبة لإقليم الحسيمة بشكل خاص. سوى أن قلة لمشاريع التنموية السياحية لها يبررها بشكل موضوعي، وغالبا ما يلخص المستثمرون العراقيل التي تعترض تنمية هذا القطاع هي رداءة الطرق للمحيا والحياة و غياب خطوط بحرية قارة تربط المنطقة مع الضفة الشمالية من المتوسط وغياب تثمين للمعالم التاريخية و الثقافية للمنطقة علاوة على انعدام التنشيط السياحي إذا استثنينا المهرجان السياحي اليتيم للحسيمة و الذي أصبح في خبر كان منذ سنتين و الغلاء الكبير للعقار وعدم قيام مديرية السياحة محليا بأي مجهودات تذكر قصد تنمية و تشجيع هذا القطاع و جلب المستثمرين . رغم هذه العوائق التي تجعل أي مستثمر يفكر في إنجاز مشروع سياحي في الحسيمة مغامرا مقداما لهذا يمكن اعتبار مشروع المركب السياحي" شفارينا بيتش" بإركان (تلا يوسف) أحد هذه المغامرات التي عانت و قاومت لتصل إلى شاطئ النجاة. تلاه بعد ذلك المشروع السياحي (Luna Rossa القمر الوردي) بشاطئ السواني التابع لجماعة آيت يوسف. بالرغم من كونه لا زال في طور البناء فإن مؤشرات بداية تعثره بدأت تلوح منذ بداية الصيف الماضي و التي أدت أخيرا إلى توقيف الأشغال به، فما هي مكونات هذا المشروع ؟ و ما هي المنجزات التي تم تحقيقها إلى حد الآن في إطار هذا المشروع؟ وما هي الدواعي التي أدت إلى إيقافه ؟

يهدف مشروع Luna Rosaالذي أقيم على أراضي تابعة للملك العمومي الغابوي إلى إنشاء قرية سياحية قدرتها الاستيعابية هي 1455سريرا وخلق 450منصب شغل قار . يتضمن المشروع، بناء و تجهيز 249منزلا صيفيا Bungalowمشكلا من طبقة واحدة، و 100منزل صيفيا مكونا من طبقتين، و 10فيلات villas، إضافة إلى مطاعم، ومراقص، وملاعب رياضية و مركز تجاري ومدرج ، وتجهيزات مخصصة للتنشيط علاوة على البنية التحتية اللازمة(الماء . الكهرباء، الهاتف و تطهير السائل) ويقدر التمويل الإجمالي المخصص للبناء و التجهيز ب 281مليون درهما.

بدأت المراحل الأولى لهذا المشروع بعرض شركة Luna Rossaللفها الاستشاري على اللجنة المشتركة بين الوزارات و المكلفة بتهيئة الساحل ولتحصل على موافقتها المبدئية في نوفمبر 2001مرفوقة بمجموعة من التحفظات والشروط من بينها المحافظة على الطبيعة العمومية للشاطئ وتحديد الملك العمومي البحري بتنسيق مع مندوبية التجهيز.و إنجاز دراسة لتأثير المشروع على المحيط...

بعد ذلك وضعت هذه الشركة ملفها الاستثماري لدى عمالة الإقليم في أبريل 2002و بعد تدارسه من طرف اللجنة التقنية أنشأت لهذا الغرض وتقديم مجموعة من الملاحظات التقنية و القانونية بشأن المشروع وراسلت الجهات المعنية مركزيا لتقدم موافقتها المبدئية لإنجاز هذا المشروع في يناير 2003شريطة استجابة المستثمر لمجموعة من الشروط و التحفظات التي أدلت بها اللجان المختصة. مباشرة بعد ذلك و في نهاية نفس الشهر حصلت الشركة على رخصة البناء من جماعة آيت يوسف وعلي والتي كانت مشروطة مثل كل الرخص من هذا النوع بتقديم كل الدراسات التقنية المطلوبة و القيام بالإجراءات الإدارية اللازمة قبل انطلاق الأشغال. وتجدر الإشارة إلى أنه في مارس 2003تم توقيع اتفاقية شراكة بين ممثل شركة Luna Rossa الإيطالي و الحكومة المغربية ممثلة بوزير المالية و وزير الصناعة و التجارة و الاتصال و وزير السياحة و الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالشؤون الاقتصادية . بموجب هذه الاتفاقية تستفيد الشركة بإنجازها لهذا المشروع من مجموعة من الامتيازات المقدمة من طرف الدولة المغربية في إطار تشجيع المبادرة الخاصة التي تستهدف تنمية قطاع السياحة.

ما تم إنجازه من هذا المشروع يمكن حصره في بناء سور يحيط بالمساحة المحددة للمشروع وهي 23 هكتار ونصف تقريبا والاقتصار على سياج من الشباك الحديدية على الواجهة البحرية وقد تم ليحيط الجدار الشار إليه سابقا بناية قديمة تستعمل كمقر خاص بعناصر بالبحرية الملكية المكلفة بحراسة الشواطئ كما تم بناء 40مسكنا صيفيا Bungalowsو فيلا خاصة بالمستثمر تم تزويدها بالماء انطلاقا من حوض لتجميع المياه.إضافة إلى إنشاء حفرة مخصصة لمياه الواد الحار . Fosse septique

انطلاقا مما تم إنجازه والمراحل التي قطعها تنفيذ الجزء الأول من مشروع Luna Rossa تبين للجنة الإقليمية المشرفة على متابعة المشروع .أن الشركة لم تقم بأداء الكفالة التي بذمتها اتجاه إدارة المياه والغابات مقابل قطعها لعدد محدد من الأشجار حسب ماتم الاتفاق عليه و ذلك رغم الاستدعاءات المتكررة الموجهة إلى المعني للأمر، فضلا عن عدم أداء المستحقات الخاصة بالوقاية المدنية ،عدم تقديم الدراسات التقنية المطلوبة قبل الشروع في الأشغال كما هو منصوص عليه في القوانين الجاري بها العمل في هذا المضمار أو كما هي معبر عليها في الفصل الخامس من دفتر التحملات (دراسة تأثير المشروع). كما أنه لم يتم إشعار المصالح المعنية بالجماعة بالشروع في الأشغال يضاف إلى ذلك أن كل المنازل الصيفية المبنية لا تتوفر على تصاميم الخرسانة المسلحة وتم بناؤها في غياب لمتابعة كل من المهندس المعماري و مكتب الدراسات التقنية إلى كل هذه التجاوزات للقوانين المنظمة وفصول دفتر التحملات. يضاف إلى هذا الاستهتار بالقوانين الوطنية التخريب المتواصل للمحيا Biotope والحياة و الذي يرافق إنجاز هذا المشروع مما يعجل بتدمير مجال يشكل جزءا من خليج الحسيمة المصنف كمنطقة حساسة من الناحية البيئية.يتجلى هذا التخريب في عدة ممارسات غير قانونية نلخصها فيما يلي:

– قطع عدد كبير من أشجار الأوكاليبتوس وبشكل عشوائي دون احترام للفصل السابع من قرار الاحتلال المؤقت و رغم مراسلة مديرية الغابات لمسير الشركة. علما أن القضاء على هذه الغابة له انعكاسات جد سلبية على كل المحيط (أنظر موضوعنا حول شاطئ السواني في نفس العدد). و حسب ما أفادنا به بعض شباب هذه المنطقة فإنه قد تم بيع جزء كبير من هذا الخشب المقطوع. على شكل قطع صغيرة و معدة للحرق في الأفران أو الحمامات.

– استخراج الرمال بشكل غير قانوني من أجل بناء مختلف مرافق المشروع ضدا على القوانين الجاري بها العمل وخصوصا ظهير 1926 كما يروج بين الذين سألناهم أن للرمال نفس مصير الأشجار المقطوعة فهي للبيع أيضا!

–إن إقامة حفر يفرغ فيها الواد الحار بدل إقامة المصفاة المبرمجة في المشروع يشكل تهديدا مباشرا لتلويث فرشة المياه الجوفية لواد غيس ، و التي لا يتجاوز عمقها في هذه المنطقة خمسة أمتار!

– استغلال غير مراقب للمياه المستخرجة من الآبار التي تم حفرها لأغراض البناء و التي ربما سيستمر العمل على استغلالها مستقبلا لتزويد المشروع بالماء الصالح للشرب ضدا على ما ورد في الفصل الثالث من دفتر التحملات بضرورة تزويد المشروع بالماء الصالح للشرب حسب المعايير المتبعة من طرف المكتب الوطني للماء الصالح للشرب.

كل هذه الأسباب كانت وراء توقيف الأشغال بهذا المشروع الذي استبشرنا به خيرا فإذا به يتحول إلى شر مبين، ولا يجب أن يفهم من كلامنا بأننا نحارب الاستثمار لكننا لا نريد أن تكون قوانيننا عرضة للاستهتار وبيئتنا بدون محيا و لا حياة.

حكيم مسعودي

السواني ستكون له انعكاسات سوسيو اقتصادية خطيرة على مجموع المنطقة.في المدى المتوسط و البعيد.

صيد صغار الأسماك انطلاقا من الشاطئ والصيد بالجر في المناطق القليلة العمق

سبقت الإشارة إلى كون خليج الحسيمة هو المكان الملائم لتوالد عدة أنواع من الأسماك السطحية وخصوصا في مصبات الوديان لأن فقس بيض هذه الأنواع يحتاج إلى درجة ملوحة أقل و إلى غنى الوسط بالبلانكتون الذي يشكل الغذاء الرئيسي لهذه الأنواع. إن هذه المعطيات كافية لأعتبار الوسط البحري لخليج الحسيمة منطقة يجب أن تحظي برعاية و حماية نوعية لكون الصيد الساحلي من أهم الموارد الاقتصادية بالحسيمة. سوى أن عدة ممارسات تتزامن خصوصا مع فترة التوالد عند الأسماك و في شهر رمضان خصوصا تتجلى في صيد صغار الأسماك و التي لا يتجاوز طولها بضعة مليمترات لتباع في مواقع معروفة بحيث يتكون كل كيلو غرام مما يفوق 1000سمكة !. ونحن عندما نطرح هذا المشكل ليس قصد التضييق على الصيادين الذين هم في ضيقة أصلا و إنما لتشخيص المشكل وطرحه في إطاره الواقعي و دعوة المسؤولين عن هذا القطاع إلى دعم و تأهيل الصيادين التقليديين التابعين لهذا الشاطئ ولم لا تجهيزهم بالوسائل الضرورية قصد ممارسة مهنتهم بالشكل القانوني و الملائم للمحافظة على الموارد و الثروات الطبيعية للمنطقة.

عدة مراكب للصيد بالجر تصطاد في الخليج على عمق غير مسموح به قانونيا(اقل من 80مترا) وهي بالطبع تؤدي إلى تخريب واسع للثروة الحيوانية البحرية و تتحمل جزءا من المسؤولية في تراجع الثروة السمكية لكون الخليج هو "عش" لتوالد الأسماك كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

من المحتمل جدا أن تقليص كمية المياه العذبة الواردة على هذا الخليج بإنشاء سد على واد النكور، قد قلص أيضا من الكمية المتوالدة بهذا الخليج.

تلوث الشاطئ

يخضع شاطئ السواني لتلوث أغلبه صادر عن سوء تدبير للنفايات الصلبة و السائلة للجماعات الحضرية (إمزورن و بني بوعياش) بالإضافة إلى الجماعة الحضرية للحسيمة، بحيث أن النفايات الصلبة لهاته الجماعات تصل إلى الوسط البحري بشكل مباشر مثلما هو الحال بالنسبة للحسيمة أو بشكل غير مباشر، بالنسبة لإمزورن و بني بوعياش و آيت يوسف و علي حيث يتم التخلص من النفايات في مجاري الوديان غيس و النكور لتنقل هذه النفايات خلال التساقطات المطرية إلى خليج الحسيمة. يكفي زيارة هذه الشواطئ مباشرة بعد فترة ممطرة ليتبين بوضوح هول الكارثة مع العلم أن ما يلقيه البحر على الشواطئ لا يشكل إلا نسبة 10% من مجموع الملوثات التي وصلت إليه عبر الوديان. ويتعلق الأمر بتلوث فيزيائي طبعا لأن الكشف عن التلوث الكيميائي يحتاج إلى تحاليل مخبرية. كما أنه نظرا لغياب خدمة جمع النفايات الناتجة عن الاصطياف فإن أغلب المصطافين يلقون نفاياتهم في الشاطئ ويكون سببا في تكاثر الحشرات الناقلة للأمراض كالذباب خصوصا و يشوه جمالية الشواطئ. ولأنه جرت العادة أن يلقي كل طرف اللوم على الطرف الآخر، فإننا نرى بأن الجماعات مطالبة بتقديم خدمة جمع نفايات المصطافين و ذلك بتخصيص سلال أو غيرها لتحقيق ذلك و أن كل مصطاف مطالب على الأقل بأن يترك الشاطئ على الحالة التي وجده عليها.

ختاما، بعد هذا التشخيص الأولي للحالة التي يوجد عليها شاطئ السواني و الانعكاسات الكارثية التي يمكن أن تترتب عن التخريب المتواصل الذي يعرفه ، تبين لنا أن الجهات المسؤولة عن هذا المجال متعددة و اختصاصاتها متداخلة، وأنه للحد من استمرار التدهور الخطير الذي يعرفه هذا الشاطئ، نقترح تشكيل لجنة مشتركة بين الجماعات المحلية (آيت يوسف وعلي، إمزورن،بني بوعياش و الحسيمة) و ممثلين عن كل من السلطات المحلية، مديرية التجهيز، المياه و الغابات، الصيد البحري، مديرية البيئة، مديرية السياحة و جمعيات المجتمع المدني المهتمة بالبيئة. يكون الهدف منها هو العمل على إيجاد حلول مستعجلة من أجل إنقاذ هذا الشاطئ وبالتالي مستقبل سهل النكور. من جهتنا كمهتمين و فاعلين بيئيين، و انطلاقا من اختصاص كل جهة نرى أن الجماعات المحلية مطالبة بالتدخل للحد من التلوث و ذلك باقتراح حلول موضوعية تراعي الحفاظ على البيئة بالنسبة للنفايات الصلبة و السائلة التي ينتجها سكان الجماعات المعنية، وتقديم الحد الأدنى من الخدمات بالنسبة للمصطافين(مثل تخصيص أماكن لجمع النفايات،مراحيض...)، كما أنه على مديرية التجهيز إيقاف هذا النزيف الرملي المتواصل بتفعيل آليات المراقبة المستمرة، كما أن مديرية المياه و الغابات مطالبة بالتدخل للحد من تخريب هذه الغابة الشاطئية، والقيام بحملات لإعادة تشجير المنطقة الشاطئية بينما تتكلف مديرية الصيد البحري بوقف صيد صغار الأسماك و منع قوارب الصيد بالجر من الصيد في خليج الحسيمة وكذلك تأهيل و دعم قطاع الصيد التقليدي بهذا الشاطئ لكي يمارس نشاطه بشكل قانوني.بالنسبة لمديرية البيئة نرى أنه عليها إنجاز دراسة تقييمية للوضعية الحالية لهذا الشاطئ و تنظيم حملات تحسيسية ودورات تكوينية باشراك الجمعيات و الفاعلين المهتمين بالبيئة. نرجو أن يسمع نداؤنا هذا من طرف كل من له غيرة على مصلحة أبنائنا و في ذهنه حب لهذا الوطن الكريم..

حبيب كابو ممثل مستخدمي قطاع "نادي البحر الأبيض المتوسط" بالحسيمة:

نستغرب لهذا الصمت المطبق للمسؤولين المحليين



لعل الوافد على مدينة الحسيمة، وهو في طريقه إليها، غالبا ما تسترعي انتباهه غابة كثيفة بأشجار الصنوبر والصفصاف مقابلة لجزيرة النكور، غير أن هذه الغابة ليست كذلك، فهي تحتوي بباطنها مركبا سياحيا بمواصفات عالمية يشد إليه كل السواح من أقطاب مختلفة من المعمور، بحيث يحتوي هذا المركب على طاقة إيوائية تبلغ 1400 سرير، 27 ملعبا لكرة المضرب، مطعم يتسع لقرابة ألف زبون وآخر لمائتين من الزبائن، مسبح وحانتين وملعب لكرة القدم، بالإضافة إلى مجموعة من المرافق الترفيهية التي كانت تقدم خدمات احترافية للزبائن من المستوى العالي جدا، علما أن تدشين هذا المركب مع بداية عقد الستينات (1962) كان قد لقي معارضة من أبناء ساكنة أجدير نظرا لما يطرحه من مشاكل على المستوى الأخلاقي والديني بالخصوص، إضافة إلى أن ساكنة أجدير كانت تعتبر أن إقامة هذا المركب على تلك الأرض هو نوع من الاستيلاء والترامي على أرض في ملكيتهم، لاسيما وأنه كانت هناك اتفاقية بين أعيان ساكنة أجدير والمستعمر الاسباني بغرس تلك الغابة، وبعد مضي أربعين سنة سيستعيدون تلك الأرض. ولأجل فض هذا النزاع كان قد تدخل السيد مولاي أحمد العلوي، وزير السياحة آنذاك، الذي هدأ من روع السكان بقوله إن هذه المؤسسة السياحية ستعود بالنفع على ساكنة المنطقة بالنظر إلى أن من أولويات أهدافها هو تشغيل أبناء المنطقة، الأمر الذي رحبت به ساكنة أجدير ولقيت استحسانا من لدنهم.

أما المشكل الذي نعاني منه اليوم كعمال ومستخدمين بهذه المنشأة السياحية الكبيرة، فهو أنه كان قد تمت بيننا وبين إدارة هذه المؤسسة عقدة لإيقاف وتجميد الاستغلال لمدة سنة، وللإشارة فإن هذه الاتفاقية انتهت يوم 30مارس2004، وبموجب هذه العقدة كنا متفقين مع إدارة المؤسسة بتشغيل العمال بشكل تناوبي مراعاة لمصلحة هؤلاء. لكننا فوجئنا يوم13يناير الماضي من هذه السنة بدعوتنا لعقد لقاء مع المدير العام ل"نوادي البحر الأبيض المتوسط بالمغرب" السيد "جان لوك هيباري" وبحضور مدير الموارد البشرية السيد "أسيك هوبان" ومدير المستخدمين بالحسيمة السيد "محمد الرحموني". وخلال هذا اللقاء فاجأونا بالإغلاق النهائي لهذه المنشأة السياحية، وأفضى هذا الاجتماع إلى رفع رسالة إلى المدير العام المقيم بفرنسا لأجل إعادة النظر في هذا القرار الخطير الذي يمثل كارثة حقيقية بالنسبة لفئة عريضة من العمال الذين تعد هذه المؤسسة مصدر عيشهم ورزقهم الوحيد، ولحد الآن لم نتوصل بأي جواب من المدير العام. ويوم 27مارس2004 دعانا مدير الموارد البشرية السيد "أسيك هوبان" ليحدثنا عن مستحقاتنا وديوننا وبالتالي تصفية الحساب معنا وفض العقدة التي تربطنا كمستخدمين مع هذه الشركة. وهذا ما اعتبرناه منافيا لحقوقنا المشروعة، حيث أبلغناه بأنه في حالة ما إذا كانوا عازمين فعلا على إغلاق هذه المؤسسة بالحسيمة، فإن عمالنا مستعدون للاشتغال معهم بمؤسساتهم سواء داخل المغرب أو خارجه(مجموع مؤسسات هذه الشركة 130 ناديا بالعالم) علما أننا ندرك بأنه في الوقت الذي يسعون فيه إلى طرد 160 مستخدما بالحسيمة، يقومون بالمقابل بفتح مؤسسة جديدة بمراكش ويشغلون بها عمالا جددا، في الوقت الذي نجد فيه عمالنا على دراية واسعة بهذا المجال(منهم عمال الصيانة وتقنيين محترفين...). لكن بدا لنا أنهم يرفضون مقترحاتنا بشكل مسبق جملة وتفصيلا، ويفضلون فض العقدة التي تربطنا بهم كمستخدمين تابعين لشركتهم. وكان آخر لقاء لنا مع ممثلي الولاية(مفتش الشغل الإقليمي ورئيس الدائرة والمسؤول عن الشؤون العامة بالولاية)، حيث تركزت اقتراحاتنا على تشغيل هؤلاء العمال في أي مكان يكون تابعا لهذه الشركة السياحية، وانتهى بنا هذا اللقاء التشاوري إلى وعدنا بإحالة اقتراحاتنا على السيد الوالي، ولحد الآن لم يجبنا أحد.

وجدير بالذكر أن ما نلمسه، من خلال هذه اللقاءات، هو محاولة هذه الشركة التخلص من 160 عاملا ومستخدما لطردهم وتشريدهم، لاسيما وأن هذه المؤسسة ليست على حافة الإفلاس كما يريد البعض إيهامنا، بل هي بصحة وعافية تامتين، خاصة وأنه بعد ظهور مدونة الشغل الجديدة إلى حيز الواقع أصبحت شركتنا تفضل التعامل مع بعض الشركات الخاصة المكلفة بتشغيل العمال حتى لا تطرح أية مشاكل مستقبلا متعلقة بحقوق المعاش والتقاعد وما إلى ذلك. نقول هذا الكلام ونحن نعاين إرهاصات هذا الطرد الجماعي من خلال قيام مؤسستنا باستدعاء عمال آخرين، ينتمون لشركة خاصة من الدار البيضاء، بغرض القيام بالحراسة الليلية للقرية السياحية، في الوقت الذي لا يجد فيه عمالنا ما يقومون به وبالتالي ما يسدون به رمق عيشهم الذي أمسى بئيسا للغاية.

غير أنه إذا كنا لحد الساعة ما زلنا في حالة انتظار، فذلك يعود في المقام الأول إلى الضباب الكثيف الذي يلف هذا الملف، خاصة وأن وزير السياحة كان قد وعدنا بإعادة فتح هذا النادي في أقرب الآجال، إضافة إلى الخطاب الأخير للوزير الأول الذي كان قد ألقاه بالحسيمة حين تعرض فيه لهذا الملف/المشكل تحت اسم "النكور" دون توضيحات مؤكدة. لذلك فنحن نطالب المسؤولين المحليين بتوضيح مجموعة من الاستفهامات من قبيل: هل هناك إرادة حقيقية لإعادة فتح هذه المؤسسة؟ وهل ثمة ميزانية خاصة رصدت لها؟ وما مصير 160عاملا منهم من أفنى زهرة شبابه في خدمة هذه المؤسسة والآن يعيش على الكفاف؟؟ إضافة إلى تساؤلات أخرى نطالب من خلالها المسؤولين المحليين توضيحها. وفي ذات الوقت نحن نستغرب من هذا الصمت المطبق من طرفهم وهم يرون كل هذا الكم الهائل من العمال تركوا لمصيرهم في هذه المنطقة المنكوبة، التي حظيت بعطف وتضامن عالميين، من غير أن يحركوا ساكنا. وبطبيعة الحال، فإن الأيام القادمة ستثبت أننا عازمون على الدفاع عن حقنا المشروع في العمل بخوض كافة المعارك النضالية الكفيلة باسترجاع هذا الحق المقدس بالنسبة لنا.

أعده: س غ

المندوب الإقليمي للشباب و الرياضة:

فلسفة التخييم غائبة بالإقليم وكتابة الدول جادة في إقامة مراكز اصطياف قارة بالمنطقة

" يصعب الحديث عن مخيم صيفي كنشاط تربوي، اجتماعي ترفيهي في غياب مخيم قار بالمنطقة " . هذا ما أدلى به مندوب الشباب والرياضة في مستهل الحديث الذي خص به جريدة تيفراز، والأسباب التي تقف وراء هذه الوضعية تعود بالأساس إلى عدم تمكن كتابة الدولة في الشباب والرياضة من الحصول على عقار مناسب لإحداث مخيم قار بالمنطقة. مع أن المندوبية الإقليمية قامت بمجهودات في هذا الشأن، إذ وجهت رسالة إلى جماعة آيت وعلي لتمكينها من فضاء خاص بالمخيم الصيفي، إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فظروف الزلزال الذي ضرب الإقليم يوم 24 فبراير2004 حالت دون التداول في هذا الموضوع والذي كان من المحتمل أن يدرس في دورة فبراير.

أمام كل هذه الإكراهات، فإن كتابة الدولة بادرت وفي أول تجربة لها إلى تنظيم مخيم بالمنطقة لفائدة 600 مستفيد منحدرين من مختلف مناطق المملكة في صيف 2003 ومن جهة أخرى، فإن كتابة الدولة في الشباب، يقول المندوب الإقليمي، تخصص مقاعد تخييمية في كل إطار برنامجها الوطني لمجموعة من المنظمات الوطنية المهتمة بالشباب ونظرا لغياب الجمعيات الوطنية ومنظمات الشباب التي تشتغل في هذا الإطار باستثناء جمعية الشعلة ومنظمة الكشاف ومنظمة الكشاف المغربي، فإن الاستفادة تقتصر فقط على هاتين المنظمتين.

وبشراكة مع منظمة فرنسية " رجال المطافيء بلا حدود " . تنظم كتابة الدولة خلال الصيف الحالي مخيما بالسعيدية يخصص لأبناء منكوبي الزلزال القاطنين بالدواوير الأكثر تضررا ويستفيد من هذه العملية 70 طفلا وذلك بإشراك جمعية ملتقى المرأة وجمعية العمال المغاربة بفرنسا وجمعية ريف الشمال، وستكون مصاريف التنقل من وإلى المخيم بمساهمة المجلس البلدي لمدينة الحسيمة والمجلس الإقليمي للثقافة والرياضة والشؤون الاجتماعية وكذلك جمعية تازغين، وذلك تحت إشراف أطر وطنية متخصصة في التخييم والتنشيط التربوي.

ويضيف المندوب أن كتابة الدولة في الشباب تبذل جهودا كبيرة للدفع بعملية التخييم نحو الأفضل، بحيث قامت هذه السنة خلال دورة ربيع2004 والمنظمة بقرية "اركمان" (الناضور)، بتكوين 10 مستفيدين في مجال التخييم، كما قامت المندوبية الإقليمية بمراسلة الجماعات المحلية في موضوع الاصطياف قصد تحديد عدد الراغبين في الاستفادة من هذا النشاط الترفيهي والتربوي، إلا أن المندوبية لم تتوصل بأية رسالة جوابية من الجماعات المتواجدة بالإقليم، وهذا ما يؤكد غياب فلسفة التخييم بالمنطقة، يقول المندوب الإقليمي للشباب والرياضة، بالرغم من تحديد قيمة رمزية كواجب للاستفادة من النشاط التخييمي، إذ تصل في بعض الأحيان إلى المجانية، ومع ذلك يظل الإقبال على هذا النشاط جد ضئيل. وهذا ما يحتاج إلى عمل جماعي تشترك فيه مؤسسات المجتمع المدني وكتابة الدولة في الشباب والرياضة لتحفيز أبناء المنطقة وإقناع آبائهم بالدور التربوي والثقافي الذي تلعبه المخيمات الصيفية. وعن المخيمات الصيفية الأخرى التي تنظمها قطاعات مهنية مختلفة، يقول المندوب الإقليمي: "إن دورنا في هذا الجانب يتعلق فقط بالسهر على التفتيش التربوي وتتبع جميع المخيمات المنظمة بالإقليم سواء التابع منها للقطاع الخاص أو الشبه العمومي أو العمومي».

اللقاء: محمد بوطسغونت

محور: كلايريس - طوريس - بادس:



بين الإهمال والتأهيل المؤجل

■ عبد المجيد السخيري

1- تقديم عام:

بالرغم من أن الساحل المتوسطي عموما، والأوسط منه على الخصوص ، لا يزال يتوفر على موارد ومؤهلات طبيعية هائلة ومتنوعة، فإن ما سجلته بعض الدراسات المنجزة في إطار التقييم القبلي لإمكانيات وشروط النهوض بالمجال السياحي، هو التدهور المتزايد للمواد الحيوية والمقومات العميقة التي كانت تبوئ الساحل المتوسطي، قبل ثلاثة عقود على الأقل، دور المحور الأساسي للنشاط السياحي على الصعيد الوطني. وفي قلب هذا المحور الكبير الممتد من تطوان إلى الحسيمة على مساحة 1471 كلم2، يتواجد أحد أهم المحاور السياحية المتوسطية، والذي يغطي ثلاثة مواقع شاطئية هي: كلايريس - طوريس، بادس؛ بكل خصوصياتها المحلية الطبيعية والثقافية والجغرافية وجمالها الساحر الذي ، بطابعه المتوحش والمتنوع، استقطب انظار السياح الأجانب على مر السنين، قبل أن يشهد تراجعا ملحوظا في العقدين الأخيرين نتيجة الخراب الذي طال المجال الطبيعي المحيط بالشواطئ، وتآكل المسالك الطرقية المعبدة المؤدية إليها. إن هذا المحور وحده يكفي لتجسيد المفارقة المشار إليها أعلاه، والتي تحولت مع مرور الوقت إلى نكسة حقيقية، أعادت الساحل المتوسطي في مجموعه سنين إلى الوراء، في حين علقت فيه الكثير من الآمال على السياحة المتوسطية للعب دور الرافعة الأساسية إلى جانب قطاع الصيد البحري، للنهوض باقتصاد المنطقة بل وبالاقتصاد الوطني، بالنظر إلى ما تزخر به السواحل المتوسطية من موارد ومنتوجات ذات الجودة ، تعد أساسية لإطلاق مشاريع سياحية ذات تنافسية قادرة على ولوج السوق السياحي المتوسطي إلى جانب مثيلاتها بالدول المتوسطية لجنوب أوروبا، خاصة تلك المتواجدة بالبلد الجار للمغرب"إسبانيا".

وإذا ما اقتصرنا هنا على الحديث عن محور كلايريس، سنجد أنفسنا أمام مفارقة محزنة ومخيبة، هي في النهاية ثمرة سياسة بلهاء إن لم نقل انتقامية على خلفية حسابات سياسية وشخصية، مورست بإمعان فجعلت من شواطئ كلايريس ، طوريس وبادس، مواقع انطلاق أنشطة تهريب المخدرات والبشر في اتجاه الضفة الأخرى، بدلا من أن تجعل منها مناطق استقطاب السياح ومراكز التنمية الاقتصادية ومصدرا لرزق ساكنة المنطقة. وإن الواحد منا ليشعر بالمرارة عندما يتوقف عند رؤية مواقع شاطئية مميزة بامتدادها وانفتاحها على فضاءات طبيعية جميلة، تتشكل أساسا من الجبال المحيطة بالسواحل والمكسوة بغطاء نباتي وغابوي يضفي عليها جمالية استثنائية وصوربانورامية أصيلة لم تخضع بعد للتدخل"الصناعي". لكن في الوقت نفسه-وهذا بالنسبة للذين سبق لهم أن تعرفوا على هذه المواقع قبل عقدين على الأقل- يشعر بالصدمة وهو يكتشف التراجع الخطير الذي أصاب النسيج الغابوي المحيط بالشواطئ المذكورة نتيجة تصاعد أنشطة غير شرعية أتت على مساحات هامة من الغابات، لا يزال بعضها مستمرا إلى يومنا هذا، في غياب تدخل ناجع للأطراف ذات الصلة بالحفاظ على الملك العمومي، على الأقل لترشيد وعقلنة استغلاله، إذا كان من المستبعد توقيفه بصفة نهائية في غياب بدائل اقتصادية تساعد السكان على التخلي عن بعض الأنشطة المضرة بالمحيط البيئي. وأنه لمن شأن تحمل السلطات العمومية لمسؤولياتها في هذا النطاق أن يسهم في انتسار الوعي بدور المحيط الإيكولوجي ومكانته البالغة الأهمية على مستوى تطوير المنتوج السياحي المحلي، كدعامة أساسية للاقتصاد المحلي للمنطقة، شديد الارتهان للبحر المتوسط..

لكننا نعتقد أن أي خطوة إيجابية في هذا الاتجاه، لايمكنها أن تثمر نتائج ملموسة دون الأخذ بعين الإعتبار دور الساكنة في المساهمة المباشرة في تنفيذ كل المشاريع المزمع انجازها بهذا المحور، وكذا الأخذ باقتراحاتها عند التخطيط ومراعاة خصوصياتها الثقافية ونمط عيشها وأشكال التنظيم الاجتماعي السائدة، حتى لا تكون السياحة بديلة لكينونتها التاريخية وعلى حساب قيمها وتقاليدها المتجذرة في التاريخ ، إنما أيضا يتوقف نجاح مشاريع المستقبل على محاسبة كل أولئك الذين شجعوا بالصمت أو بالتواطؤ على انتشار النشاطات التخريبية التي أضرت بالمجال الغابوي واستفادوا من عائداتها من المركز السلطوي- الانتخابي النافذ في المنطقة، وعلى راسهم عدد من خدام السلطة والمتعاونين مع مافيا تهريب المخدرات الذين استفاد بعضهم من عملية الترامي على الملك العمومي، خاصة بموقع كلايريس وبادس.

ويبقى أن نشير في هذا الإطار كذلك، إلى أن السلطات والجهات المعنية بتنمية محور"كلايريس- طوريس _ بادس" مسؤولة كذلك عن الأضرار التي طالت عددا من المآثر التاريخية والمواقع الأركيولوجية المتواجدة بتراب الجماعات المرتبطة بجغرافية المحور المذكور، والتي من شأنها التدخل العاجل لإبرازها وصيانة المتضرر منها وذلك سيشكل دعامة قوية لتطوير موارد إضافية قصد تعزيز مشاريع السياحة الإيكولوجية والجبلية. ولا نغالي إذا ما قلنا إن بعضا منها يمثل نموذجا سياحيا من الجودة بمكان، إذا ما أحسن استغلاله والحفاظ على قيمته الأثرية والثقافية سيعطي دفعة قوية للنشاط السياحي بهذا المحور الشاسع، ونخص بالذكر منها: الموقع الأركيولوجي لمدينة "بادس"، القصبة الإسماعيلية بسنادة (هذه الأخيرة تعرضت لعملية تشويه شنيعة على إثر تشييد ملعب لكرة القدم بداخلها بقرار من المجلس القروي، والذي أدى إلى إتلاف معالمها الداخلية)، قلعة طوريس وبادس...الخ.

إن هذه المواقع والآثار علاوة على المواقع الطبيعية المتمثلة في الغابات المنتشرة بالجماعات المرتبطة بالمحور، ترشح هذا الأخير لاقلاع سياحي متميز يرتكز بالأساس على تكامل البعدين الشاطئي والإيكولوجي _الجبلي في النشاط السياحي، هذا إذا ما توفرت إرادة حقيقية لرد الاعتبار لمنطقة الريف وفك العزلة عن ساكنتها التي ينبغي أن تجد طريقها إلى الترجمة الفعلية من خلال الاسراع في تنفيذ برامج دعم البنية التحتية والتجهيزات الأساسية على مستوى الشبكة الطرقية واستكمال كهربة القرى والدواوير وربطها بشبكة توزيع الماء الصالح للشرب،هذا بالإضافة إلى إنجاز مشاريع اقتصادية متداخلة مع الأنشطة المحلية(الفلاحة، الصيد البحري..)، مع الأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الجيولوجية للمنطقة التي لا شك غير اكتشافها، في مأساة الزلزال الأخير، الكثير من تصورات وتمثلات ساكنة الريف للمستقبل والحياة.

2-محور كلايريس- طوريس- بادس:
معطيات وأرقام

سنتطرق في هذه الفقرة لأهم المعطيات والأرقام التي كشفت عنها الدراسة التي أعدتها مديرية التخطيط الحضري بوزارة إعداد التراب الوطني والبيئة والإسكان، في إطار مشروع تهيئة الساحل المتوسطي. الدراسة خصت الجزء المتعلق بالمحور الرابع لكلايريس بتفصيل دقيق لأهم المكونات والعناصر التي سيرتكز عليها تصميم إعادة أو بالأحرى هيكلة الموقع السياحي لكلايريس، مقدمة في الوقت نفسه لعدد من الاقتراحات التي ستساعد على تنفيذ المشروع السياحي بهذا المحور في أحسن الظروف، وهي الاقتراحات التي ستقربنا من الآفاق الواعدة لهذا المشروع ، والمردودية الاقتصادية والتنموية التي ينطوي عليها في حال إذا ما وجد طريقه إلى الإنجاز في شروط سليمة هذه المرة وفي آجال معقولة.

- الموقع والبنيات الأساسية:

يقع موقع كلايريس بجماعة بني بوفراح التي تنتمي بدورها إلى الدائرة التي تحمل نفس الإسم، باقليم الحسيمة. والجماعة يحدها البحر الأبيض المتوسط من الشمال، وجماعة اسنادة من الشرق، وجماعة بني جميل من الغرب، ويبلغ تعداد ساكنتها حسب إحصاء سنة 1994 حوالي 10.280 نسمة. تتوزع على مساحة قدرها 142.61 كلم2 بمعدل 72.1 نسمة بالكلم2. فيما يغطي المجال الغابوي مساحة تقدر ب8.800 هكتار، بينما تبلغ المساحة الفلاحية الصالحة للزراعة حوالي 6200 هكتار. وتضم الجماعة أيضا مركزين قرويين هما مركز بني بوفراح المعروف"المرج" ومركز قلعة طوريس الذي يقع على مقربة من المركز الأول بحوالي 10 كلم و4 كلم من شاطئ كلايريس. أما على مستوى الشبكة الاتصالية، فإنه يمكن ولوج الموقع عبر الطريق الجهوية 414 الرابطة بين تطوان والحسيمة، وهي تصل مركز أيت قمرة بكلايريس، وتمر عبر مراكز الرواضي/ اسنادة/ بني بوفراح و طوريس، على طول مساحة تقدر بحوالي 59 كلم. ومن المرتقب أن تعزز الطريق الساحلية ، المزمع الشروع في تنفيذ الشطر الأول الرابط منها بين أجدير والجبهة، الشبكة الطرقية المؤدية أو القريبة من الموقع ، بما ستكون له بالتأكيد أنعكاسات إيجابية عل صعيد التنشيط السياحي لهذا المحور. كما يتوفر موقع كلايريس اليوم على ميناء للصيد البحري، يفترض أن يتم توسيعه وتحديث أسطوله وتطوير خدماته بما يستجيب للانتظارات ، ويوازي التطور الذي سينجم عن إنجاز المشروع السياحي بالمنطقة. وتتحدد المساحة الإجمالية لموقع كلايريس بحوالي 258 هكتار، يطبعها التنوع الطبيعي،وشاطئ جميل برمال خفيفة على مساحة 350 متر، إضافة إلى شاطئ آخر يقع على الجهة الشرقية (880متر) يتطلب إصلاحات هامة لجعله بمستوى جمالية الموقع. فالمركز لا يتوفر حتى الآن سوى على مخيم جماعي واحد بطاقة استيعابية لا تتجاوز 300 خيمة، و20 "شاليها" إضافة إلى مقهى ومطعم لا يستجيبان في الغالب للطلبات في فترة الاصطياف، فيما يظل المركز يفتقر للتجهيزات السوسيو-إقتصادية الأولية من قبيل المدرسة الابتدائية والمركز الصحي والمنطقة السكنية الخاصة بالصيادين مثلا..الخ. أما على مستوى محيط المركز، فإن أهم ما يميزه هو تواجد مناطق ذات أهمية سياحية كبرى داعمة للمشروع السياحي، والتي تنصح الدراسات المنجزة بعين المكان، على أخذها بعين الاعتبار عند أي تخطيط مستقبلي لهيكلة المجال السياحي بهذا المحور ، وهي تشمل ثلاث مناطق أساسية صنفت كمناطق ذات ذات قيمة سياحية: الأولى تتواجد بقلعة طوريس بمساحة تقدر ب27 هكتار، والثانية ب85 هكتار، والثالثة ب69 هك بمجموع (154هك) تقع بكلايريس، وتمتلك كل واحدة منها مقومات طبيعية و إيكولوجية ذات خصوصية كبيرة متفاوتة في الأهمية لكنها إجمالا تغذي الموقع السياحي لهذا المحور بالكثير من المميزات الجمالية، ومنها بالخصوص الجبال المطلة على الساحل والتي تعطي للسائح إمكانية التمتع بمشاهد بانورامية تمتد لرؤية الجزر والميناء والبحر في امتداده البعيد، وهي مشاهد نادرة في الساحل المتوسطي.

إن هذه المواقع والآثار علاوة على المواقع الطبيعية المتمثلة في الغابات المنتشرة بالجماعات المرتبطة بالمحور، ترشح هذا الأخير لإقلاع سياحي متميز يرتكز بالأساس على تكامل البعدين الشاطئي والإيكولوجي _الجبلي في النشاط السياحي، هذا إذا ما توفرت إرادة حقيقية لرد الاعتبار لمنطقة الريف وفك العزلة عن ساكنته

وستمكن هذه المناطق المنشطين السياحيين من إنجاز العمليات الضرورية في إطار التنشيط السياحي للمنطقة. بالنسبة للمناطق السياحية ذات الكثافة المتوسطة، فهي تشمل إثنتين: واحدة تقع على يمين المنتزه للجهة الشرقية للموقع، والأخرى بأعلى قرية الصيادين. أما المنطقة ذات الكثافة الضعيفة فسيتم تهييئها بالجهة الوسطى للموقع، وقد تضمنت الدراسات معطيات رقمية تخص المساحات المقسمة والإجمالية التي ستحتلها هذه المناطق، علاوة على التقديرات الخاصة بتطبيق وتنظيم الاستثمارات في هذا المشروع، سنعود إليها في مناسبة لاحقة.

في الأخير نود الإشارة إلى أن دراسة أخرى أنجزت في نفس الاتجاه، أشرف عليها المهندس محمد الأزماني، بغرض إنشاء قرية للصيادين وقرية سياحية بمنطقة كلايريس. لانتوفر على تاريخ إنجازها ولا الأسباب التي حالت دون العمل بمقترحاتها. وهي صادرة عن وزارة الدولة في الداخلية - عمالة الحسيمة جماعة بني بوفراح. والدراسة تقدم تفاصيل إنجاز المشروع في شكل بيانات وأرقام مفصلة تهم تكلفة المشروع والمساحات التي ستشيد عليها القريتين، علاوة على عدد مناصب الشغل القارة والموسيمية التي سيطلقها المشروع، لايسع المجال هنا للتعرض لها. ونتمنى أن تتاح لنا فرصة العودة إلى تقديمها في شكل أدق مستقبلا.

- مشروع تهيئة محور كلايريس:

بناء على الدراسة المفصلة التي أنجزها مجموعة من المهندسين الحضريين بمديرية التخطيط الحضري، السابقة الذكر، فإنه من المنتظر أن يتم إنجاز مشروع سياحي يأخذ بالاعتبار المعطيات السالفة الذكر في إطار مخطط شامل يغطي المحاور الخمس للساحل المتوسطي الممتد من محور"وادي لاو" إلى غاية الحسيمة مرورا بمحور"اسطيحات"، ومحور "الجبهة" ثم محور كلايريس. ويهدف هذا المشروع من الناحية المبدئية إلى إعطاء مركز كلايريس، إضافة إلى عمقه ومكانته السياحية، تهيئة وإعدادا ترابيين في مستوى مؤهلاته والدور المفترض الذي يلعبه، كمحور مستقبل في المدار الحضري المحاذي للساحل المتوسطي. ومن أجل تأهيله للعب هذا الدور، فإن الدراسة أوصت بعدد من الاقتراحات من قبيل بناء قرية للصيادين حول الميناء الحالي، مجهزة بكل الضروريات والهياكل الخدماتية لجعلها تستجيب لحاجيات الساكنة المدعوة للإقامة بعين المكان. يتلوها إقامة منطقة سياحية في مستوى المؤهلات والموارد التي تزخر بها المنطقة المحيطة بمركز "كلايريس - طوريس - بادس" مع مراعاة المحيط البيئي الذي اعتبرته الدراسة بمثابة رهان أساسي لنجاح المشروع في آفاقه المستقبلية. كما أنه بالنسبة للحفاظ على منتوج سياحي محلي غير منقوص الخصوصية فقد حددت الدراسة، انطلاقا من اعتبارات وعوامل طبوغرافية وجيومورفولوجية، ومستحضرة كذلك ما يتعلق بالتخطيط الحضري في المستقبل وضرورة الحفاظ على المحيط البيئي بالنسبة لمنطقة تعاني أصلا من الهشاشة ومعرضة لمخاطر التعرية والتصحر، عددا من المناطق التي ستدرج في نطاق هيكلة المحور السياحي نذكر منها:

- **منطقة السكنى والتجهيزات الأساسية:** وهي تقع على مقربة من الميناء، بعيدة نسبيا عن المخاطر المرتبطة بالنشاط البحري وأقل تعرضا للتغيرات المناخية والجيومورفولوجية. وستشمل هذه المنطقة أساسا على قرية للصيادين وتجهيزات تحتية وأساسية مثل: المدرسة، المستوصف والإدارة، إضافة إلى أنها ستضم بنايات أخرى.

- **منطقة التنشيط السياحي:** وهي تقع على الجهة المفتوحة مباشرة على جبهة البحر على يمين الطريق الجهوية5205، وتحتضن أساسا بنيات الاستقبال الفندقية وتجهيزات ووسائل التنشيط(المسابح، ملاعب التنس، مطاعم، مقاهي...الخ). كما يرتقب إنشاء منطقة للرياضة في الجهة الأقل عرضة للمخاطر بالمنطقة نفسها لدعم التنشيط السياحي.

- **مناطق سياحية من درجتين:** الأولى بكثافة متوسطة وأخرى بكثافة ضعيفة، مراعاة لطوبوغرافية المجال والتوصيات الجيوتقنية.

LA DECISION DE LA DIRECTION GENERALE DU CLUB MED DE FERMER LE VILLAGE D'AL HOCEIMA DEFRAYE LA CHRONIQUE

■ Habib KABOU

Nous convenons tous sur la morosité qui plane sur l'économie marocaine: le chômage en est l'indicateur le plus significatif et pas des moindres. Cette situation chaotique s'accentue d'une région à une autre; la province d'Al Hoceima, relégué au second rang depuis l'indépendance, en est la plus touchée.Avec son relief montagneux et accidenté, l'agriculture n'est pas de mise, par ailleurs, l'industrie est quasi inexistante, cependant, elle jouit d'une superbe côte balnéaire qui n'a rien a envier aux côtes espagnoles de l'autre rive. Malheureusement faute d'une infrastructure de base, routière surtout, la province n'avait bénéficié d'aucun projet touristique de grande envergure à l'instar des provinces d'Agadir (Projet Azur) Oujda (Saidia). Pourtant la ville d'Al Hoceima avait été dotée d'un complexe touristique de haut standing, lors des années 60, alors que feu Moulay Ahmed Alaoui était ministre du tourisme. Ce joyau qui faisait la fierté de tout marocain coiffé par « Maroc Tourist » recevait des touristes de tous bords; plusieurs activités économiques avaient vu le jour en ce temps. La conjoncture mondiale oblige, le tourisme international avait connu lors des années fin 80 une récession sans précédent.

Le« Maroc Tourist» , au lieu d'encourager le tourisme intérieur tout en s'evertuant à collaborer avec les tours de voyage européennes, s'était contenté de prendre position d'un spectateur inactif, jusqu'à ce que l'Etat Marocain, dans le cadre de la privatisation, avait cédé ce réceptif à une personne tierce profane en matière de tourisme, le résultat ne se faisait pas attendre: la situation de ce joyau laisse aujourd'hui à désirer.

Voilà encore, au moment où l'Etat Marocain s'est assigné une œuvre ambitieuse dont il s'est résolument décidé de faire aboutir à savoir la promotion du tourisme international au Maroc avec l'objectif de drainer 10 million de touristes à l'horizon de l'an 2010, la province d'Al Hoceïma se surprend par la décision de la direction générale du Club Med à fermer son village à Al Hoceima. L'opinion locale ne cesse de s'interroger sur ces calamités qui frappent leur région, visant à y tuer de coup le tourisme, et s'exclament sur l'indifférence de l'Etat Marocain face à ce sinistre.

Le village du Club Med d'Al Hoceima employait 200 employés locaux et contribuait pendant la saison estivale à un épanouissement des activités économiques de la province. Chaque employé avait à sa charge 5 personnes, pire encore, l'âge moyen de ces employés est de 47 ans, chose qui ne leur laisse aucune chance d'épouser une quelconque profession ou d'espérer être embauché ailleurs (contrainte de.l'âge).

Par ailleurs, des milliers de jeunes de la place se débrouillaient tant bien que mal à joindre les deux bouts en offrant leurs différents services aux clients du Club Med (chauffeurs de taxis, garçons de café et restaurant bagagistes).



De surcroît le cataclysme qui avait frappé Al Hoceima le 24/2/2004; n'avait fait qu'_.enliser ces malheureux employés dans la misère totale qui se sont retrouvés du coup sans logis qu'ils avaient construits grâce aux économies greffées difficilement sur leurs salaires au détriment de leur bien être quotidien durant ces dernières décennies.

il est donc impératif que les décideurs politiques se saisissent du problème en engageant des pourparlers sérieux avec les responsables du Club Med pour mieux appréhender de prés les mobiles et contraintes qui étaient à l'origine de cette lourde décision et d'en faire un diagnostic leur permettant d' y impliquer tout un chacun en l'occurrence, l'agence de la promotion et de développement des préfectures et provinces du Nord, l'agence de soutien aux P.M.E, la Royale air Maroc et pourquoi pas solliciter une intervention financière de la communauté Européenne?

Une autre alternative s'avère intéressante dans le cas où la Direction Générale du Club Med décide de se désengager une fois pour toute, à moins que la décision de fermeture n'est qu'un alibi délibéré pour sacrifier l'ensemble du personnel et reprendre les activités par la suite avec une équipe rajeunie, elle consiste à céder le village au groupement de ces employés qualifiés en matière du tourisme qui, avec l'appui financier de l'Etat, procéderont à la réhabilitation du site et y dynamiser l'activité touristique.

Nous en sommes convaincus que s'il y ait volonté politique invitant toutes les institutions précitées à conjuguer leurs efforts, le règlement de ce problème combien épineux, trouverait une issue heureuse pour épargner des milliers de citoyens d'une misère sauvage et rendre le sourire aux visages des petits enfants, vieillards et éviter aux jeunes de la région d'emprunter les pirogues de la mort à la recherche d'une vie meilleure au delà de Gibraltar.

---

trait des touristes Européens qui constituent 2/3 des 150 millions de touristes amoureux de la nature dans le monde.

L'agrotourisme:

A ce propos et pour ne pas dissocier le tourisme des intérêts de l'habitant et ne pas connaître des échecs, il faut un tourisme en équilibre avec l'agriculture. Une agriculture qui remplacerait celle du kif comme le safran par exemple et là où le sol est idoine. La culture de ce colorant existe déjà à Taliouine (province de Taroudant), et l'ingrédient coûte pas moins de 12 000 DH le kg. Ce qui n'est que la moitié de son prix en Espagne et le cinquième aux Etats unis (3). Sa culture sera donc encouragée par son exportation vers l'étranger pour supplanter, ou du mois réduire, la culture du kif. Et sa culture, elle-même, peut- être un atout touristique et un produit agro-touristique commercialisable. On pourrait concevoir des fermes safranières ou des maisons campagnardes aménagées aussi comme des gîtes d'étape (4) et qui accueilleraient les écotouristes. Ceux-ci auront droit à participer aux tâches de sarclage, de la cueillette des fleurs, à la séparation des stigmates, au séchage et au tri du safran. Il existe déjà des safranières dans le Haouz de Marrakech et le Sud mais qui accueillent les touristes en visite guidée seulement. Ces derniers assistent aux différentes tâches et activités en tant que spectateurs et sans y être impliqués.

La dernière étude initiée par le Ministère du Tourisme et financée par le PNUD (Plan des nations unies pour le développement) et l'OMT (Organisation mondiale du tourisme) recommande la complémentarité de plusieurs produits dont le balnéaire, le naturel et le culturel. L'agrotourisme peut donc figurer parmi les produits du tourisme rural pour élargir et diversifier la palette de celui-ci. Ceci en valorisant également des produits comme l'escalade et le canyoning, le ski, la chasse, la randonnée pédestre ou équestre˘etc. Des circuits «verts» dans les parcs de la région doivent également être conçus en vue de développer un écotourisme dans une perspective de tourisme durable dans les zones rurales.

Déduction:

Les projets de tourisme qui réussiraient le mieux dans cette partie du Maroc, seraient tout simplement- comme partout dans le monde- ceux programmés dans un plan beaucoup plus large et globalement pluridimensionnel de développement économique durable. Lequel fera sortir le Rif central de son isolement, qui n'a que trop duré, afin de l'intégrer au tissu économique national et donner aux habitants le sentiment qu'ils ne seront plus oubliés. Le plan d'urgence étalé sur trois ans (5), annoncé en troisième semaine de mars 2004 par le gouvernement et chapeauté par Sa Majesté est un bon début d'autant plus qu'il vise le désenclavement de la région (infrastructures), son développement économique (et donc touristique) et l'amélioration des services à la population (hôpitaux, eau courante et électricité, écoles˘).

(1) La fiche du projet nous est communiquée par la Délégation Provinciale du Ministère du Tourisme à Al Hoceima

(2) Dchar est l'équivalent du douar. ksar ou ighrem selon les régions au Maroc.

(3) Voir une étude non signée, in L'OPINION du 19 novembre 2000. p.3.

(4) Hébergement touristique en montagne, séparé ou non de la maison familiale. Il doit répondre à des normes de confort, d'hygiène et de services pour être autorisé et classé après la construction par une commission interministérielle.

(5) Khalid TRITKI, cinq milliards de DH pour développer la région d'Al Hoceima in La Vie Economique du 19 mars 2004, p.14.

Le tourisme à Al Hoceima:

L'état actuel et la perspective du balnéaire et de l'agrotourisme

Al-Hoceima est nettement moins belle qu'avant. D'abord parce qu'elle est moins propre mais aussi moins blanche qu'autrefois en abandonnant l'habitude de se peindre les murs à la chaux et les portes en bleu comme c'est le cas en Andalousie, au nord de la Tunisie, au Sud de l'Italie et en Grèce. Ce qui est une sorte de perte de son identité et de son authenticité quelque part. Néanmoins, cette petite ville portuaire domine majestueusement la baie de Nkor, du nom du bassin qui domine la baie et de l'oued qui le traverse, en tournant le dos à tout le pays à cause de son enclavement.

Mohamed EL BOUCHHATI

Préambule:

Il se dit beaucoup de choses de façon officielle et non officielle sur le développement des régions du Nord (et donc d'Al Hoceima aussi) pour les faire sortir du sous- développement économique et de l'économie parallèle. Celle-ci est basée, entre autres, sur la contrebande et la culture du kif (chanvre indien) ainsi que sa commercialisation. L'état s'est donc engagé à développer l'infrastructure routière, portuaire et aéroportuaire et à encourager les investissements dans le Nord. Mais tout cela est aussi lent que la tortue disent les habitants.

On parle par exemple de la diversification des ressources économiques; en substituant d'autres cultures à celle du kif, en donnant un intérêt particulier à la pêche et en relançant le tourisme˘etc. Au Nord-ouest, un projet comme celui de Tanger Méditerranée est stratégique pour tout le Maroc et il compte un volet touristique puisque des zones sont prévues pour cette activité. La CDG (Caisse de dépôt et de gestion) s'est engagée à augmenter la capacité de Tanger en hébergement hôtelier. A l'Est, Saïdia fait partie du Plan AZUR qui prévoit la création de six nouvelles stations balnéaires au niveau national pour atteindre, avec d'autres projets, 320 000 lits à l'horizon 2010. La province de Chaouen est retenue pour développer le tourisme de niches en 2004 avec d'autres provinces à l'échelle nationale comme Taounate. Elle figurera dorénavant sur la liste des destinations de tourisme rural comme PATC (Pays d'accueil touristique de Chaouen).

L'état passé et actuel du tourisme à Al Hoceima:

Al Hoceima n'est plus une destination ni pour les touristes internationaux ni pour les nationaux depuis les années mi- quatre vingt-dix, mais seulement celle de ses émigrés en juillet- août de chaque an. Qu'en est–il alors de cette province qui ne figure ni dans le plan Azur ni parmi les priorités chez les organismes de l'état qui développent le tourisme? Et quelle est sa perspective ?

La province a fait partie, comme station balnéaire pilote, du premier plan national pour le développement du tourisme au début des années soixante. Elle était très prisée par le tourisme international. Dans les années quatre-vingts, le tourisme national s'y est ajouté. Et puis, après la crise du golfe, un marasme total s'y est installé pour durer chaque année environ dix mois si l'on excepte l'été, quand les émigrés de la province reviennent passer les vacances au pays. La privatisation, dans les années quatre-vingt dix, des hôtels de Maroc Tourist: Quemado et Mohamed V (4* à l'époque) n'a pas arrangé les choses. L'hôtel Tidghine à Issaguen, le seul grand hôtel qui soit complètement construit en bois au Maroc, est fermé dans cette bourgade qui fut une station hivernale dans les années soixante et la seule au Nord. En 2001, l'hôtel KARIM (2*) ouvert il y a trente ans est fermé. En 2003, le Club Méditerranée d'Al Hoceima, l'un des plus anciens qui fut à une époque le plus important en capacité d'hébergement (1200 lits) au niveau national est fermé lui aussi. L'aéroport d'Al Hoceima n'est plus relié aux villes d'Allemagne et de France depuis plus de vingt ans malgré les demandes incessantes et insistantes des émigrés de la région. Il n'est relié toute l'année qu'à la Hollande et en été à la Belgique. L'aéroport qui devait connaître une extension en septembre 2001 s'est vu privé de ce projet, reporté sine die, à cause des conséquences du 11 septembre dit-on !? On avance la même raison pour l'annulation des lignes aériennes vers Tanger, Tétouan et Casablanca (celles de Rabat et Fès n'existent plus depuis presque quinze ans). Les lignes maritimes qui reliaient cette ville depuis le protectorat à Tanger et Malaga sont annulées au début des années soixante-dix. Les travaux d'extension de ce port, pour accueillir de nouveau des bateaux marchands ou de voyageurs, ont duré des lustres au point qu'on peut les comparer à ceux d'Hercule sur ce point. Quant à la fameuse rocade méditerranéenne (Saidia-Tanger), programmée par le gouvernement d'Abdellah Ibrahim (1959-61), elle était vite renvoyée aux calendes grecques jusqu'aux années quatre vingt- dix.



L'infrastructure et le relancement du tourisme:

A partir de 1992, l'état a commencé peu à peu à reparler du développement économique du Nord du Maroc. On a ainsi relancé le projet de la rocade dont quelques tronçons sont déjà réalisés en 1999-2000 à partir de Saïdia et de Tanger et des chantiers sont en cours entre Nador et Al Hoceima. Le Japon a construit gratuitement un petit port de pêche à Cala Iris (Yellich) à soixante kilomètres environ à l'Ouest d'Al Hoceima. Pourquoi ne le développerait-on pas pour l'exploiter en tourisme aussi? Quant au port de la ville, son extension est quasi finie et il est déjà mis en service, à l'occasion de la visite de Sa Majesté Le Roi Mohamed VI en septembre 2003, et relié à Almeria (Espagne). Il le sera bientôt, dit-on, à Malaga. Mais on ne parle toujours pas de l'extension de l'aéroport de la ville qui, une fois agrandi, ne pourra que mieux désenclaver la région du Rif central. Cela fera le bonheur, en effet, d'une partie des émigrés des provinces limitrophes comme Taza, Nador et éventuellement Chaouen et Taounate en plus de ceux de la province d'Al Hoceima. Il faudra ajouter à cela que des promoteurs locaux et internationaux comptent beaucoup sur ce projet pour développer le secteur touristique dans cette province et le relancer.

A propos du relancement, et malgré la fermeture touchant quelques unités hôtelières, CHAFARINA' S BEACH a vu le jour en mai 2003 sur la plage Tala Youssef à cinq Km à l'ouest de la ville, grâce à des promoteurs de la région dont M. R. EL MORABITE. D'un coût d'environ 22 millions de DH, ce village touristique est d'une capacité de 80 lits (20 bungalows) et présente tous les services et les prestations d'un établissement de première catégorie. Il est doté, entre autres, d'une piscine, un restaurant, un salon de thé, un piano-bar, une salle polyvalente, une autre de mise en forme, une discothèque, des terrains de sport, un espace pour jeux d'enfants˘etc. Et il est question de concevoir dans ce cadre des produits d'animation sportive, culturelle, et artistique. Dans ce sens, des randonnées dans l'arrière-pays encore riche en terme d'écosystème et surtout très beau, figure parmi les projets/ produits de ce village. Il en est de même pour la création d'un petit bateau de croisières. Les mêmes promoteurs ont créé l'agence de voyage CHAFARINAS Tours pour commercialiser leur produit. Et c'est la seule agence sur les six que compte la ville, qui a une activité de tourisme en plus de la billetterie.

Le deuxième grand projet est le village touristique SOUANI, dont les promoteurs sont un consultant italien associé avec MORABEZA VIAGGI °Ï ALIANZ ITALIA, et qui tarde à entamer les travaux. Le terrain retenu pour ce projet se trouve sur la plage Souani sur la baie de Nkor dans la commune d'Ayt Youssef ou Ali à 12 Km environ à l'est de la ville. Le village comprendra deux zones touristiques, l'une de 168 bungalows et l'autre de 290 et 10 villas avec tous les services de restauration, shopping, animation, piscines et terrains de sport. Le coût d'investissement sera de 150 millions de dirhams et créera 660 postes de travail (1). Avec le relancement de l'activité du port d'Al Hoceima après son extension, la société HOLDING TRANS-MAROC de Négoce- Action a vu le jour pour mettre à la disposition des voyageurs un bateau sur la ligne Al Hoceima- Malaga. Et la même société projette de réaliser la résidence Abdelkrim Khattabi sur la plage d'Isly (Espalmadero) à quatre Km à l'est de la ville. Le projet comprendra 46 bungalows, deux hôtels de trois étoiles et 24 résidences.

Le désenclavement et le tourisme balnéaire:

On parle également de projets touristiques à Torres et Cala Iris˘à 60km environ à l'ouest de la ville. Mais ce qu'il faudrait surtout à cette province et de façon urgente c'est le désenclavement par l'amélioration de beaucoup de routes provinciales et régionales et la création d'autres complètement nouvelles. Il faudra par exemple agrandir la secondaire 604 entre Imzouren et Tafarsite par Krona, et la continuer de ce dernier point jusqu'à Azghenghane à l'ouest de Nador. De même qu'il faudra relancer le projet de la route Targuist (70 Km au sud-ouest d'Al Hoceima)- Taounate. Un réseau routier bien entretenu et de bonne qualité, va certainement pousser les habitants à se redéployer sur les axes routiers intérieurs et côtiers (la rocade) qui favoriseront sans aucun doute la naissance de nouveaux centres urbains. Car le dchar (2) rifain tel qu'il est actuellement est une bourgade formée de cent maisons (en moyenne) parsemées et qui entrave ou rend coûteux les projets de routes, d'électrification et autres. La rocade va plus particulièrement relancer la pêche et le tourisme balnéaire en mettant en valeur des parties de la côte inaccessible jusqu'alors. Et on connaît le potentiel du balnéaire par les dizaines de kilomètres des belles et nombreuses plages encore inexploitées pour ne pas dire entièrement vierges. Le manque de toutes les infrastructures étant terrible sauf pour trois ou quatre plages. Mais en matière de tourisme et selon les études récentes et la tendance mondiale à ce propos, il faut joindre la culture ou la nature (ou les deux) à ce produit classique qu'est le balnéaire. En effet, on parle maintenant de balnéaire intelligent. Relancer et développer l'artisanat du monde rural comme la tapisserie et la poterie, disparue ou en voie de l'être, ne ferait pas un mauvais produit culturel. On y ajoutera les sites riches en histoire comme Anoual, El Mazemma, la kasba des Mérinides à Snada...etc. Et dans le même sens, l'arrière pays sera d'une grande utilité en matière de nature avec sa faune et sa flore. Et pour la ville d'Al Hoceima, il est tout aussi important qu'indispensable de mener à sa fin le parc naturel de cette ville dont la naissance césarienne dure depuis dix ans. Il va jouer un rôle avec le parc de Talassemtane (province de Chaouen) et celui de Tazekka (province de Taza) dans l'at-

المزابل العمومية بالحسيمة

طرق لاعقلانية وغير قانونية للتخلص من النفايات

أمام الوضعية التي توجد عليها كل المزابل العمومية بإقليم الحسيمة لا يحتاج المرء أن يكون خبيرا في شؤون البيئة لكي يستنتج أن الطرق المتبعة للتخلص من النفايات المنزلية الصلبة لا عقلانية و غير قانونية .بحيث أنه بعد أربع سنوات من دق ناقوس الخطر من طرف لجنة البيئة بالجمعية المغربية لحقوق الإنسان/ فرع الحسيمة. وإرسال هذا التقرير إلى كل الجهات المعنية بهذا الموضوع توج بنشره في التقرير السنوي للجمعية (سنة 2000) و بعد أكثر من ثلاث سنوات من التزام وزارة البيئة في شخص كاتبها العام إنجاز دراسة لتحديد موقع جديد للمزبلة العمومية لسيدي عابد.أخيرا و في شهر فبراير 2004كلف مكتب الدراسات Phenixia-Burgeapمن طرف كتابة الدولة المكلفة بالبيئة التابعة لوزارة إعداد التراب الوطني و الماء و البيئة بإنجاز دراسة لاختيار موقع إقامة مكب مراقب للنفايات المنزلية للحسيمة و الجماعات المجاورة(إمزورن، بني بوعياش،آيت يوسف وعلي، إزمورن) .

■ حكيم مسعودي

تتضمن الدراسة الأولى تشخيصا للوضعية الحالية لتدبير النفايات المنزلية و طبيعة هذه النفايات ونسب مختلف مكوناتها و للإشارة فقد تم الاعتماد على النتائج المتوصل إليها من طرف لجنة البيئة بالجمعية المغربية لحقوق الإنسان فيما يخص نسب المكونات.كما تضمنت الدراسة تقديرات كمية للكمية الإجمالية للنفايات المنتجة في أفق سنة 2025و هو العمر الافتراضي للمكب المراقب المزمع إنجازه.

لا تخلو هذه الدراسة من معطيات هامة مستقاة من الإحصائيات الرسمية، لكن الأرقام المقدمة فيما يخص كمية النفايات المنتجة أقل من ما يتم إنتاجه فعلا. فعلى سبيل المثال قدرت كمية النفايات المنزلية بالنسبة للجماعة الحضرية للحسيمة ب42 طن في اليوم اعتمادا على المعطيات المقدمة من طرف الجماعة ،بينما الكمية الحقيقية المنتجة حسب القياسات التقديرية التي أجريناها هي حوالي 70طن في اليوم، كما أن كمية النفايات المنتجة في الصيف أكثر بكثير مما تم تقديره من طرف هذه الدراسة ((52طنا في اليوم) خصوصا إذا علمنا أن ساكنة الحسيمة تتضاعف مرتين على الأقل انطلاقا من يوليوز إلى منتصف غشت نتيجة الوافدين إليها من أبنائها المقيمين بالخارج أو الزوار من أجل السياحة، كما أن استهلاك الفواكه الصيفية يعرف ارتفاعا كبيرا. حسب تقديراتنا التي اعتمدت على قياسات ميدانية تبين لنا أن الكمية كمية النفايات المنتجة في فصل الصيف لا تقل عن 100 طنا في اليوم بالنسبة للجماعة الحضرية للحسيمة فقط كما لا يجب إغفال كون نسبة النفايات الملتقطة من طرف مصالح البلدية إلى حدود سنة 2003، لا تتجاوز 70%من مجموع النفايات المنزلية الصلبة المنتجة ، لتبقى 30%ملقاة في مختلف هوامش المدينة لتشكل نقطا سوداء.

اعتمادا على الدراسة التشخيصية الأولي أنجز مكتب الدراسات السابق ذكره دراسة ثانية، صنفت فيها المواقع المقترحة اعتمادا على مجموعة من المعايير المطلوب توفرها في الموقع الذي سيصبح مزبلة عمومية مشتركة بين أربع جماعات هي: الحسيمة، آيت يوسف و علي،إمزورن وبني بوعياش بعد اعتراض الجماعة القروية لإزمورن على المشاركة في هذا المشروع وبالتالي اعتراضها على إنشاء هذه المزبلة على ترابها، و فيما يلي أهم المعايير المعتمدة لتحديد الموقع الأكثر ملائمة لكي تقام فيه المزبلة المشتركة:

التأثير على السكان:

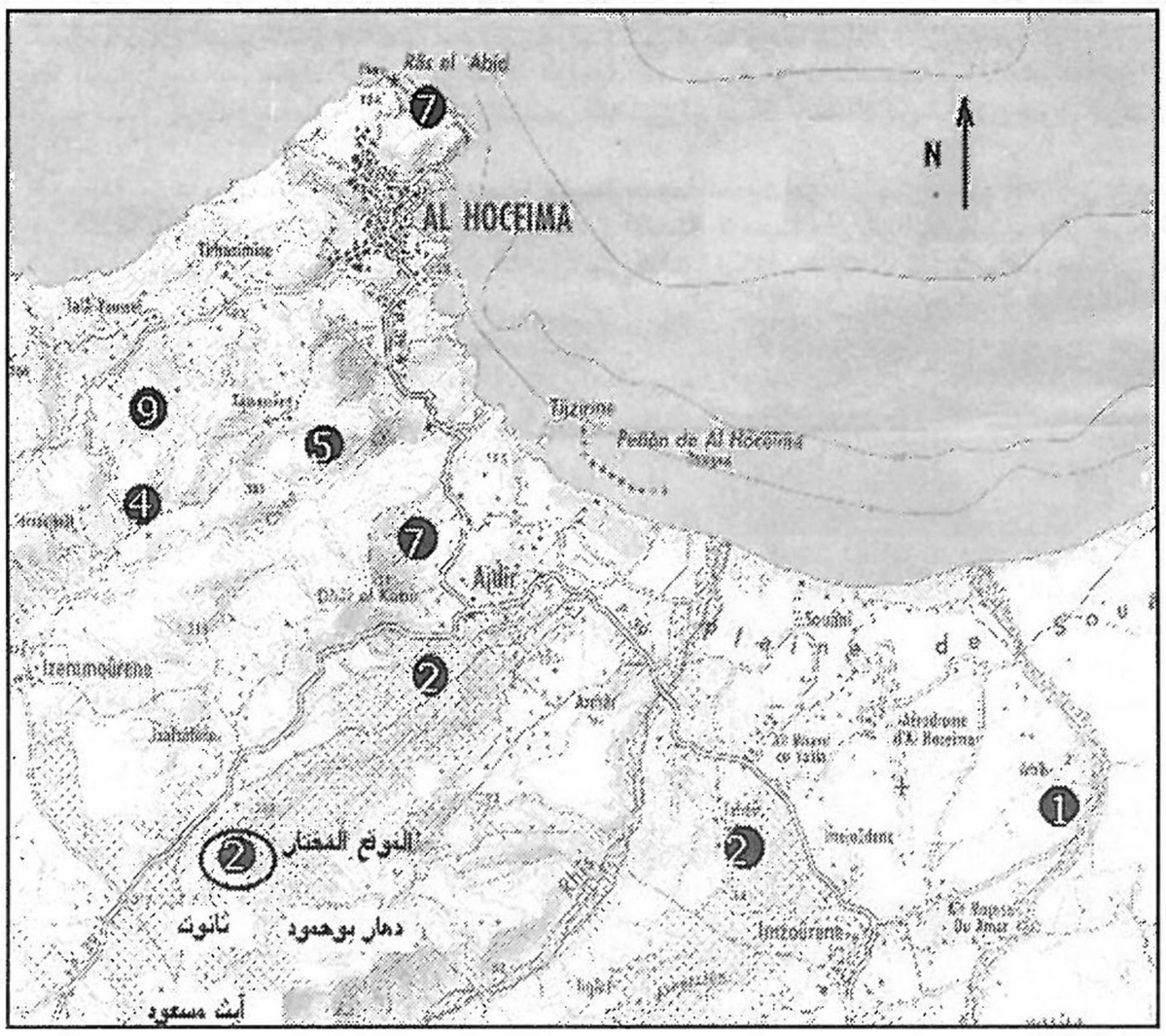
- بعد المزبلة، بحيث يعتبر موقعا ملائما جدا كل مكان بعيد عن الأنظار وعن المساكن بمسافة تتجاوز 1كيلومتر.
- بعد الطريق المؤدية إلى المزبلة عن المساكن،بحيث تعتبر جيدة جدا كل طريق لا تحاذيها مساكن و بدون تأثيرات سمعية أو بصرية للشاحنات التي تتكلف بنقل الأزبال.
- بعد المزبلة عن المواقع ذات الأهمية السياحية.

التأثير على البيئة:

- المياه السطحية: يعتبر الموقع ملائما جدا في حالة عدم توفره على شبكة مائية أو تصريف للمياه. - الفرشة المائية: يعتبر الموقع مناسبا في حالة توفره على أراضي طينية غير نفوذة للماء و غياب فرشة مائية، مثلما هو الحال بالنسبة للحتيت Les flyschsوهي عبارة عن أراضي رسوبية ذات أصل حتاتي و مكونة غالبا من الطين و الرمل (طين رملي).
- مناطق ذات أهمية بيئية: خير المواقع هي التي تعرضت للتلف نتيجة وجود نشاط صناعي مثلا، بينما أقل المواقع ملائمة هي التي توجد قرب المناطق الحساسة بيئيا.(غابة، شاطئ...)

التأثيرات المالية:

- سهولة اقتناء الأراضي: تفضل الأراضي ذات المالك الواحد على حساب الأراضي المجزأة و ذات القيمة العقارية المرتفعة.



ترتيب وتصنيف المواقع المقترحة لإقامة مزبلة عمومية مراقبة (تدل الأرقام على التصنيف حسب استجابة الموقع للمعايير المحددة)

- سهولة ترتيب مخازن النفايات وإمكانية استعمال المواد المأخوذة من نفس الموقع(كالطين)، و في هذا الإطار تفضل الأراضي السهلة التفتت على حساب الأراضي الصخرية المتماسكة .
- سهولة الوصول إلى المزبلة:يكون الموقع ملائما جدا عندما تكون المسافة الفاصلة بينه و بين الطريق المعبدة المؤدية إليه أقل من نصف كيلومتر، مع الأخذ بعين الاعتبار لسهولة شق الطريق.

اعتمادا على المعايير السالفة الذكر تم ترتيب مجموعة من المواقع المقترحة لتنشأ بها مزبلة عمومية مراقبة.وتبين الخريطة المرفقة المواقع التي شملتها الدراسة و التي تم تصنيفها و ترتيبها حسب ملاءمتها للمعايير المحددة سابقا. وبناءا على نتائج هذا التصنيف تبين أن جماعة آيت يوسف وعلي تتوفر على أربع مواقع مصنفة من بين الأوائل وحسب علمنا من خلال اتصالنا ببعض أعضاء هذه الجماعة فإنه لم يتم الموافقة على الموقع المصنف في الدرجة الأولى الموجود بمحجرة بجوار المنطقة الصناعية ولا على الموقع الثاني من حيث التصنيف المقترح بهضبة سيدي بوعفيف جنوب دوار ثفراست لكن الجماعة أبدت موافقتها على الموقع المتواجد بدهار بوحمود قرب إزفزافن و بمحاذاة الطريق الرابطة بين الحسيمة و تطوان (Rp39) حسب هذه الدراسة فان هذا الموقع يتوفر على أراضي ملائمة من حيث مكوناتها (حتيت (Flyschsذات طبيعة طينية و غير نفوذة للماء.كما أن غياب فرشة مائية وقربه من الطريقة الرئيسة RP39و من شبكات الربط الكهربائي و المائي و الهاتفي هي من مزايا هذا الموقع لكنه يمكن تسجيل عدة سلبيات لا تخلو من أهمية أيضا وهي أن هذا الموقع يرى خصوصا من الطريق الساحلية المزمع إنشائها وكذلك انطلاقا من المنازل الموجودة بقمم كل من دوار ثانوت و آيث مسعود. وإن كانت الدراسة تقترح مجموعة من الإجراءات للحد من التأثير البصري للمزبلة و ذلك بإقامة جدران عازلة و حاجز شجري.فإن عدة سلبيات أخرى لا يجب أن يستهان بها نظرا لقرب الموقع من المركز الآهل بالسكان لأجدير(على بعد (5كيلومتر) و الأهم من ذلك هو أن الأراضي مزروعة بأشجار اللوز و تعود ملكيتها للخواص و هي بالتالي ستكون مجزأة إلى قطع صغيرة.مما سيعقد من إجراءات اقتنائها وبالتالي سيأخر إن لم يمنع إخراج هذا المشروع إلى الوجود.

رغم كون هذه الدراسة جاءت متأخرة لتسد الفراغ الذي ظل يغمر مجال تدبير النفايات الصلبة في الإقليم، نعتقد أن تفعيل المقترحات التي أتت بها هذه الدراسة سيتأخر أكثر بدون شك، و هي ليست نظرة تشاؤمية، بل العكس من ذلك تماما ،إذ نتمنى أن يتم الشروع في التنفيذ و الإنجاز في أسرع وقت،إذ أن معاناة السكان من المزابل الحالية في تزايد مستمر(صحية، نفسية، جمالية...) كما أن الخسائر الاقتصادية الناتجة عن سوء تدبير النفايات الصلبة لا يمكن حصرها(السياحة، صيد الأسماك...) إضافة إلى كون التأثيرات المخربة والهدامة للبيئة تتم بشكل لا رجعي. ثم لا يجب أن نعتقد أن إنشاء مكب مراقب سيمتلأ بعد عشرين سنة هو من سيعمل على حل جميع المشاكل المرتبطة بهذا القطاع، لهذا يجب ايلاء الأهمية و العناية الكافية لتربية الأجيال التي ستعمل على إنتاج قدر أقل من النفايات بتغييرات بسيطة في سلوكاتها الاستهلاكية وفي هذا الصدد فإن المشاريع التي تتقدم بها بعض الجمعيات المحسوبة على البيئية نظرا لعدم شموليتها و طابعها المحدود لن تعوض أبدا ما يمكن أن يقوم به النظام التعليمي من خلال إدماج المدرسة أو بالضبط التلميذ في محيطه عبر البرامج الجهوية و المحلية حتى يكون عضوا فاعلا في تنمية منطقته و في الحفاظ على مواردها الطبيعية.

كمية النفايات المنتجة في فصل الصيف لا تقل عن 100 طنا في اليوم بالنسبة للجماعة الحضرية للحسيمة فقط، كما لا يجب إغفال كون نسبة النفايات الملتقطة من طرف مصالح البلدية إلى حدود سنة 2003، لا تتجاوز 70%من مجموع النفايات المنزلية الصلبة المنتجة ، لتبقى 30% ملقاة في مختلف هوامش المدينة لتشكل نقطا سوداء.

«عبد الكريم الخطابي: تاريخ محاصر في ذاكرة مغيّبة» مشروع كتاب ل:ذ.علي الادريسي:

الجمهورية الريفية..مسار أسرة الخطابي في المنفى.. مصادر معاشها وعلاقاتها مع الجهات الرسمية في المغرب

هذا الحوار

حين تجلس إلى الأستاذ علي الإدريسي، فأنت تكون في حضرة شيخ جليل في علم الكلام، ليس علم الكلام كفرع من فروع الفكر الإسلامي الذي هو أحد المتخصصين المتميزين في دراسة متونه المتشعبة، بل المقصود هو الفصاحة وروح الديبلوماسية (امتهنها لفترة من الوقت) التي عرَّفها وينستون شرشل ذات مرة ب : «أن تعرف متى تصمت ومتى تتكلم». ولعل الجالس بصحبته لا يراوده أدنى شك في مدى تمثله لهذا المبدأ واعتماده كسلوك أساسي في حياته اليومية. أما الأجمل في هذه الشخصية المحاوَرَة، فهو الأريج الريفي الأصيل الذي ينبعث وهجا من رماد كلماته المبحوحة عن ذكريات طفولته المشاكسة بجبال الريف الشامخة. إذ لا يمكنك الجلوس إليه دون أن يسألك ويحدثك عن أحوال وأهوال الريف وأبنائه وذاكرته وتاريخه، فينتابك العجب من قوة ذاكرته وشدة حماسته.

لذلك، فحقيقة هذا الحوار لا تقع بعيدا عن هذه الأجواء، وفي لحظة ما وجدنا أنفسنا بصدد الحديث عن شخصية سعيد الخطابي (ابن مولاي موحند) ليعرج نحو الحديث عن الإبنة عائشة، ثم الأبناء الآخرين. كان دوري يتمثل في التقاط أكبر عدد من المعلومات بطرح أكبر عدد من الأسئلة، لا سيما وأن تلك المعلومات بدت لي في غالبيتها جديدة بالنسبة إلي على الأقل. لهذا السبب، فإن الاستزادة في الحديث أرغمته على الاعتراف لي بأنه بصدد وضع لمساته الأخيرة على مشروع كتاب – يتناول كل تلك القضايا التي تطرقنا لها – تحت عنوان: «عبد الكريم الخطابي: تاريخ محاصَر في ذاكرة مُغَيَّبة»، سيكون بيد الناشر في غضون السنة الجارية. فما كان علي إلا أن أصر أكثر على ضرورة اطلاع قراء تيفراز الأعزاء على بعض العناوين البارزة في هذا الكتاب على الأقل. محاججا على هذه الضرورة بالأهمية القصوى للموضوع... وما إلى ذلك.

ثم أخيرا، تفَهَّمَ عطشنا، فاتفق معنا على صيغة هذا الحوار.. لكن بعد أن نحى قبعته جانبا وفرك رأسه، وكأن حسه الديبلوماسي قد خانه هذه المرة، متأوها ومتفوها:لقد نسيت أني برفقة صحافي... ولكن لا بأس، فأنا أحب جريدتكم وأقدر عملكم!؟».

فيما يلي بعض الملامح الأساسية لهذا الحوار... لنقرأ!

علمت أنك بصدد الانتهاء من مشروع كتاب عن الأمير عبد الكريم الخطابي، فهل يمكن لك ان تخبر قراء "تيفراز نريف" عن أهم محاور هذا المشروع و ما الجديد فيه؟

ج:في الحقيقة هناك محور رئيس في مشروع هذا الكتاب ألا و هو كسر الحصار المضروب على شخصية الأمير عبد الكريم الخطابي من أجل صيانة الذاكرة الوطنية و إسترجاعها من غياهب النسيان الذي عمل البعض على تكريسه كثقافة مغربية، و نقد بعض التصورات و الأحكام التي حاول البعض تكوينها عن شخصية الخطابي من أمثال جرمان عياش، و إبراز دور الخطابي المغاربي و العلاقات التي ربطته بقادة و شخصيات الحركات الوطنية المغاربية.

أما الجديد في مشروع هذا الكتاب، في نظري، فيتمثل في طرح مسألة الجمهورية التي أعلنها عبد الكريم من جميع حيثياتها و دواعيها في الإبان، حين كانت السلطة المركزية مكبلة بأغلال معاهدة الحماية لسنة 1912.

و يتناول المشروع موضوعا أهم، كثيرا ما يمر عليه الكتاب و المؤرخون مرور البخلاء، ألا و هو مسار أسرة محمد بن عبد الكريم الخطابي، منذ أن غادرت المغرب إلى منفاها في جزيرة لارينيون سنة 1926، ثم إقامتها في مصر، بعد أن لجأ الخطابي إليها سنة 1947 و مصادر معاشها ووضعها الاجتماعي و ما ربطها من علاقات مع الجهات الرسمية في المغرب، و في مصر، و مع العالم العربي و الإسلامي إلى اليوم.

س:لماذا تعتبر أن الحديث عن أسرة الأمير الخطابي الآن حديثا هاما؟

ج:أولا إن هذه الأسرة، بصفتها جزءا من مسار حياة الخطابي نفسها،لم تلق العناية الضرورية من قبل الباحثين و المهتمين،بمعنى كيف واجهت هذه الأسرة واقعها الجديد في منفاها الأول بجزيرة لارينيون، أو في منفاها الثاني في القاهرة، و ماذا كان دور عبد الكريم في توجيه حياة اسرته ثقافيا و اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا.

ثانيا، إن الحديث عن أسرة الخطابي سيزيح الكثير من الغموض و الأوهام التي لفت ظروف هذه العائلة ووسائل عيشها، وسيحاول إبراز العلاقة التي ربطت أسرة عبد الكريم، قبل و بعد وفاته بالسلطة المركزية بصفة خاصة.

وثالثا، التمييز بين الواقع و الخيال فيما يحكيه الناس، أو يشار إليه كتابة من قبل البعض عن هذه الأسرة.

وهكذا نرى إن اطلاع الناس على مسار حياة أسرة الخطابي هو بمثابة ترجمة لجزء مغمور من حياة هذه الشخصية التاريخية،التي طبعت، ولاتزال، حياة أجيال و أجيال إلى اليوم، ليس في المغرب فقط، بل في العالم كله.



محمد عبد الكريم الخطابي على اليمين وأخيه امحمد على متن باخرة عبدة في الطريق الى منفاه نحو جزيرة لارينيون (1926)

فنحن نتذكر على سبيل المثال، الترتيب الذي حصل عليه في إستفتاء نظمته مجلة جون أفريك في مستهل القرن الجديد، حيث جاء تصنيفه الرابع عشر(14) من بين (100)شخصية إفريقية كانت محل إستفتاء، وسيساعد= هذا الإطلاع- كذلك على تجاوز تلك النظرة النمطية لشخصية الخطابي المنحصرة في العمليات الحربية لسنوات 1921و 1926، والتي حاول البعض ترسيخها في الأذهان كطبيعة ثقافية ثابتة، ليس فقط عند عبد الكريم، بل عند الريفيين جميعا، و كأن ليس في حياة الرجل شيئ آخر غير تلك الحرب...

س:فعلا،و أنت تتحدث عن المنفى و القاهرة و الصورة النمطية عن الريف و عن عبد الكريم، أحسست و أدركت كم من المعلومات و الحقائق غائبة عن أسرة عبد الكريم في ثقافة المغاربة لأن جل الحديث يتم عن عبد الكريم المحارب المجرد عن كل واقع معيش، فهلا تفضلت بإيفاء قراء الجريدة بما لديك حول الموضوع؟

ج:إن إيفاء الموضوع يمكن أن يكون ضمن صفحات مشروع الكتاب الذي سيخرج الى الوجود، إن شاء الله،أواخر هذه السنة، لكني أبادر بالقول:

إن محمد بن عبد الكريم الخطابي لم يتزوج إلا بعد أن عزم على تولي قيادة الحركة ضد إسبانيا، عقب وفاة والده سنة 1920، لأن التقاليد الإسلامية و الثقافة الأمازيغية لا تسمح لصاحبها لا بالقيادة، ولا حتى بالتصويت على القرارات الحاسمة إن لم يكن متزوجا، أي متحملا مسؤولية أسرة، وحين تزوج كان قد بلغ من العمر 38 سنة، و هذا أمر إستثنائي في الريف و في كل المغرب آنذاك، و بخاصة في العائلات الميسورة، لكن بالنسبة لعبد الكريم يمكن أن يفسر تأخر زواجه بالإنشغالات و الأولويات التي كانت تستحوذ على قلبه و عقله، و الزواج لم يكن من بين تلك الأولويات،حسب المعطيات المتوافرة لدينا عن تلك الفترة، حيث كان مصير المغرب يتقرر بين الدول الإستعمارية و سماسرتها في الداخل، و بين عجز المخزن عن السير في الإتجاه الصحيح.

تزوج عبد الكريم، إذن، سنة 1920 من أسرة بوجيبار من آجدير، و في سنة 1921 إزداد له إبنه البكر عبد الكريم، الذي توفي في القاهرة سنة 1984 و هو الوحيد من أبنائه الذي لم يسبق له أن زار المغرب، و لا يزال منفيا ميتا كما كان حيا إلى جانب والده بمقابر الشهداء في القاهرة، و ترك إبنة واحدة اسمها رانية مقيمة في مصر.

وفي سنة 1924 ولد له عبد المنعم الشهير ب "عبده" تقديرا من والده للشيخ محمد عبده و توفي في أوائل التسعينيات من القرن المنصرم في القاهرة و فيها دفن إلى جانب والده و أخيه عبد الكريم و هو لم يتزوج.

وفي السنة نفسها رأى النور ابنه الثالث عبد السلام من الزوجة الثانية التي تزوج بها سنة 1923 و لم يترك عبد السلام الذي توفي في المغرب أواخر الثمانينات أو أوائل التسعينيات، عقبا، و قد دفن في مقبرة المجاهدين بآجدير الحسيمة.

وفي سنة 1926 إزدان بيت مولاي محند ب"تيموش" او فاطمة شقيقة عبد السلام و توفيت سنة1989 وكانت متزوجة و لها ولدان هما، لامية وعبد الكريم.

و لحظة الوصول إلى جزيرة لارينيون من سنة 1926 ولد ادريس،الذي تتفق جميع الآراء أن سلوكه و مواقفه كانت متطابقة مع مواقف والده و قد توفي في حادثة سير قرب القنيطرة سنة 1979 و دفن في آجدير الحسيمة و ترك ولدان، هشام وياسين.

أما الابن السادس فهو سعيد الذي ولد سنة 1933، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من الذكور، أطال الله عمره، ويقيم في القاهرة،و قد صرح مؤخرا لإحدى الجرائد المغربية بقوله"إن أمر إقامتي بالمغرب بلدي(يثير)بعض الحساسيات، وعندما تزول تلك الحساسيات، أستقر نهائيا في المغرب" وهو يتردد من الحين لآخر على المغرب و يرأس "مؤسسة عبد الكريم الخطابي" التي تعتزم تنظيم ندوة دولية حول لجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مصر بعنوان "الأبعاد و الدلالات الوطنية والدولية" أيام 22-24 يوليوز القادم بالحسيمة، ولسعيد الخطابي ثلاثة أولاد هم عبد الكريم وإيمان وطارق.

وفي سنة 1937 رزق "اميس نسي" عبد الكريم بابنته الثانية"رقية" وهي متزوجة و مقيمة في مصر، ولها ولد وبنت،محمد وياسمين.

وفي سنة 1939 رأت النور الابنة الثالثة، ميمونة، الشهيرة ب"منى" المقيمة في مصر إلى الآن،متزوجة وليس لها عقب.

و في سنة 1940 رزق الخطابي بتوأمين، هما، عبد المحسن ومريم.

إستقر عبد المحسن بالدار البيضاء منذ شبابه، وتوفي في أواسط التسعينيات ودفن في آجديرالحسيمة إلى جانب إدريس و عبد السلام وترك بنتا واحدة اسمها شهد.

أما مريم فهي مقيمة حاليا بالدار البيضاء أيضا بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها و لها إبن واحد، هو أحمد.

و في سنة 1942 إكتمل عقد الأمير بازدياد آخر العنقود عائشة، التي إلتحقت بالمغرب سنة 1964 بعد أن عقد قرانها على ابن خالها الدكتور مصطفى والطريقة التي تدبرت بها معيشها هناك في ذلك المنفى السحيق، وكيف كان وضعها الاجتماعي و المدني. بوجيبار، رحمه الله، ورزقت بثلاثة أولاد هم، خديجة وعبد الكريم ومنير.

س:أقامت أسرة الخطابي ما ينيف عن عشرين سنة في جزيرة لارينيون بالمحيط الهندي، فهل يمكن ان تحدثنا عن الطريقة التي تدبرت بها معيشها هناك في ذلك المنفى السحيق، وكيف كان وضعها الاجتماعي و المدني؟

ج:من المعلوم ان افراد اسرة آل الخطابي،(مولاي موحند+سيدي امحمد+سيدي عبد السلام)مع مرافقيهم كان يتجاوز أربعين(40)نسمة. كان سكنها في البداية باقامة"شاطو مورانج"الذي أعدته لها الحكومة الفرنسية،(صاحبة السلطة في الجزيرة)،قبل ان تشتري في اسم مولاي موحند إقامة أخرى تسمى"كاستل فلوري"وسط مزرعة كبيرة فيها كل انواع الاشجار و الفواكه الاستوائية. وحسب علمي فإن ثمن هذا القصر دفع من الاموال التي إستولت عليها الحكومة الفرنسية بعد إنتهاء الحرب و إستسلام مولاي موحند لفرنسا في ترجيست في شهر مايو 1926.

أما بالنسبة لمصادر عيش الأسرة الخطابية فقد خصصت لها الحكومة الفرنسية معاشا محترما قارا، ومن ثم كانت وضعيتها الإقتصادية جيدة، وفقا لرواية أنجال مولاي موحند. وقد تمكن الخطابي، بحسن تدبيره أن يشتري لاحقا مزرعة كبيرة كان يزرع فيها مختلف الخضر و الفواكه، وأنواع متعددة من الزهور و الورود، وأقام فيها مصنعا لتقطير الورد و الزهر وصناعة العطور.

ومن مردودية تلك المزرعة استطاع الخطابي ان يقتني (07)سبع إقامات في أماكن مختلفة من الجزيرة يلجأ إليها و أسرته حسب تغير المناخ و الفصول. وألتحق الأطفال،بنون و بنات، بالمدارس، ولم يشك أحد من أي تمييز ثقافي أو عنصري إلا ماكان من مشاكسات بينهم و بين التلاميذ غير المسلمين، وخاصة حول العادات الغذائية.

س:على ذكر المدارس، هل تم تسجيل أبناء الخطابي فيها كمغاربة أم كفرنسيين، وهل كانت لهم منح فرنسية، وهل أدى البالغون الخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي كما يشاع، وما هي لغة التخاطب بين أعضاء الأسرة؟

ج: مما هو ثابت أن أبناء مولاي موحند وسيدي امحمد وسيدي عبد السلام سجلوا في المدارس بصفتهم مغاربة، ولم يتمتعوا بأي نوع من أنواع المنح. وكان الرفض مبدئيا ونهائيا للإنتماء للجنسية الفرنسية. فتجربة الأمير عبد القادر الجزائري لم تتكرر مع الأمير عبد الكريم، لأنه لو رغب في ذلك لما حارب الإستعمار، ومن هنا لم يكن موضوع أداء الخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي مطروحا اصلا.

اما اللغة فكانت اللغة الريفية كلغة البيت، واللغة الفرنسية لغة المدارس و الشارع، ولايزال أبناء الخطابي يتحدثون كلهم اللغة الريفية كما كان يتحدث بها قبل 1926.

س: إذا عدنا الى موضوع المزرعة والاقامات، هل نفهم ان عبد الكريم كان حرا في تنقلاته داخل جزيرة لارينيون؟

ج: بل اصبح من كبرائها و أعيانها، يحظى بتقدير المسؤولين الفرنسيين واحترام الجالية الاسلامية في الجزيرة، وكان الجميع يقصده لطلب المشورة والنصح.

س: وحين تقرر نقل الخطابي الى فرنسا ماذا حصل لأملاكه هناك في الجزيرة؟

ج: باع مولاي موحند بعض أملاكه لكنه لم يبع" كاستل فلوري" وحول بعض الاموال الى بنوك فرنسية و ترك الباقي عند رجل اعمال مسلم من الهند إسمه "دنداغ" ليتصرف فيه.

وحين اختار عبد الكريم اللجوء الى القاهرة وهو في طريقه على ظهر سفينة"كاطومبا"الى فرنسا استولت الحكومة الفرنسية على الاموال المودعة في البنوك الفرنسية، كما استولت على كل ممتلكاته الاخرى التي كانت على ظهر الباخرة بما في ذلك رفات والدته، التي أفرج عنها لاحقا و دفنت في مدينة آسفي.

أما الاموال التي كانت في ذمة الرجل المسلم الهندي فقد ضاعت كذلك، لان الرجل ابلغ مولاي موحند انه أفلس.

ولذلك عندما وصلت أسرة عبد الكريم الى مصر امست صفر اليدين، لكنها حظيت بكامل الرعاية من قبل الملك فاروق، ملك مصر في ذلك الوقت.

س: يشاع في بعض الاوساط ان فرنسا خصصت معاشات ثابتة لابناء الخطابي في مصر،بل انها منحتهم الجنسية الفرنسية، هل لديك معلومات حول هذا الموضوع؟

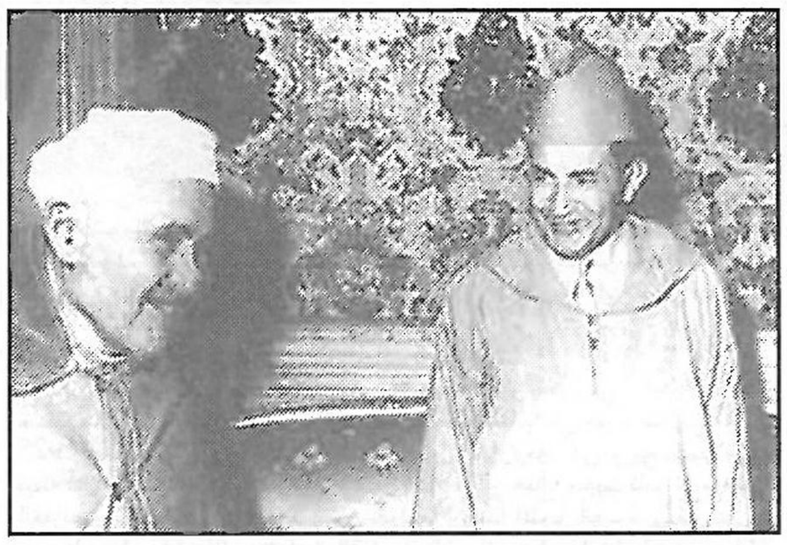
ج: الجواب على سؤالك هذا يكون بطرح سؤال آخر و هو كيف يظن ان عبد الكريم سيقبل عرضا من هذا القبيل رفضه بدون تردد و بكل حزم عندما كان تحت السلطة الفرنسية، ثم هل يعقل ان يفكر عبد الكريم في مثل هذه الاشياء و هو يرأس "لجنة تحرير المغرب العربي" في القاهرة، ويعد لتحرير كل شمال افريقيا من الاستعمار منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر.

س:إذن ما هي مصادر معيشة الاسرة الخطابية في مصر، وهل ساهم المغاربة وبصفة خاصة المخزن او الخليفة السلطاني في تطوان في الانفاق على هذه الاسرة في القاهرة؟

ج: أشرت سابقا الى موقف مصر، في شخص الملك فاروق، الذي استضاف كل الأسرة الخطابية؛ إقامة وعلاجا ثم مخصصات مالية. ففي البداية أنزلت الأسرة في قصر من قصور الحكومة المصرية و أعطيت التعليمات للمستشفيات و المحلات التجارية لعرض خدماتها على كل افراد الاسرة. لكن عبد الكريم رفض رفضا مطلقا ان يقتني هو أو أبناؤه أي شيئ من تلك المحلات باسم القصر الملكي المصري أو باسم أي هيئة او شخص آخر، كما رفض الاقامة في قصره. وبعد اخذ و رد أجرت له فيلا صغيرة في حدائق القبة بخمسة شارع قاسم أمين تتكون من طابق ارضي و طابق علوي و استقر سيدي امحمد وسيدي عبد السلام في الجهة الغربية لنهر النيل أي في دقي الجيزة.

وكان بيت نوم عبد الكريم في الطابق السفلي لا يتجاوز 4 متر، وكان مكتبه ايضا بنفس المساحة. وبعد وفاة عبد الكريم بحوالي 15 عام أعيدت تلك الفيلا الى اصحابها، وفي معمعة الانفتاح الذي قاده الرئيس انور السادات تحولت تلك الفيلا الى عمارتين بدل ان تبقى شهادة مصرية على مساهمتها في العمل التحرري للمغرب ومتحفا لمرحلة الخطابي في مصر، لكن لماذا نطلب او نلوم المصريين على شيئ لم نبادر به نحن في المغرب الى الآن، وتركنا بيته الذي إنبعثت منه الوطنية المغربية الحديثة ليصبح أثرا بعد عين، وأطلالا دارسة.

اما الجانب المالي فقد خصصت الحكومة المصرية لمولاي موحند معاشا ثابتا مقداره "حسب علمي" 500جنيه مصري شهريا و ارسلت السعودية مساعدات كثيرة لكن عبد الكريم لم يكن يتوصل بها كلها لانها كانت تأتي عن طريق"مكتب المغرب العربي" وكان الزعماء المغاربيون يتقاسمون تلك



لأول مرة سيحصل مولاي موحند على معاش مغربي. غير ان مواقف عبد الكريم من الدستور الاول للمغرب لسنة 1962 والذي يتلخص في ان هذا الدستور ليس دستورا تعاقديا بين الحاكم و المحكوم، كما هو معمول به في كل الانظمة الديموقراطية في العالم، بل هو دستور ممنوح يحرم الشعب من أي مراقبة حقيقية او مساءلة الحكومة، ولايخول أي استقلال فعلي على ارض الواقع للمؤسسات السياسية، ادت (أي المواقف) الى الانتقام منه بايقاف ذلك المعاش الذي قرره محمد الخامس.

المساعدات ولم يعلم بها مولاي موحند الا عن طريق التونسي الشهيد الحبيب ثامر الذي جاء يوما ليسلمه مبلغا ماليا، فعرف منه انها أموال سعودية ارسلت اليه و استحوذ عليها زعماء الحركات الوطنية المغاربية في"مكتب المغرب العربي"بالقاهرة.

يذكر ابناء الخطابي ان الجزء الاعظم من المساعدات التي يقدر لها ان تصل الى والدهم كانت توجه الى الطلبة الذين كانوا يقصدون مصر للدراسة، ولتهيئة الظروف لانطلاق جيش تحرير كل البلدان المغاربية تحت اشراف"لجنة تحرير المغرب العربي"التي اسسها في اواخر سنة 1947.

اما المغرب بمنطقتيه السلطانية و الخليفية فلم يثبت ان السلطان او الخليفة في تطوان قد قدما أي مبلغ مالي لمولاي موحند. وهذا عكس ما يشاع هنا وهناك. لكن عند زيارة محمد الخامس للقاهرة سنة 1960 قام بزيارة عبد الكريم في بيته، الذي اشرنا اليه اعلاه، فقدم له عدة هدايا من مثل 50لويزة لكل فرد من ابنائه الذكور و 25 لويزة للبنات، ثم قرر رحمه الله ان يخصص معاشا ثابتا لمولاي موحند مقداره 1000 جنيه مصري شهريا و لاخيه سيدي أمحمد معاشا ب400 جنيه شهريا كذلك. شكر عبد الكريم الملك محمد الخامس على هذه الالتفاتة، ثم كتب في الحين الى كل الدول التي كانت تساعده من حين لآخر شاكرا لها أفضالها مخبرا اياها بأن جلالة الملك محمد الخامس يعفيهم من تلك المساعدات بتخصيص معاش قار له. ولأول مرة سيحصل مولاي موحند على معاش مغربي. غير ان مواقف عبد الكريم من الدستور الاول للمغرب لسنة 1962 والذي يتلخص في ان هذا الدستور ليس دستورا تعاقديا بين الحاكم و المحكوم، كما هو معمول به في كل الانظمة الديموقراطية في العالم، بل هو دستور ممنوح يحرم الشعب من أي مراقبة حقيقية او مساءلة الحكومة، ولايخول أي استقلال فعلي على ارض الواقع للمؤسسات السياسية، ادت (أي المواقف) الى الانتقام منه بايقاف ذلك المعاش الذي قرره محمد الخامس.

ومنذ إيقاف المعاش أواخر سنة 1962 عاشت الأسرة الخطابية وضعا ماليا مزريا. فالمعاش المغربي قد الغي بعد سنتين من تقريره، والمساعدات الأجنبية كانت قد توقفت بطلب من مولاي موحند، كما أشرنا أعلاه، ولم يبق للأسرة، إذن، إلا المعاش المصري المقدر ب 500 جنيه.

وبعد وفاة مولاي موحند في 06 فبراير1963 قرر أفراد الاسرة شكر مصر، والتنازل عن ذلك المعاش لانه كان قد خصص لشخص والدهم، وهنا اشتدت الازمة المعيشية للاسرة.

س: يفهم من قولك ان مايقال عن تخصيص المغرب ميزانية، او كما يقال امتيازات مادية واجتماعية لاسرة الخطابي مجرد كلام...

ج: في حياة الخطابي لم يكن هنالك شيئ آخر غير الذي ذكرت لك أي المخصص الذي قرره الملك محمد الخامس سنة 1960، والغائه في اواخر سنة 1962 عقب انتقاد مولاي موحند للدستور. ولم يكن هنالك أي امتيازات اجتماعية فحتى ارملة مولاي موحند لم يفكر احد من المسؤولين في منحها جواز سفر دبلوماسي، مثلا، وحين كانت تزور المغرب، قبل ان تستقر فيه نهائيا، كانت تنزل في المطار مثلها مثل أي مسافرة عادية، الا ماكان من التفاتة من بعض اصدقاء الاسرة. في حين كانت تعامل في المطارات المصرية معاملة الشخصيات الاعتبارية الهامة، وحين استقرت في المغرب لم تخصص لها الحكومة او الدولة بيتا تقيم فيه، وقضت سنين طويلة(ضيفة) في منزل ابنتها عائشة بالدار البيضاء حتى سنة 1994 حين منحت لها فيلا في الدار البيضاء لكن دون أي تأثيث او ملحقات اخرى. وقد عاش أبناء الخطابي لحظات بئيسة من الناحية المادية، فعائشة مثلا حين تزوجت بالدكتور مصطفى بوجيبار (ابن خالها) سنة 1964 لم تقم لها اسرتها حفل الزفاف المعتاد، بل لم تستطع ان تقتني قفطان العروس كباقي العرائس، بسبب الضيقة المالية التي وجدت الاسرة الخطابية نفسها فيها بسبب ما اشرت اليه سابقا. والاكثر من ذلك فان الكولونيل عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم الخطابي وجد نفسه معدما بعد طرده من الجيش الملكي، عقب رفضه المشاركة في حرب الرمال ضد الجزائر سنة 1963 بل وصل به وضعه المادي الى المبيت في الحديقة العمومية في الرباط.

وعاش ادريس في ضائقة مالية شديدة،ولم يسعفه إلا عديله السيد السدراوي حين وظفه في شركة النقل التي يمتلكها. هذه بعض الشذرات من حياة أسرة الخطابي في جانبها الإقتصادي و المعيشي.

س:لكن يتداول الآن أن أعضاء أسرة الخطابي حصلت على معاشات حكومية وعلى ضيعة كبيرة في مراكش،أليس كذلك؟

ج:هذا كلام صحيح،لكن منذ متى حصل هذا وكيف؟في اوائل الثمانينات، وبعد جهود قام بها بعض المسؤولين من امثال المنصوري بنعلي و أحمد بنسودة لدى الدوائر المغربية العليا تقرر تخصيص معاش قار مدى الحياة لكل اعضاء اسرة الخطابي الكبرى(اسرة مولاي موحند واسرة سيدي امحمد واسرة سيدي عبد السلام) ومقدار ذلك المعاش هو 25000درهم بالنسبة للذكور و 15000درهم بالنسبة للاناث. وفي سنة 1994 حصلت زوجة مولاي موحند على فيلا كما ذكرت سابقا و على ضيعة في مراكش تحت وضعية كراء أو ايجار لمدة 99سنة.

س: في كل ماذكرت لم تشر الى اسلوب حياة الامير الخطابي في حياته، هل كان شغوفا بملذات الحياة مرحبا بأدواتها أو كان متقشفا و زاهدا فقد سمعت أنه كان يحن دائما الى زيت الزيتون الريفية..الخ؟

ج:هذا سؤال جيد فما هو معروف على عبد الكريم (مولاي موحند) أن همة الإنسان عنده ليست في بطنه،أو في زخرف الحياة، أو في مظاهر الفخفخة، و لذلك أشرت سابقا إلى كيف رفض الإقامة في قصر قدمه له الملك فاروق، وكيف رفض خدمات المحلات التجارية المدفوعة الثمن من قبل القصر الملكي آنذاك. وفضل ان يعيش عيشة متواضعة على عكس ما كان عليه الامر، بنسبة كبيرة، في جزيرة لارينيون. وتفيدنا المعلومات التي استقناها من اسرته انه لم يقبل ابدا الهدايا العربية و الاسلامية المتمثلة في السيارات الفخمة الفارهة، وكان يردد عندما يسأل عن سبب ذلك، حينما تحقق العدالة الاجتماعية سأقبل تلك الهدايا، ويؤكد ابناؤه انه لم يتناول طعامه ابدا في آنية فضية او مايشبه ذلك، ولم يحدث ان لبس لباسا غير الكاكي و الصوف. وكان يتصدق بالاشياء المخالفة لذلك، ولاتزال ابنته عائشة تحتفظ بالسكاكين و المعالق و الشوك التي كان يتناول بها طعامه في السنوات الاخيرة و هي من المعادن العادية. وتحضرني في هذه المناسبة عبارة لاحد المجاهدين الجزائريين، الذي عرف مولاي موحند عن قرب، كان يرددها على مسامعي و هي:"عبد الكريم امير حقيقي لانه كان يتناول معنا على سفرته العدس و البيصارة".

عاش عبد الكريم اذن مناضلا و مجاهدا في سبيل القيم التي آمن بها ثابتا على مبادئه عاملا على تحقيقها، لم يسع لا الى السلطة و لا الى الجاه فقد كان بوسعه ان يحصل عليها جميعا، وكان زاهدا متقشفا في مناهج الحياة المادية وكان غريما لاعداء العدالة و الحرية، وكان تواقا الى تحرير الشعوب من كل اشكال العبودية و نشر قيم العدالة الاجتماعية، واختار ان يعيش كريما و ان يموت عزيزا،لانه استوعب وجهة التاريخ و مكره في آن واحد.

س: هل هناك اشياء اخرى ستكشف عنها في مشروع كتابك؟

ج: هذا امر اكيد، ان شاء الله فلكل مقام مقال.

حاوره: سعيد الغزواني

ملاحظات حول مقال "الحرب الكيماوية في الريف"

■ محمد الداودي

تمهيد:

نشرت جريدة "ثيفراز ناريف" على مدى خمس حلقات ترجمة كنت قد قمت بها لمقال تحت عنوان "الحرب الكيماوية في الريف" للمؤرخين الإسبانيين ماريا روسا دي مادارياغا وكارلوس لاثارو آفيلا كان قد ظهر في المجلة الإسبانية Historia 16 في عددها رقم 234 لشهر أبريل سنة 2003. وكنت قد أرفقت الحلقتين الأوليين بتقديم كتبته حول موضوع المقال وسياقه، وأشرت فيه إلى ما أعتقد بأنه محاولة من الكاتبين التقليل من حدة الحرب الاستعمارية الكيماوية في الريف. ومادام أن المجال لم يكن يسع في ذلك التقديم المقتضب للتفصيل في دواعي هذا الحكم، فإني أود من خلال هذا المقال أن أوضح وجهة نظري وأن أعرض لبعض الخلاصات التي استدعت موقفي ذاك. أود في البداية التأكيد على نقطتين مهمتين: أولا، إن ما أكتبه هنا هو محاولة متواضعة لعرض بعض الملاحظات حول جوانب معينة من الحرب الكيماوية في الريف، وبالتالي فهذا المقال ليس معنيا بالدخول في متاهات المعادلات السياسية أو الديبلوماسية التي قد تحاول إثارة قضية ما أو عدم إثارتها بناء على حسابات أو مصالح سياسية معينة. إنني أتصور بأن العديد من قضايا الشعوب معرضة للتمييع ومن ثم للضياع بسبب هذا النوع من الحسابات. وفي نموذج الغازات في حرب الريف بالتحديد أتصور بأن المسألة أعقد من أن يختزل حلها في مجرد اعتذار أو بناء مستشفى. ثانيا، إن موقفي لم يكن هجوما شخصيا على المؤرخة ماريا روسا دي مادارياغا بل كان وجهة نظر حول مقال لم تكتبه لوحدها بل بالاشتراك مع الكاتب كارلوس لاثارو آفيلا، وبالتالي فإني سأركز في تحليلي على هذا المقال بالذات، ولست بصدد مناقشة آرائها أو كتبها الأخرى. إن المؤرخة دي مادارياغا معروفة بدراساتها التاريخية الهامة وبمواقفها الإيجابية حول حرب الريف، وكان هذا في الحقيقة ما أثار استغرابي، إذ أن المقال حول الحرب الكيماوية يتضمن من الإشارات والخلاصات ما يستدعي الوقوف عندها.

بشكل إجمالي أعتقد أن الكاتبين قد قاما بقراءة انتقائية للأحداث والوثائق التاريخية بحيث ركزا على تفاصيل معينة دون أخرى مما جعل تحليلاتهما وخلاصاتهما تسير في اتجاه أحادي مما أعطى في النهاية صورة مشوهة أو على الأقل ناقصة عن حقيقة الحرب الكيماوية. ويتجلى ذلك من خلال حرص الكاتبين الشديد على التأكيد على مجموعة من المعطيات أو المنطلقات من بينها: تأخر الإسبان في استعمال الغازات السامة، لجوؤهم إلى هذه الغازات كرد فعل على "وحشية" الريفيين في بعض المواقع، كون أن الحرب الكيماوية لم تكن مكثفة في أية مرحلة من المراحل، كثرة الصعوبات والعراقيل بل والخسائر التي عانى منها الإسبان من أجل الحصول على غاز الإيبريت ثم في تصنيعه وشحنه واستعماله، كون الاتهامات باستعمال الغازات السامة (سواء من طرف الإسبان أو غيرهم) كانت في الكثير من الأحيان مجرد دعاوى لتشويه السمعة أمام الرأي العام العالمي، التلميح بأن الريفيين كانوا يمتلكون أيضا غازات سامة. إني أعتقد أن كل هذه الإشارات مجتمعة لا تعطي الصورة الكاملة أو الحقيقية للمسألة الكيماوية في حرب الريف، بل إنها تصب موضوعيا في التخفيف من حدة المسألة وخطورتها.

الموقف الفرنسي:

بالنسبة لمقدمة الكاتبين حول تاريخ الغازات السامة في الحروب، فإن دي مادارياغا محقة في أنه يجب على المؤرخ أن يضع موضوع بحثه في إطاره التاريخي، إلا أن ما لفت انتباهي في ذلك التقديم هو تأكيد الكاتبين المرة تلو الأخرى على أن دعاوى استعمال الغازات السامة كانت في الكثير من الأحيان تستخدم كوسيلة لتشويه سمعة دولة ما على الصعيد العالمي. وهو شيء مفهوم أيضا لولا أن له علاقة منهجية على مستوى التحليل بفقرات لاحقة في المقال تتعلق بتحليل الكاتبين للمواقف الفرنسية والبريطانية حيال الوجود الإسباني في الريف بشكل عام واستعمال الإسبان للغازات على وجه التحديد، وكأن الكاتبين يهيئان القارئ نفسيا لتقبل فكرة أن اتهام الإسبان باستعمال الغازات كان في بعض الأحيان مجرد اتهام باطل. يتبين ذلك بوضوح مثلا من خلال تشكيكهما في صحة الخبر الذي أوردته الجريدة الاستعمارية الفرنسية La Depêche Coloniale وهو الخبر الذي ذكره الباحث البريطاني سيباستيان بلفور في كتابه "العناق القاتل". تقول الجريدة بأن أول استعمال للغازات من طرف الإسبان كان في بداية نوفمبر 1921 قرب مدينة طنجة. كما تعزي الجريدة النجاح غير العادي الذي لاقته حملة المفوض السامي داماسو بيرينغير في المنطقة الغربية للحماية إلى استعمال هذه الغازات. ويشكك الكاتبان في صحة هذا الخبر بحجة أن الجريدة المعنية كانت تمثل مصالح المعمرين الفرنسيين في الجزائر والذين كانت تدافع عنهم مجموعة من النواب يوجد على رأسهم أوجين إيتيين. وقد كانت هذه الجماعة على حسب زعم الكاتبين معادية لأي وجود إسباني في شمال المغرب، وبالتالي فلم تفوت فرصة النيل من سمعة الإسبان أمام الرأي العام العالمي، فالخبر، يقول الكاتبان، كان مبنيا على إشاعات فقط. إنني لن أناقش هنا صحة هذا الخبر أو عدم صحته رغم أن الجريدة أشارت إلى أنه مبني على مراسلات وتصريحات من عين المكان (1لكني أود أن أورد بعض الملاحظات حول حجج الكاتبين لرفض الخبر. إن جريدة La Depêche Coloniale مثلها مثل باقي الصحف الاستعمارية الفرنسية الأخرى الصادرة في طنجة والرباط مثل La Depêche Marocaine كانت تتلقى التعليمات مباشرة من السلطات الفرنسية. وإن التأكيد على أن فرنسا أو جهات داخل السلطات الاستعمارية الفرنسية (مثل جماعة أوجين إيتيين) كانت تكن العداء للوجود الإسباني هو في الحقيقة غير دقيق. لقد كانت هناك بالتأكيد فترات تنافر بين إسبانيا وفرنسا خاصة حول طريقة عمل كل واحد منهما داخل التراب المغربي، لكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن الوجود الإسباني كان مرفوضا لدى دوائر فرنسية معينة. بل على العكس من ذلك، فقد كانت فرنسا ترى أن مصلحتها كانت تكمن أكثر في استمرار الوجود الإسباني في الشمال المغربي لضمان عدم تدخل إنجلترا وألمانيا في منطقة حساسة بالنسبة للفرنسيين خاصة بسبب قربها من الجزائر ومن باقي التراب المغربي الواقع تحت الحماية الفرنسية. بل لقد كانت انتقادات الفرنسيين تتمحور أساسا حول ما كانوا يعتبرونه تهاونا وقلة كفاءة من جانب الإسبان وعدم قدرة هؤلاء إحكام سيطرتهم على منطقة الحماية الخاصة بهم، وهو ما كان يتجلى في سماحهم لنشاط بعض العملاء الألمان داخل الشمال المغربي وهو الأمر الذي كان يزعج الفرنسيين كثيرا. لكن بجانب الاحتجاجات الفرنسية المتكررة أمام الإسبان عن عدم صرامتهم في التعامل مع العملاء الألمان، كان الهاجس الأساسي الذي يؤرق السلطات الاستعمارية الفرنسية هو عدم قدرة الإسبان على إخضاع المنطقة حيث كانت نجاحات المقاومة الريفية تشكل بالنسبة للفرنسيين خطرا حقيقيا بسبب إمكانية انتشار تأثيرها داخل منطقة الحماية الفرنسية. وهذا ما يتضح من خلال تقرير أرسله المقيم العام الفرنسي المارشال ليوطي إلى رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك بريان بتاريخ 2 غشت 1921 حذر فيه من المصاعب التي ستواجهها فرنسا في حالة إذا ما تم تعميم الحركة التي بدأت في الريف، واعتبر أن أكبر خطر يتهدد المصالح الاستعمارية الفرنسية في المغرب يكمن في انتشار الثورة الريفية في باقي التراب المغربي (2وكما يوضح دانييل ريفي في كتابه "ليوطي ومؤسسة الحماية الفرنسية في المغرب"، كان ليوطي يحاول "تحييد" الريف وعزل ما يحدث هناك عن منطقة الحماية الخاصة بفرنسا. وقبل تلاحق انتصارات المقاومة، كان الهاجس الذي يحكم السلطات الاستعمارية الفرنسية يتأرجح بين عدم الرغبة في إغضاب الإسبان، وفي نفس الوقت الحرص على عدم إعطاء صورة للريفيين وللمغاربة بشكل عام بأن الفرنسيين يعادون المقاومة وذلك لكي لا يؤججوا مشاعر العداء ضدهم (3إن هذا الهاجس المزدوج يفسر إلى حد كبير "الغموض" الذي يراه الكثير من المؤرخين في المواقف الفرنسية تجاه إسبانيا خاصة في المراحل الأولى للحرب، وهو ما يسميه الكاتب بابلو لابورت باللامبالاة الحيادية indeferentismo neutrális-lta (4). لكن كما هو معروف سرعان ما تحول هذا الغموض إلى تواطئ كامل ومكشوف مع تسارع الانتصارات الريفية، والذي تكلل باتفاق مدريد سنة 1925 الذي دشن لإنزال الحسيمة والهجوم الكاسح المزدوج على الريف. هنا طبعا ستنقلب الانتقادات الفرنسية لإسبانيا بعدم كفاءتها الاستعمارية إلى مديح لقوتها في قمع المقاومة. ففي تقرير لقائد الربط الفرنسي المبعوث إلى المقر العام للجيش الإسباني إلى الماريشال بيتان، أكد أنه "يجب علينا أن نغير جذريا أحكامنا القاسية التي نطلقها أحيانا على الجيش الإسباني ... إن الانطباع الأول الذي يعطيه هذا الجيش هو أنه أداة قوية ومؤهلة" (5وها هو أحد العسكريين الفرنسيين وهو الجنرال أرمانغو يبدي تعجبه للدمار الهائل الذي سببه قصف إسباني واحد خلال دقيقة واحدة على أحد الأسواق بحيث أسقط 800 من القتلى (6.

بالنسبة لأوجين إيتيين الذي يتهمه الكاتبان هو وجماعته بعدائهم للوجود الإسباني، فمن المعروف أن إيتيين كان من أقطاب ما يسمى بالحزب الاستعماري le parti coloniale ou coloniste والذي لم يكن حزبا بالمعنى الحرفي بل جماعة ضغط. وكان يضم في صفوفه شخصيات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار تجمعها خدمة المصالح العليا للاستعمار الفرنسي. وقد أسس إيتيين (وكان نائبا على وهران) بمعية النائب طيوفيل ديلكاصي والصحفي بول بورد وبول ريفوال الجناح البرلماني للحزب الاستعماري Groupe colonial de la Chambre سنة 1892 (7وكما يوضح شارل زوريبيب، فإنه مع إيمان أوجين إيتيين العميق بالإيديولوجية الاستعمارية الفرنسية، إلا أنه كان من المساندين لديبلوماسية التوازن، أي أنه لم يكن يمانع في الوصول إلى صيغ تفاهم مع القوى الاستعمارية الأخرى خاصة إسبانيا وإنجلترا حول اقتسام مناطق النفوذ. بل لقد كان إيتيين هو الذي أقنع ديلكاصي عندما أصبح هذا الأخير وزيرا للخارجية بضرورة الوصول إلى تفاهم مع إنجلترا وهو ما سمي لاحقا بالتفاهم الودي entente cordiale الذي اعترفت إنجلترا بموجبه بحق فرنسا في المغرب مقابل اعتراف هذه الأخيرة بحق إنجلترا في مصر. نفس الشيء تم الاتفاق عليه مع إسبانيا في أكتوبر 1904 حيث تم اقتطاع شمال المغرب لصالحها مقابل اعترافها بالسيادة الفرنسية على باقي التراب المغربي. وقد صرح ديلكاصي بعد الاتفاق قائلا: "قد تلوموننني بأني رضخت للمطالب الإسبانية، لكني مستعد للتضحية بأكثر من ذلك. أهم شيء هو أن لا تصبح إسبانيا أداة لألمانيا في المغرب" (.(8من الواضح إذن أن الحزب الاستعماري الفرنسي وعلى رأسه أوجين إيتيين ساهم في تثبيت الوجود الإسباني في شمال المغرب، وبالتالي فلا مجال للحديث هنا عن أنه كان يتحين الفرص لتشويه سمعة إسبانيا. بل إن الحقيقة هي عكس ذلك تماما، فقد كان من مصلحة فرنسا أن لا يتسرب أي خبر عن استعمال إسبانيا للغازات السامة سيما وأنها أي فرنسا كانت هي الدولة التي زودت الإسبان بغاز الفوسجين في بادئ الأمر وذلك قبل أن تحصل إسبانيا على غاز الإيبريت من ألمانيا. وكما يشير بلفور فإن فرنسا قد قامت بالفعل بإخفاء كل معلومة ذات صلة باستعمال الغازات من طرف إسبانيا (9.

الموقف البريطاني:

إن الهاجس الذي حكم الكاتبين في تكذيبهما للخبر يتكرر في مناسبة أخرى عند حديثهما عن برقية للملحق العسكري للسفارة البريطانية في مدريد بتاريخ 20 ماي 1925 يقول فيها بأن استعمال الإسبان لقنابل الغاز يعود إلى تاريخ حديث نسبيا، وبأنه قبل انتفاضة قبيلة أنجره في دجنبر 1924 كان هناك حديث نادر أو منعدم عن الغازات. ويؤكد الكاتبان هذا المضمون بقولهما إن هذا الملحق العسكري كان على علم بمجريات الأحداث وذلك عن طريق القناصلة البريطانيين في طنجة وتطوان. وبالتالي فمن المستبعد، يقول الكاتبان، أن تكون قنابل الغاز قد استعملت في منطقة طنجة قبل دجنبر 1924 بدون أن يكون القناصلة البريطانيون في طنجة وتطوان على علم بذلك ودون أن يبادروا إلى التنديد به، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كليهما كانا ضد سياسات إسبانيا في المغرب. مرة أخرى، يبدو غريبا تأكيد الكاتبين على أنه كان ثمة عداء للحضور الإسباني أو لسياساته في الشمال المغربي. والحقيقة أن إنجلترا تماما مثل فرنسا (بل ربما أكثر منها) كانت تعتبر من مصلحتها استمرار إسبانيا في الريف كدولة حامية بموجب الاتفاقيات الدولية المبرمة بين مختلف القوى الاستعمارية حول المغرب وخاصة منها معاهدة الحماية. لقد أوجدت هذه الاتفاقيات توازنا جيوسياسيا بين القوى الاستعمارية في المنطقة، وكانت بريطانيا حريصة على استمرار ذلك التوازن لأسباب عديدة منها ضمان إبعاد فرنسا عن مضيق جبل طارق. وقد عبرت بريطانيا مرارا عن حرصها على أن تعزز إسبانيا وجودها في الريف حتى تقطع الطريق أمام أي نفوذ محتمل لفرنسا وألمانيا. ويوضح بابلو لابورت بأنه نتيجة لذلك، كانت بريطانيا وسلطاتها القنصلية شديدة القلق إزاء تطورات الأحداث في الريف خاصة مع توالي انتصارات المقاومة، وهو ما كان يضعف وضع إسبانيا في المنطقة (10ويتجلى هذا الحرص على عدم تغيير الوضع وعلى ضرورة التزام إسبانيا بما تم الاتفاق عليه يتجلى في معارضة بريطانيا للطروحات التي بدأ التلميح إليها في بعض الأوساط الإسبانية حول إمكانية الانسحاب (الجزئي أو الكلي) من الريف. وكان الجنرال بريمو دي ريفيرا نفسه قد عبر عن هذه الفكرة في إحدى المناسبات. وهكذا فقد عبر السفير البريطاني في مدريد هاردينغ في أحد تقاريره في سبتمبر 1923 عن قلقه إزاء ما يمكن إن يجره هذا الانسحاب على السياسة البريطانية وعلى الوضع في المضيق (11ولذلك، يقول لابورت، كانت السلطات القنصلية البريطانية حريصة على مباركة التحركات العسكرية الإسبانية بعد أنوال وعلى تتبع مسار الرأي العام الإسباني معبرة عن تفاؤلها أمام مساندة هذا الرأي العام للعمليات العسكرية. ففي تقريره السنوي لعام 1921، كتب السفير البريطاني في مدريد إسمي هاورد: "إن الجمهور الإسباني لحسن الحظ قد أصبح واعيا بضرورة تجاوز الكارثة (يقصد أنوال) ولم تكن هناك خلافات قد تعيق تحركات الحكومة. بمعنى آخر، لقد تم أخيرا تحريك الرأي العام لصالح الحملة" (12وقد وصل هذا الاهتمام البريطاني إلى حد اتهمت فيه فرنسا السلطات البريطانية بتشكيل جبهة تحالف مع إسبانيا ضد المصالح الفرنسية في المغرب (13وكان من بين ما أجج هذه الحساسية حصول الشركات البريطانية على عقود إعادة تسليح الجيش الإسباني بعد واقعة أنوال.

بالإضافة إلى كل هذه الاعتبارات، يحق لنا التساؤل: هل من المنطقي الحديث عن أن هذه السلطات القنصلية كانت ستفضح استعمال إسبانيا للغازات وتندد بذلك دوليا مع العلم أن بريطانيا نفسها سبق وأن استعملت هذه الغازات في العراق سنة 1920 وقبل ذلك في أفغانستان سنة 1919، مباشرة بعد توقيعها على معاهدة فرساي لمنع الأسلحة الكيماوية، وكان وزير المستعمرات آنذاك وينستون تشرتشل من أشد المدافعين عن استعمالها؟ (14لم تكن لبريطانيا المصلحة ولا السلطة الأخلاقية للتنديد باستعمال دولة أخرى للغازات السامة. وكما يشير بلفور، فقد تكتمت بالفعل عن استعمال إسبانيا للغازات في الريف، ويذكر أن السلطات العسكرية الإسبانية رحبت بزيارة مدير المركز البريطاني للحرب الكيماوية في بورتون المدعو بوغ لويد إلى المعمل الكيماوي بمليلية مما يدل، والقول لبلفور، على أن الإسبان كانوا مرتاحين وواثقين بأنه لن يفشي أي شيء، وهو ما حدث فعلا إذ لم يكشف تقريره إلا في أكتوبر سنة 1997 (15ويتجلى التعتيم البريطاني مثلا من خلال رسالة وجهها القبطان ألفريد غاردينر إلى وزارة الخارجية البريطانية في يونيو من سنة 1923 ينبه فيها الحكومة البريطانية إلى أن الريف والإسلام سيردان بشدة في حالة ما إذا لم تنبه الحكومة البريطانية نظيرتها الإسبانية بالإقلاع عن قصف السكان بالغازات السامة (16وتدل هذه الرسالة على مسألتين أساسيتين: أولا، إن الغازات السامة قد تكرر استعمالها قبل ذلك التاريخ ودون أي رادع مما يفسر حدة التهديد. ثانيا، إن الحكومة البريطانية كانت تتكتم عن تلك الممارسات مما جعل "العامل العام لحكومة الريف" غارديز الذي كان قناة تواصل بين القيادة الريفية والبريطانيين ينبه الحكومة البريطانية إلى خطورة القضية، وبأن تلك الحكومة لم تكن تفعل شيئا لتنبيه الإسبان.

هل كان قرار استعمال الغاز ردة فعل؟

كخلاصة لما سبق، لا يمكن القول بأن فرنسا أو إنجلترا أو جهات معينة داخل هتين الدولتين كانت تتحين الفرص لتشويه سمعة إسبانيا أمام الرأي العام العالمي وذلك بالتنديد باستعمالها للغازات. لكني أعتقد أن من بين الأسباب التي دفعت الكاتبين إلى تأكيد هذه النقطة هي حرصهما على رفض أي معطى يفيد استعمال الإسبان للغازات في المراحل المبكرة للحرب، ولذلك نجدهما كل مرة يبديان اهتماما واضحا بمسألة التوقيت، أي توقيت استعمال الغازات والسياق التاريخي الذي عجل بهذا الاستعمال. يذهب بعض الباحثين الذين كتبوا حول موضوع الحرب الكيماوية إلى أن الإسبان لجؤوا إلى استعمال الغازات السامة في الريف رغبة في إنهاء الحرب في أسرع وقت ممكن خاصة أمام الحرج الذي كانت تسببه الانتصارات الريفية المتلاحقة للإسبان وأمام ما يمكن أن يحدثه هذا المأزق الاستعماري على مستوى الرأي العام داخل إسبانيا. وهذا صحيح إلى حد ما في شقه الأول أي فيما يتعلق بالرغبة في إنهاء الحرب بسرعة، لكنه قد يكون غير دقيق في الشق الثاني لأنه من المعروف أن الرأي العام الإسباني كان مساندا للحرب بعد واقعة أنوال، وهو ما تؤكده تقارير السفراء البريطانيين في مدريد التي سبق ذكرها. كما يؤكده أيضا النجاح الكبير لحملة الاكتتاب الشعبي التطوعي لجمع المال من أجل شراء طائرات جديدة لتوجيهها نحو الريف.

وفي إطار الحديث عن السياق التاريخي الذي عجل باستعمال الغازات، يشير الكاتبان إلى أن الإسبان لم يعمدوا إلى استعمال الغازات إلا انتقاما لما شهدوه من المجازر التي اقترفها الريفيون في حق الجنود الإسبان في العروي وسروان. ويبدآن بالتساؤل: متى اتخذ القرار باستعمال الغازات السامة؟ ويستندان في معرض جوابهما إلى رسالة وجهها المفوض السامي داماسو بيرينغير إلى وزير الدفاع بيثكوندي دي إيثا في غشت 1921، ويقول فيها بأنه كان دائما ضد فكرة استعمال الغازات ضد هؤلاء الريفيين، لكنه الآن سيستمتع باستعمالها جزاء مافعلوه. ويضيف الكاتبان: "يبدو واضحا إذا أن قرار استعمال الغازات يعود إلى غشت 1921، أي أياما قليلة بعد المجزرة التي تعرض لها الجنود الإسبان في التاسع من نفس الشهر في جبل العروي". وحتى هنا يرفض الكاتبان التسليم بأنها استعملت بالفعل وحجتهما في ذلك هي أن الجرائد الإسبانية التي كانت تطالب باستعمال الغازات استمرت في مطالبها تلك، مما يعني في رأي الكاتبين أنها لم تستعمل. ثمة ملاحظات أساسية أود أن أثيرها حول هذه المسألة:

أولا، لا يمكننا أخذ هذا التصريح بجدية لأنه لم يثبت لبيرينغير في مقالات أو تصريحات سابقة بأنه كان فعلا ضد فكرة استعمال الغازات. وبالتالي فيمكن اعتبار هذا التصريح من قبيل المنطق واللغة الاستعماريتين ليس إلا. إذ أن تاريخ التجارب الاستعمارية غني بمثل هذه الأقوال التي يبرر فيها الاستعماريون قمعهم وتقتيلهم للسكان الأصليين بكون ذلك ردة فعل على وحشية هؤلاء وطيشهم وميولاتهم البربرية المعادية للحضارة، وهي الأوصاف التي كانوا يطلقونها على أعمال المقاومة (17 ويشبه تصريح بيرينغير هذا ما عبر عنه تشرتشل (الذي حاز فيما بعد على جائزة نوبل للسلام) عشية قصف العراقيين بالغازات حيث أبدى تعجبه من تردد الحكومة البريطانية الأولي في استعمال الغازات، وقال: "إني لا أفهم هذه الحساسية الزائدة حول استعمال الغاز. إني أساند بقوة استعمال الغاز السام ضد قبائل غير متحضرة." (18وفي نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقصف العراقيين بالغازات، صرح الملازم كولونيل غيل (في القوات الجوية البريطانية) الذي كان في كردستان (حيث استعملت الغازات هناك أيضا) بأنه "ما دام أن الأكراد لم يتعلموا من خلال النموذج البريطاني أن يتصرفوا بشكل حضاري، فقد اضطررنا إلى إعطائهم بعض الصفعات في مؤخرتهم. وقد فعلنا ذلك بواسطة القنابل." (19.

ثانيا، إن الاستعمار بشكل عام والاستعمار الإسباني الذي هو موضوع هذا المقال لم يكن يحتاج أبدا إلى ذرائع من أجل قمع الأهالي وتقتيلهم. وفيما يخص تفكير الإسبان بالغازات السامة، فإن الصحفيين الألمانيين كونز وديترمولر قد أشارا إلى أن الملك الإسباني ألفونسو الثالث عشر كان مهتما باقتناء الغازات منذ سنة 1918، أي قبل حادثة العروي بكثير (20 أضف إلى ذلك أن إحدى الصفقات بين الإسبان ورجل الصناعة الكيماوية الألماني هوغو ستولتسنبرغ قد تمت في 12 غشت من سنة 1921 أي مباشرة بعد استرجاع الريفيين لموقع العروي في اليوم التاسع من نفس الشهر، وبالتالي قبل معاودة الإسبان الاستيلاء على الموقع مجددا وحيث تسنى لهم، حسب ما تروي أغلب الأدبيات التاريخية الإسبانية، معاينة جثث الجنود الإسبان الشاهدة على غدر الريفيين وتنكيلهم بهؤلاء الجنود رغم إعطائهم إياهم الأمان بعد الاستسلام. وقد كانت معاينة هذه الجثث وهذا الغدر حسب نفس الكتابات هو ما ولد لدى الإسبان شعورا دفينا بالحقد والرغبة في الانتقام.

ثالثا، فيما يخص هذه النقطة بالتحديد، أرى أنه من الغريب أن تركز الكثير من الكتابات التاريخية الإسبانية على ما تعتبره وحشية من جانب الريفيين في حرب هدفها إخراج مستعمر من أرضهم، وذلك بحدة أكبر من تركيزهم على حقيقة هي أكثر وحشية وهي حقيقة الاستعمار في إذلاله اليومي وتجويعه وتقتيله للأهالي. وأنه لمن الجدير بالملاحظة مثلا أن هذه الكتابات تسهب في تفاصيل ما يسمى "بالمأساة" في العروي (المعتمدة أساسا على روايات الجنود الإسبان) بينما لا تذكر أي شيء عن أن المحاصرين بقيادة الجنرال نافارو كانوا قد اغتالوا قبل ذلك بأيام المبعوثين الذين أرسلتهم القيادة الريفية للتفاوض معهم حول شروط الاستسلام (21تجدر الإشارة إلى أن هذا الربط بين قرار استعمال الغازات وبين ما حصل في العروي يعبر عنه بشكل أكثر صراحة أحد كاتبي هذا المقال وهو كارلوس لاثارو آفيلا في مقال آخر له تحت عنوان "تشكل الطيران البحري العسكري: المغرب". إذ يؤكد أن المحرك الأساسي وراء استعمال الغازات كان هو رغبة الإسبان الجامحة في الانتقام نتيجة المشاهد "المروعة" لجثث الجنود المتناثرة في العروي ومناطق أخرى (22 بل إن الكاتب في هذا المقال يلمح إلى أن الريفيين مارسوا "قسوتهم" قبل حادثة العروي، إذ يقول: "اشتعلت شرارة الثورة في شهر يونيو سنة 1921 عندما تسبب رجال عبد الكريم في السقوط المتلاحق لمواقع أبران، إغريبن وأنوال حيث مات الجنرال سيلفيستري نفسه. انطلاقا من هنا حدث الانسحاب غير المنظم لجيش هارب من ملاحقة لا هوادة ولا رحمة فيها من طرف الريفيين ... والذين كانوا قاسيين لدرجة خارقة تجاه الجنود الإسبان. توقف السيل المندفع للقوات بأمر من الجنرال نافارو في جبل العروي ..." (23وإنه لمن المعبر أيضا أن يصف الكاتب في مقاله ذاك الطيران الإسباني بالشجاع والمميز والبطولي، بينما يصف عمليات الريفيين بالقاسية والمروعة. يذكر بلفور بأن العسكريين الإسبان كانوا يستعملون نفس التبريرات في مواجهتهم لنضال الكوبيين من أجل الاستقلال، حيث كانوا يبررون حرق المحاصيل والحقول وعمليات التقتيل الجماعي بالضرورات المرحلية للحرب وبهمجية السكان الأصليين (24.

الغازات في رسائل عبد الكريم:

إن من بين ما يثير الانتباه في المقال هو تركيز الكاتبين الانتقائي على مجموعة من المعطيات تم اختيارها بعناية ثم حاولا من خلالها الوصول إلى خلاصات معينة تبدو أحيانا جاهزة. إن دي مادارياغا محقة بالتأكيد في قولها أن على المؤرخ دائما أن يطرح تساؤلات ويحاول الإجابة عنها ويكون فرضيات حولها. لكني أعتقد أن في محاولات الكاتبين تلك للإجابة على التساؤلات المطروحة، تم تحميل بعض المعطيات والوثائق التاريخية أكثر من مضمونها. ويتجلى ذلك مثلا في تناولهما لرسالة من محمد بي عبد الكريم "إلى الأمم المتحضرة" في سبتمبر من سنة 1922 والتي أشار فيها إلى استعمال الإسبان "أسلحة محضورة". وللتعليق على ذلك يقول الكاتبان: "يستنكر (أي عبد الكريم) استعمال الإسبان لأسلحة محضورة رغم أنه لا يذكر الغازات السامة بالتحديد، مما يشير إلى أن الغازات قد استعملت ولو بشكل محدود وبغرض التجربة، أو أن عبد الكريم كان على علم بأن الإسبان كانوا يستعدون لاستعمالها في أمد قريب". أولا، أتصور بأنه لا يوجد في الرسالة ما يفيد بأن استعمال الغاز كان محدودا وبغرض التجربة كما يدعي الكاتبان. لقد كانت هذه المحدودية فرضية فقط استنتجها الكاتبان في تحليل سابق على الرسالة وحاولا أن يجدا لها مبرراتها في الوثائق. ثانيا، إن تأويل الرسالة على أن عبد الكريم كان يعلم بأن الإسبان يتأهبون لاستعمال الغازات هو تأويل لا أساس له لأن العبارة صريحة في إشارتها لما كان يصدر فعلا عن الإسبان، ولنقرأ هذا التعبير في سياقه، يقول عبد الكريم: "إن الإسبان يعتقدون بأن أوربا قد ائتمنتهم على الإصلاح والحضارة في الريف. لكن الريفيين يتساءلون، هل يعني الإصلاح تدمير ملاجئ الناس باستعمال

أسلحة محضورة، أم يعني التدخل في الدين أو مصادرة حقوق الآخرين، أم أنه يعني ضم أراضي الآخر تحت غطاء الحماية." لا شك في أن هذه الفقرة تشير بوضوح إلى الممارسات الفعلية التي كانت تصدر عن الإسبان، وليس إلى ما قد يستعدون له مستقبلا. وأيا تكن هذه الأسلحة المحضورة، فإنها بالتأكيد ليست الغازات المسيلة للدموع التي يحلو للكاتبين الإشارة إليها كل مرة لأن هذا النوع من الغازات لم يكن محضورا.

على أن تنديد الريفيين باستعمال الإسبان للغازات السامة جاء قبل ذلك بسنة تقريبا وبشكل صريح وواضح في رسالة أخرى لم يشأ الكاتبان ذكرها، وهي بيان من عبد الكريم إلى الحكومة البريطانية في دجنبر سنة 1921 يقول فيها: "لقد واجهنا قوة أعظم من قوتنا، وطالما شاهدنا كيف أصبح أولادنا ونساءنا وأهالينا ومناطق كانت حرة بالكامل من أي حصار أصبحوا ضحية للتدمير. لكن الحق كان بجانبنا. لقد اضطرتنا الملاحقة إلى الانتفاض كرجل واحد، وطردنا تلك القوات التي كانت تفسد وتستعبد دولتنا. لكننا في نفس الوقت ألزمنا أنفسنا في الحرب بمعاملة الأسرى معاملة إنسانية ومحترمة، وتناسينا الاستعمال الذي تم لرصاص دمدم، وقذائف وغازات قاتلة، وقاذفات اللهب والطائرات. نحن لانملك شيئا من كل ذلك، لكننا رغم ذلك قاومنا." (25 أعتقد أن الرسالة دليل واضح للغاية على استعمال الإسبان الفعلي للغازات السامة قبل دجنبر 1921، ولا تفيد أي احتمال أو تخمين حول ما يمكن أن يفعله الإسبان مستقبلا. وبجانب المعدات الحربية الأخرى التي استعملها الإسبان والتي يشير إليها عبد الكريم مثل الطيران والقنابل الحارقة، فإن استعمال كلمة "قاتلة" لوصف الغازات ينفي مرة أخرى أن تكون هذه الغازات من النوع المسيل للدموع، وهو النوع الذي يصر الكاتبان على أنه الغاز الذي كانت تستعمله إسبانيا في المراحل المبكرة للحرب.

هل امتلك الريفيون غازات سامة؟

أجد أنه من الملفت للانتباه أن لا يذكر الكاتبان هذه الرسالة في معرض حديثهما عن موضوع تنديد الريفيين بمسألة الغازات الإسبانية، وأكثر من ذلك فإنهما قد أكدا بأن عبد الكريم لم يشر إلى كلمة الغازات في أي من رسائله. لكن كما قلت سابقا فإن اختيار الوثائق كان اختيارا انتقائيا يرمي إلى إيصال القارئ إلى الخلاصات التي يريدها الكاتبان فقط. ويتضح هذا مرة أخرى في تناول الكاتبين لرسالة وجهها القايد حدو بن حمو إلى عبد الكريم بتاريخ 2 دجنبر 1921 يقول فيها: "أرسل لي أربع علب من الكاز، لأني لا أملك أية علبة هنا. أرسل لي كذلك نقودا لأشتري 10 علب في تاوريرت". ويعلق الكاتبان على الرسالة بقولهما إن تاوريرت كما هو معروف كانت موقعا فرنسيا محاذيا لمنطقة الحماية الإسبانية وقد كانت مسرحا مهما لعمليات التجارة السرية للأسلحة مع الريف، ثم يخلصان إلى أن الريفيين كانوا يمتلكون غازات سامة لأنهم كان بمقدورهم الحصول عليها في المنطقة الفرنسية، كما حصلوا عليها في المواقع التي أخلاها الإسبان. أود أولا أن أوضح نقطة وقع فيها شيء من اللبس. إني لم أقم بترجمة كلمة "امتلاك" التي استعملها الكاتبان إلى كلمة "استعمال". لقد توخيت الأمانة القصوى في ترجمة المقال، وللقارئ أن يطلع على المقال الأصلي في المجلة الإسبانية. كما أني استعملت كلمة "امتلاك" أيضا في تقديمي للحلقة الثانية من المقال. لكن كلمة "استعمال" التي وردت في التقديم للحلقة الأولى جاءت سهوا والدليل أنه تم تداركه مباشرة في التقديم للحلقة الثانية. لكن قضية امتلاك الريفيين للغازات هي أيضا في حد ذاتها مدعاة للتساؤل. كما قلت في تقديمي للحلقة الأولى، فإن كلمة "الكاز" التي يعتمد عليها الكاتبان للاستنتاج بأن الريفيين امتلكوا الغازات تعني بكل بساطة الغاز الذي يستعمله الريفيون في البوادي للإنارة، أي إنارة الفوانيس، وهو ما قصدته عندما قلت أنه الغاز الذي نستعمله في الحياة اليومية، أي في الحياة اليومية للناس البسطاء في الأرياف (أي ذلك الصنف من السكان الذي هو أقرب للمقاومين الريفيين الأوائل من حيث نمط عيشهم)، وليس الغاز الذي يستعمله الناس هذه الأيام في الحواضر. بمعنى آخر، ما قصدته هو ذلك السائل الذي يشبه الماء من حيث أنه لا لون له ولا رائحة (الغاز الطبيعي) والذي يعتبر استعماله في البوادي الريفية مسألة معروفة بل ومن الضروريات خاصة في إنارة الفوانيس وذلك منذ زمن طويل (تشير الروايات الشفوية إلى أنه كان يستعمل ابتداء من العقد الثاني من القرن العشرين). وبسبب بساطة مستوى عيش الريفيين، فقد كانوا يفضلونه لأنه كان أقل ثمنا من الزيت والتي كانت تستعمل أيضا في بعض الأحيان للإنارة. أما فيما يتعلق بمصدر هذا الغاز، فإن الريفيين كانوا يشترونه من الإسبان أنفسهم، أو يضطرون إلى الذهاب إلى حدود منطقة الحماية الفرنسية حيث كانوا يشترونه من التجار المغاربة داخل المنطقة الفرنسية بثمن أقل أحيانا، وهو اعتبار له أهميته بالنظر إلى شظف العيش الذي كان السمة الغالبة لدى سكان الريف. وكون أن الريفيين كانوا يضطرون إلى الذهاب ممتطين دوابهم حتى الحدود مع المنطقة الفرنسية خصيصا لهذا الغرض يدل على ما نعرفه من أن هذا "الكاز" كان من المواد الضرورية في الأرياف (26.

وأما ربط الكاتبين المسألة بأن تاوريرت الواقعة على حدود منطقتي الحماية الفرنسية والإسبانية كانت معروفة بالتهريب والتجارة السرية للأسلحة مع الريف فثمة ملاحظات يجب إثارتها في هذا المجال. إن تاوريرت كانت كما هو معروف نقطة عبور بين الجزائر والريف بالنسبة للسكان الريفيين الذين كانوا يضطرون للهجرة إلى الجزائر من أجل العمل (أثناء مواسم جني الكروم مثلا)، مع ما قد يعنيه هذا المرور من وإلى الجزائر من حركة على المستوى التجاري. أما الإسبان فقد كانوا يشتكون للفرنسيين باستمرار من أن الحدود المعنية كانت مسرحا يحصل فيه الريفيون على أسلحة مهربة وكانوا يعتبرون أن الفرنسيين كانوا غير صارمين في مراقبة هذه التجارة. إني لن أنفي هنا طبعا مسألة التجارة السرية للأسلحة، لكن تجدر الإشارة إلى أن الفرنسيين عمدوا إلى تقوية ودعم المراكز الحدودية القريبة من منطقة الحماية الإسبانية، وإيفاد قوات متحركة إضافية إلى جميع القبائل الحدودية، وخاصة بعد واقعة أنوال، وذلك كما سبق وأشرت من أجل عزل المنطقة الفرنسية عن المنطقة الإسبانية وعن أي تأثير محتمل لما كان يحدث في الريف على منطقة النفوذ الفرنسية (27وفي إحدى الدعاوى التي رفعت أمام القنصل العام الفرنسي ورئيس المنطقة المدنية لوجدة حول ضرورة منع التهريب في تاوريرت، صرح المقيم العام الفرنسي المارشال ليوطي للقنصل العام بأن التهريب الوحيد الذي كانت للسلطات الفرنسية الحق في منعه هو تهريب الأسلحة. وبالتالي، يقول ليوطي، فإن من حق أي واحد من رعايا الإمبراطورية أن يتزود بالمنتوجات الأخرى في الأسواق الفرنسية إذا أراد (28 أضف إلى ذلك أن السلطات الحدودية الفرنسية لم تكن تسمح للريفيين العاملين في الجزائر بالدخول إلى الريف والرجوع إلى ذويهم إلا بعد تجريدهم من أي سلاح قد يحملونه. لكن من الواضح أن الإسبان كانوا يشكون في أن كل تجارة يقوم بها الريفيون كانت تجارة أسلحة. ويذهب بابلو لابورت إلى أن الشكاوي الإسبانية حول تهريب الأسلحة على المناطق الحدودية لم تكن كلها صحيحة (29 في إحدى الشكايات التي رفعها الإسبان أمام السلطات البريطانية سنة 1924 حول نشاطات القبطان غارديز، ادعى الإسبان أن هذا الأخير قد أدخل إلى الريف سريا 600 طن من الإسلحة على متن ياخت يملكه تحت إسم "سيلفيا". تعامل البريطانيون مع هذه الشكاية بشيء من اللامبالاة، بسبب تعجبهم كيف يمكن يخت وزنه 47 طنا أن يحمل 600 طنا. وقد تبين فيما بعد بأن الإسبان قد ارتكبوا خطأ مطبعيا في الرسالة التي وجهوها للبريطانيين.

وأما الرسالة الأخرى للقايد حدو بن حمو نفسه بتاريخ 24 يونيو من سنة 1922 والتي يخبر فيها عبد الكريم بأن "99 قنطارا من الغاز الخانق قد وصلت إلى مليلية لصالح الإسبان على متن باخرة فرنسية يوم 16 يونيو الجاري"، فإن هذه الرسالة لا تضيف في الأمر شيئا لأنها لا تعني بأي حال من الأحوال امتلاك الريفيين للغازات أو رغبتهم في شرائها، بل هي دليل إضافي على تزويد إسبانيا بالغازات من طرف دول أخرى.

مسألة أخرى ذات أهمية هي الألفاظ المستعملة للحديث عن الغازات. يستعمل القايد حدو بن حمو كلمة "الخانق" كتمييز لنوع الغاز الذي وصل إلى مليلية ولم يستعمل هذا التمييز إطلاقا في الرسالة الأولى، وقد يكون هذا دليلا إضافيا على ماقلته سابقا بأن هذه الرسالة الأولى لا تمت بصلة إلى الغازات السامة. إن دي مادارياغا محقة في أن كلمة "السامة" هي مصطلح حديث ولم يستعمله الريفيون في ذلك الوقت. لكنهم عادة ما استعملوا مصطلحات للتمييز والتعبير عن طبيعة تلك الغازات. فقد استعمل عبد الكريم في الرسالة السابقة الذكر لفظ "غازات قاتلة"، واستعمل القايد حدو بن حمو لفظ "غازات خانقة" كما سبق، كما أنه استعمل لفظ "قنابل مسممة" في رسالته إلى عبد الكريم بتاريخ 31 غشت سنة 1921 والتي ينصحه فيها بعدم إطلاق سراح الأسرى الإسبان لكي لا يلقي الإسبان "قنابل مسممة" على المناطق الريفية. وكانت أغلب هذه المصطلحات بسيطة وتحيل مباشرة إلى الآثار الفورية التي كانت تسببها الغازات. وهو ما يتضح أيضا من خلال الألفاظ التي كان وما زال يطلقها الناس العاديون في الريف على الغازات السامة مثل "السم" أو "السموم" أو "أرهاج" (30وكما قلت سابقا، فإن الكلمات التي استعملت في رسالتي عبد الكريم مثلا وهما كلمتي "القاتلة" (دجنبر 1921) و"المحضورة" (سبتمبر 1922) تنفيان فرضية الكاتبين بأن الإسبان كانوا يتوفرون غالبا على الغازات المسيلة للدموع، لأن هذا النوع كما نعلم جيدا ليس محضورا ولا قاتلا ولم يكن كذلك أبدا.

خصائص الحرب الكيماوية:

مرة أخرى، أتفق بأن للمؤرخ الحق بل الواجب في أن يطرح كل التساؤلات الممكنة وأن يحاول الإجابة عنها، لكني أعتقد أن اختيار الكاتبين للتساؤلات التي طرحاها ونوع الإجابات المقدمة كان اختيارا مقصودا وموجها لخلاصات معدة سلفا. وللتوضيح أكثر، سأحاول أولا أن ألخص للقارئ في عجالة أهم الجوانب التي ركز عليها الكاتبان في الحديث عن الحرب الكيماوية من الجانب الإسباني. يؤكد الكاتبان أن الغازات لم تستعمل في المراحل الأولى للحرب، وإذا كان هناك أي حديث عن غازات أثناء هذه الفترة فإن الأمر كان يتعلق غالبا بالغازات المسيلة للدموع. أما الإيبريت فلم تظهر على الساحة إلا مع اقتراب سنة 1924. وتبين الوثائق حسب الكاتبين بأن استعمال الغازات كان محدودا وعلى سبيل التجربة، كما تبين أنه لم تستعمل أصلا في بعض الفترات. وحتى في المراحل اللاحقة للحرب لم يلجأ الإسبان أبدا في أية مرحلة من المراحل إلى قصف مكثف أو عشوائي، بل كان القصف يتم ضد أهداف معينة ومحددة. ويعزي الكاتبان كل هذه العناصر إلى ما اعتبروه عوائق سياسية وتقنية لم تسمح بخوض حرب شاملة، الأولى تتمثل أساسا في رفض الرأي العام العالمي لمسألة الغازات، وأما الأسباب التقنية فهي كثيرة منها صعوبات في الحصول على غاز الإيبريت من الألمان أو على مادة الأوكسول الضرورية لصنع الإيبريت، وعدم وجود مصنع للإيبريت خلال السنتين الأوليين، وعدم وجود تقنيين أخصائيين من أجل التصنيع ثم التعبئة، وأعطاب كانت تحدث في المصانع والمعدات فكانت تستلزم الاقتصاد في استعمال قنابل الغاز المتاحة، وحوادث كانت تقع في مخازن الغاز والتي ذهب ضحيتها الكثير من الجنود الإسبان، بالإضافة إلى صعوبات تقنية أخرى.

فيما يخص الأسباب أو العوائق السياسية، يحق لنا التساؤل: أية ظروف سياسية هذه التي لا تسمح باستعمال الغازات سنتي 1921 و1922 ثم تسمح بذلك سنة 1923 وما بعدها؟ يتحدث الكاتبان عن المناخ الدولي والرأي العام العالمي الذي كان معارضا لاستعمال الغازات بعدما تبينت آثارها في الحرب العالمية الأولى. لكن عن أي رأي عام يتحدثان؟ لقد كان هناك اتفاق ضمني بعد معاهدة فرساي سنة 1919 بأنها لن تستعمل هذه الغازات فيما بينها. لكن كما يشير سيباستيان بلفور في كتابه "العناق القاتل" لم يشمل هذا المنع الشعوب المستعمرة والتي كان يعتبرها الأوروبيون غير متحضرة. وبالتالي فلم يكن هناك أي حرج في استعمال هذه الدول للغازات ضد هذه الشعوب (31 وتصريح تشرتشل السابق الذكر دليل واضح على ذلك. وكانت كل دولة تعلم بممارسات الدول الأخرى في هذا المجال وتتغاضى عنها، بحيث تم إخفاء وتشفير المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع بحرص شديد. وبالتالي فلم تكن الشعوب الأوروبية بما فيها إسبانيا تعلم بما كان يحدث حقيقة على الأراضي المستعمرة. ويكفي أننا نعلم أن مسألة الغازات في حرب الريف مثلا لم تعرف إلا بعد مرور أكثر من سبعين سنة على نهاية الحرب. فكيف يمكن القول بعد كل هذا إن الإسبان واجهوا ظروفا سياسية لم تكن تسمح لهم باستعمال الغازات. أعتقد أن الكاتبين يتحدثان عن الرأي العام بشيء من المبالغة.

وفيما يتعلق بالصعوبات التقنية، يشير الكاتبان إلى أن استعمال الغاز في البداية كان محدودا. لكن هذه المحدودية في الحقيقة لم تكن اختيارية أو كما يقولان على سبيل التجربة، بل كانت اضطرارية خاصة وأن القذائف الأولى كما هو معروف كانت ترمى انطلاقا من المدفعية وليس الطيران، مما كان يحتم توجيه المدافع حسب ضرورات المعارك وأماكنها. وبالتالي فقد كانت مسألة طبيعية أن يكون استعمال الغازات متركزا أساسا على جبهات القتال وعلى أهداف بعينها. لكن الكاتبين يعودان ويؤكدان بأن قصف أهداف بعينها حتى من طرف الطيران كان السمة الغالبة للحرب حتى نهايتها، ويضيفان بأن القصف لم يكن أبدا مكثفا ولا عشوائيا أو دون تمييز. إن مسألة قصف أهداف بعينها مفهومة، لكن لماذا التأكيد اللغوي المتكرر على أن القصف الكيماوي لم يكن عشوائيا أبدا؟ ثم ماذا تعني "أهداف بعينها"؟ أليست المياه والحقول والمحاصيل الزراعية والبهائم هي أيضا "أهداف بعينها"؟ نعم بالتأكيد. والكاتبان نفسهما يقران بأن القصف الجوي الكيماوي استهدف بجانب التجمعات السكانية خاصة الأسواق، استهدف البهائم أيضا. كما أن الألمانيين كونز وديترمولر يؤكدان في كتابهما على أن من أهم أهداف القصف الكيماوي هو تلويث المياه (العيون والأنهار) والحقول الزراعية. إذن فإن الحرب الكيماوية لم تستثن أحدا ولا شيئا. فلماذا إذن تركيز الكاتبين على مقولة أن القصف الكيماوي لم يكن دون تمييز طيلة سنوات الحرب؟ لنلق الآن نظرة على بعض الأمثلة البسيطة للقصف الكيماوي لكي نرى ماذا يعني القصف غير المكثف بالنسبة للكاتبين. استنادا إلى وثائق القسم التاريخي العسكري، يذكر بلفور في الصفحة 275 من كتابه ما يلي: كان أول خروج في يوم 22 يونيو حيث ألقيت 16 قنبلة من وزن 50 كيلو (من غاز الإيبريت) على المقر العام لعبد الكريم في آيث قمره، 20 قنبلة (من نفس الطراز طبعا) على منزله، 20 أخرى على المصب المنخفض لواد غيس، 12 على ثيزمورين، 9 على القرى بين غيس والنكور، 18 على أجدير، 4 على سوق الأحد، أي ما مجموعه 99 قنبلة من طراز س1، أي ما يعني 5000 كيلو من الإيبريت (في يوم واحد) دون ذكر الأنواع الأخرى من القنابل. في اليوم التالي كان العدد هو 101 قنبلة من غاز الإيبريت. ثم بعد ذلك بشكل يومي بالإضافة إلى قنابل ت.ن.ت والقنابل الحارقة. وفي الصفحة 277 يذكر الكاتب حملة على قبيلة أنجره القريبة من طنجة حيث استعملت خلال مدة 25 يوما ما قدره 3000 قنبلة من طراز س5 (أي 20 كيلو إيبريت) 8000 قنبلة ت.ن.ت (طراز 150 كيلو) و2000 قنبلة حارقة. وفي مارس 1925 كانت كل المناطق الريفية الثائرة قد شملها القصف بالإيبريت(32.

ثم يعزي الكاتبان ما يعتبرونه بأنه عدم استطاعة الطيران شن حرب كيماوية شاملة إلى التأخر الحاصل في تعبئة القنابل والحوادث في مخازن الغاز والأعطاب في المعدات. ويوردان الكثير من التفاصيل في هذا الاتجاه، بل إنه قد يخيل للقارئ في بعض الأحيان بأن الجنود الإسبان كانوا هم أيضا ضحايا الغازات السامة بدرجة معينة. لكن حسب وثائق القسم التاريخي العسكري، يتبين مثلا أن مجموع حالات الجرح في معمل مليلية خلال مدة ثمانية أشهر ابتداء من نهاية سنة 1924وهي الفترة التي عرفت فيه صناعة الإيبريت واستعمالها أعلى معدلاتها، وصلت حالات الجرح 92 حالة (33.لا أقول طبعا بأن ذكر تلك الأحداث والأعطاب والصعوبات ليس مهما في البحث التاريخي لكنها أخذت حيزا في التحليل أكبر من جوانب أخرى قد تكون أكثر أهمية. وإلا فكيف نفسر أن الكاتبين بذلا مجهودا جبارا في التحليل والاستدلال على أن الإسبان قد عانوا الأمرين في الحصول على الغازات، وفي تعبئتها وفي إنتاجها ثم في استعمالها، وأنهم رغم ذلك لم يستعملوها مبكرا ولا ضد السكان في المراحل الأولى، ثم أنهم عانوا كذلك من آثارها، كل هذا ثم لا يكلف الكاتبان نفسهما عناء التقصي في مسألة امتلاك الريفيين للغازات مثلا، ويكتفيان بإشارة جاءت في إحدى الرسائل فاعتبروها دليلا على فرضيتهم.

ملاحظات حول غاز الإيبريت وآثاره:

يشير الكاتبان في معرض الحديث عن تتبع الإسبان للمعلومات عن آثار الإيبريت أثناء العمليات العسكرية إلى أن العسكريين الإسبان قد تنبهوا لضعف هذا التأثير أحيانا بسبب الحرارة المرتفعة في افريقيا. ولذلك فقد أوصت القيادة العامة في مليلية بضرورة القيام بالغارات أثناء الليل أو الساعات الأولى من الصباح حيث يكون الجو أقل حرارة وبالتالي لا يتبخر الغاز بسرعة. الإشارة الثانية عن إضعاف الحرارة لآثار الإيبريت نجده لدى ذكر الكاتبين لرواية لإيدالغو دي ثيسنيروس، حيث يقول هذا الكاتب الذي كان من الطيارين المشاركين في القصف الكيماوي بأنه كان يبدو على الريفيين عدم التأثر بالغازات فكانوا يستمرون في مواقعهم، لدرجة أن أحد العسكريين عبر عن تهكمه موصيا بالإلقاء بدل الإيبريت بالغاسيوسا المليلية التي كانت معروفة برداءتها. ويضيف دي ثيسنيروس بأن عجوزا ريفيا أخبره فيما بعد بأن الإيبريت لم تكن تؤثر في الريفيين بسبب الحرارة. يتحدث هذا الكاتب عن الإيبريت وكأنه مثل أي غاز عادي آخر يتبخر في الهواء. يعبر الكاتبان عن تحفظهما طبعا إزاء هذه الرواية، لكن ثمة مسألة يجب توضيحها هنا. بغض النظر عن كون الإيبريت سائلا، فالحقيقة هي أنه من أقل الغازات السامة قدرة على التبخر والتطاير السريع في الهواء. تعتبر كثافة الإيبريت أثقل وأشد خمس مرات ونصف من كثافة الهواء. ولذلك فإن درجة تطايره ضعيفة، مما يجعله أحد أكثر الغازات استمرارية وديمومة في المجال، وبالتالي فإن درجة تبخره تقل كلما قلت الحرارة. لكن ما أريد أن أؤكده هو أنه حتى في حالات تبخره بسبب الحرارة، فإن درجة خطورته وتأثيره ترتفع بالنسبة للأشخاص المتواجدين في نفس المجال. وكما يشير التقرير المنشور من طرف مكتب الجراح العام للدائرة العسكرية في الولايات المتحدة حول "الجوانب الطبية للحرب الكيماوية والبيولوجية"، فإن خطر الإيبريت يتضاعف كلما كانت درجة الحرارة والرطوبة أكبر (رغم أن ديمومته تقل) ولذلك فإن كمية قليلة جدا من الإيبريت مثلا إذا لامست الجلد في حالة عرق هي أخطر من نفس الكمية أو أكثر في جو أقل حرارة. ويؤكد نفس التقرير أن 80 بالمائة من ضحايا الإصابات بالإيبريت في الحرب العالمية الأولى كانت بسبب التعرض لبخار الإيبريت وليس للسائل (34.

وفيما يتعلق بآثار الإيبريت على المدى البعيد، يؤكد الكاتبان بأن الإيبريت مادة مسببة للسرطان لكنهما في نفس الوقت ينبهان إلى أن درجة تأثير الغاز تختلف إذا كان التعرض له طويلا أو مستمرا خلال مدة (وهو ما أثبت أنه يسبب السرطان) أو إذا كان التعرض له عرضيا أو متقطعا كحالات الحرب. وبالتالي فإنه لم يثبت بأن الإيبريت قد تسببت فعلا بالسرطان عند الريفيين المعاصرين للحرب، كما لم يثبت أن أولئك المعاصرين للحرب والذين أصيبوا بالسرطان كان الغاز هو سبب إصابتهم. كما أنه لم يثبت أن الذين أصيبوا بالسرطان فيما بعد من غير المعاصرين للحرب كانت إصابتهم تلك بسبب الانتقال الوراثي للداء من آبائهم وأجدادهم، خاصة، يقول الكاتبان، وأن تقرير المعهد الطبي في الولايات المتحدة يشير إلى أن المعلومات المتوفرة غير كافية لإثبات هذه العلاقة المباشرة بين الإيبريت والسرطان بالوراثة. إن الكاتبين محقان بالتأكيد في أنه لم تثبت هذه العلاقة طبيا رغم أن هناك ما قد يدفع في هذا الاتجاه. لكني أود أن أذكر ببعض النقاط المنهجية في هذا المجال وهي كالتالي:

أولا، إن المعلومات المتوفرة حول آثار الإيبريت هي موجودة فيما يتعلق طبعا بالآثار الفورية، لكنها قليلة فيما يتعلق بالآثار على المدى الطويل. وذلك راجع إلى أنه من الصعب عمليا تتبع ضحايا حروب قد انتهت منذ عقود (الحرب العالمية الأولى، حرب الريف، العدوان الإيطالي على اثيوبيا ...الخ). لكن ما أريد أن أنبه إليه هو أن الخوض في هذه الدراسات كان إلى حد كبير حبيس الإرادة السياسية، إذ بقي الموضوع متجاهلا عندما لم تكن من مصلحة السياسيين والعسكريين الأمريكيين مثلا إثارة هذه القضية منذ الحرب العالمية إلى التسعينات. وكانت هذه الإرادة السياسية نفسها هي التي سمحت بمباشرة البحث في آثار الغازات خاصة بسبب الحملة التي بدأتها الولايات المتحدة ضد ما يسمى بالإرهاب الكيماوي لبعض الدول والجماعات، وهو ما يفسر ظهور العديد من الدراسات الممولة من الدولة خاصة في التسعينيات من القرن الماضي (أثناء حروب الخليج) حول آثار الغازات وطرق الحماية منها. وتقرير المعهد الطبي نفسه الذي درس آثار الإيبريت والليويسيت على الجنود الأمريكيين الذين استخدموا سرا في تجارب بمعامل الغازات الأمريكية في الأربعينات لم يكن هذا التقرير ممكنا إلا بعد مرور أكثر من 50 سنة والموضوع في سرية تامة (35وكما يوضح كاتبا التقرير، فإنه بجانب الصعوبات العملية التي لاقتها، اكتشفت اللجنة التي عهد إليها بالبحث أن بعض الوثائق والتقارير مازالت لم تكشف وأن جوا من التكتم والسرية مازال سائدا حول تلك التجارب بالإيبريت التي تمت في الولايات المتحدة أثناء الأربعينات (36.

ثانيا، إن من بين ما يمكن أن يطيل أثر الإيبريت هو ديمومة هذا الغاز في المجال والبيئة، ويشير بلفور إلى أن هذه النظرية لم تثبت بعد. لكننا نعلم أن الغاز قد سقط بكميات هائلة في بعض المناطق وأنه معروف بالتصاقه بكل أنواع المساحات من حجر ومعدن وخشب وأشجار وماء، وخاصة الماء بحكم برودته. ومن المعلوم أن الكثير من المواطنين الفرنسيين قد أصيبوا بحروقات بالإيبريت أثناء التسعينات بسبب قذائف إيبريت قديمة بقيت في بعض المناطق منذ الحرب العالمية الأولى.

ثالثا، هناك صعوبات تشير إليها البحوث السابقة الذكر تتعلق بعدم إمكانية معرفة إذا كانت هناك عوامل أخرى عجلت بالإصابة بالسرطان مثل التدخين. وهو ما يجعل الكاتبين يقولان بأنه لا يمكن الجزم بأن الإيبريت كانت المادة التي أصابت الريفيين المعاصرين للحرب بالسرطان. وهذا تحفظ معقول لكن قيمته شبه منعدمة بالنسبة للريفيين المعاصرين للحرب، إذ لا يمكن القول بأن التدخين كان عادة أو منتشرا أصلا عند السكان الريفيين في النصف الأول من القرن العشرين.

خاتمة:

ما حاولت أن أوضحه هو أني أتصور بأن مقال "الحرب الكيماوية في الريف" يعبر عن انتقائية واضحة على مستوى اختيار الوثائق والمعطيات التاريخية وكذلك على مستوى الخط التحليلي الذي يتبعه الكاتبان. وهو اتجاه ساهم في اعتقادي في تحجيم جوانب معينة من الحرب الكيماوية على حساب جوانب أخرى، وهو ما يدعو للتساؤل خاصة وأنه لم تتضح بعد كل خيوط هذه الحرب، وإنه عكس ما يقوله الكاتبان في مقدمة المقال، تبقى العديد من الأرشيفات ومن ضمنها الأرشيفات الإسبانية نفسها دون الكشف عنها بعد، رغم مضي المدة القانونية (بالإضافة أيضا إلى بعض الأرشيفات البريطانية وطبعا المغربية التي لا نعرف إن كانت سترى النور يوما ما). ولا يخفى ما لذلك من أهمية قصوى في تشكيل صورة أكثر وضوحا واكتمالا لمسلسل الحرب الكيماوية في الريف والذي ما زالت تشوبه الكثير من الحلقات المفقودة.

الهوامش

1. Sebastian Balfour, Abra mortal: De la guerra colonial a la guerra civil en España y Marruecos 1909-1939. Barcelona: Ediciones Península, 2002. p.260.
2. Pablo La Porte, La atracción del imán: El desastre de Annual y sus repercusiones en la política europea 1921-1923. Madrid: Biblioteca Nueva, 2001. p.137.
3. Daniel Rivet, Lyautey et l'institution du Protectorat Français au Maroc 1912-1925. Tome3, Harmattan, 1988. p.270.
4. La atracción del imán, p.135.
5. Abrazo mortal, p.223.
6. ibid., p.225.
7. Charles Zorgbibe, Quand les européens se disputaient le Maroc.) www.african-geopolitics.org)
8. ibid.
9. Abrazo mortal, p.249-251.
10. La atracción del imán, p.187.
11. ibid., p.193.
12. ibid., p.191.
13. ibid., p.182.
14. Sebastian Balfour, Chemical Warfare in the 1920s and 30s. History Today, vol. 52, no-6. Juin 2002. p.2.
15. Abrazo mortal, p.249-251, 282.
16. La atracción del imán, p.189.
17- للمزيد من الاطلاع حول هذه النقطة، انظر الكتابات التي تندرج في إطار ما يسمى بالدراسات مابعد الكولونيالية (فرانز فانون، إدوارد سعيد ...)
18. Chemical Warfare in the 1920s, p.2
19. Abrazo mortal, p.263.
20- رودييرت كونز ورولف ديترمولر، حرب الغازات السامة بالمغرب. عبد الكريم الخطابي في مواجهة السلاح الكيميائي. ترجمة عبد العالي الأمراني. منشورات فيديباك، الرباط. 1996. صفحة 58.
21- ميغيل مارتين، الاستعمار الإسباني في المغرب 1860- 1956. ترجمة عبد العزيز الوديي. منشورات التل، الرباط. 1988، صفحات 60-61.
22. Carlos Lázaro Ávila, La forja de la aeronáutica militar: Marruecos. In José Luis de Mesa et al. Las Campañas de Marruecos 1909-1927. Almena Ediciones, 2001. p.183-184.
23. ibid., p.178.
24. Abrazo mortal, p.242.
25- توجد هذه الرسالة في أرشيفات وزارة الخاجية البريطانية. وقد ورد نصها بالكامل بالإنجليزية في كتاب بابلو لابورت.
26- اعتمدت في هذا العرض أساسا على الروايات الشفوية.
27. La atracción del imán, p.137.
28. ibid., p.156-157.
29. ibid., p.156.
30. Ignacio Cembrero, El veneno que llego al Rif desde el cielo. El País, Suplemento Domingo, 10 Febrero 2002. Abrazo mortal, p.296
31. Abrazo mortal, p.248-249.
32. ibid., p.279.
33. ibid., p.282.
34. Frederick R. Sidell, et al. Vesicants. In Russ Zajtchuk and Ronald Bellamy, eds. Textbook of Military Medicine. Part 1: Medical Aspects of Chemical and Biological Warfare. Washington DC: Office of the Surgeon General, 1997. p. 201
35. Constance Pechura and David Rall, Veterans at Risk: the Health Effects of Mustard Gas and Lewisite. Washington DC: National Academies Press. 1993. p.v-x.
36. ibid., p.7.

قراءة في مسار الغزو العربي للغرب الإسلامي

■ فكري الأزناكي

1- حول إعادة كتابة تاريخ المغرب:

يهدف هذا الموضوع إلى الكشف عن وقائع وأحداث تاريخية مهمة غير مصرح بها في المقررات الدراسية ومسكوت عنها في القراءات االرسمية للتاريخ المغربي، ومغيَّبة من القراءات الإيديولوجية ل«الأحزاب السياسية بالمغرب» وتنظيمات سياسية أخرى رسمية وغير رسمية، هذا إن لم نقل إن مختلف هذه التنظيمات لا تملك على الإطلاق قراءة علمية موضوعية للتاريخ المغربي.

إن مطلب إعادة كتابة تاريخ المغرب إذن، ينطلق من قناعات علمية تم التوصل إليها عبر مجهودات دراسية وبحثية وسجالية -ما زالت مستمرة-، إذ للوهلة الأولى يتبين مدى التناقض الكبير بين المصادر المكتوبة – المؤرخة للمغرب- والمصادر العلمية الأخرى، ويبدو أن المشكل في ذلك يعود إلى المؤرخين أنفسهم، كما يقول ابن خلدون، بسبب الجهل بتطبيق الأحكام والوقائع؛ فقد أبانت الكتابات العربية الوسيطية عن عوز تام ونقص جم وغموض مثير وقلة في الأخبار. ويصطدم الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي بصعوبات كبيرة تأخذ منه الوقت الكثير للتوفيق أوللتركيب بين المعلومات التي يوردها كل مصدر، من ناحية الأحداث والوقائع ومن ناحية زمن وقوعها. إلا أن الباحث المهتم بتاريخه الحقيقي يسعى إلى دراسة هذه المصادر بمنهجية صارمة تمكنه من ضبط الحقائق التاريخية وتنقيتها وتحريرها من الشوائب والأهواء والأساطير التي ألبسها إياها التحزب السياسي والإيديولوجي. ويؤكد ابن خلدون في خلاصة نقده للكتابات العربية الوسيطية أن كل إنتاج تاريخي إنما يُصنع من أجل نخبة، وأن هذا الإنتاج ليتعلق تعلقين:

- تعلق بملك أو بأسرة مالكة.
- تعلق أعم، وهو تعلق بأمة مهيمنة، وهذه الهيمنة يعكسها «التاريخ المكتوب» كما تعكسها السياسات الثقافية الأخرى.

2- ملاحظات مفاهيمية:

أ- استعملنا هنا مفهوم «الغرب الإسلامي» لأن المجال المدروس هنا وموضوعه يتحددان زمانيا بفترة النفوذ الإسلامي وتوسعه في العالم، ويتحددان مكانيا بانتماء الدول المغاربية إلى العالم الإسلامي. ويحيل مفهوم الغرب الإسلامي في العصر الوسيط على بلاد «تامزغا»، أو «بلاد شمال إفريقيا» كما يوظفه اللاتينيون.

ب- تكاد تُجمع الإستوغرافيا العربية الوسيطة على وصف الدخول العربي إلى «تامزغا» بالفتح الإسلامي، والفتح الإسلامي يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية، وهي أن يختار الشعب الذي وصل إليه المدّ الإسلامي بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، لكن بقراءة مراحل هذا الدخول يتبين أنه لم يكن الغرض منه هو نشر الدين الإسلامي بقدر ما كانت هناك دوافع خفية حركت الوثبة العربية لاستعمار الشعوب الأخرى. والملاحظ أن مرحلة الفتح الإسلامي (المرحلة الشرقية) تمكنت خلالها الجيوش الإسلامية من إخضاع كل بلاد الشام وبلاد النهرين وفارس بسهولة وسرعة مدهشتين ما بين 632م و656م. أما مرحلة الغزو العربي (المرحلة الغربية) فقد عرفت صعوبات كبيرة ومواجهات عنيفة في مدة زمنية قياسية استغرقت حوالي سبعين سنة، وأغلب فتراتها تمت في عهد الدولة الأموية والتي كانت في أوج قوّتها.

لايمكن أن ننعت دخول العرب إلى الغرب الإسلامي بالفتح الإسلامي، وذلك لاعتبارات نرى أنها كافية لنزع صفة الفتح الإسلامي عنها، معتمدين في ذلك على ما أورده المؤرخون في مؤلفاتهم بتمحيص دقيق ونقد علمي ورؤية منهجية محكومة بالتحلي بالأمانة العلمية. فباستثناء مصر التي أسلمت بطواعية لأنها وجدت من يراقب سلوك الولاة عندما كان عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين والذي مارس مراقبة شديدة على عمرو بن العاص لئلا يخالف ما عاهدوا عليه المسلمين بمصر، فإنه بانقضاء خلافة عمر بن الخطاب يتغير وجه السياسة الإسلامية تجاه المغرب. حيث دخل العرب بالسيف والقوة، دون إعطاء فرصة للحوار أو للتفاهم على رغبات كل طرف.كما أن السياسة الأموية فرضت الجزية على ءيمازيغن رغم إسلامهم، وهذا ما لم يأت به الشرع الإسلامي وما لم يعرفه تاريخ الإسلام قبل مقتل عمر بن الخطاب. فكيف هي طبيعة هذه السياسة ومظاهرها؟ وإلى أي حد لم تحترم السلطة العربية مبادئ الفتح الإسلامي أثناء غزو العرب للغرب الإسلامي؟ كل ذلك نستنتجه من خلال هذه الأحداث والوقائع التي تمخضت عن التوسع العربي.

3- البدايات الأولى للغزو العربي والتوسع نحو المغرب:

ترجع البدايات الأولى لغزو «تامزغا» إلى محاولات عمرو بن العاص دخول بلاد مصر. ويختلف المؤرخون حول طريقة هذا الدخول ومن أمر به، فهل كان عمر بن الخطاب هو من أمر عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر أم أن عمرو بن العاص هو من جعل يحبب هذه الخطوة إلى الخليفة ويحرضه على فعل ذلك، خصوصا وأن عمرو استطاع أن يزور مصر في الماضي قبل ظهور الإسلام، حيث تمكن من معرفة خططها وطرقها وخيراتها مما أوحي له بسهولة الدخول بالجيوش الإسلامية وإخضاعها للدولة الإسلامية. كما يختلف المؤرخون حول ما إذا كان عمرو بن العاص قد استأذن عمر بن الخطاب قبل التقدم بالجيوش نحو مصر أم استأذنه بعد أن دخل مصر، وقد أورد ابن عبد الحكم كلاما استقاه من الكتاب الذي أرسله خليفة المسلمين إلى عمرو بن العاص يقول فيه:« إن أدركك كتابي أمرك بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره» (ابن عبد الحكم: فتوح مصر وافريقية، ص56-55).

ويضيف ابن عبد الحكم بأن الكتاب:«أدرك عمر برفح، فتخوّف إن هو فتحه أن يجد فيه الانصراف فدافع الرسول حتى نزل قرية بين رفح والعريش، فسأل عنها، فقيل إنها من أرض مصر. فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى، قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلَيّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله» (ابن عبد الحكم، ص 57-58). من خلال هذا النص يتبين أن ثمة دوافع خفية غير معلنة جعلت عَمرو بن العاص لا يقرأ رسالة عمر بن الخطاب حتى لا يثير سخط المسلمين بمخالفة أوامر الخليفة، ولذلك يرجَّح أن يكون عمرو بن العاص أول من فكر في تغيير مضمون الفتح الإسلامي ليصير غزوا عربيا، أي عدم الإقتصار على العهد الذي لا يعود عليهم بالنعم المادية والسياسية.



لكن فطنة المصريين كانت أقوى، إذ يؤكد ابن عبد الحكم أنهم استقبلوا العرب استقبالا ينم عن الترحاب والفتح، رغبة في القضاء على حكم الروم بمصر، وأنه «كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبوميامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، كتب إلى القبط يعْلِمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال آن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو» (فتوح مصر، ص 73).

ويقول ابن عبد الحكم كذلك إن المصريين ساعدوا العرب في الاستيلاء على حصن بابليون، كما خرج مع عمرو بعد ذلك «جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم» (فتوح مصر، ص 83). لقد اختلف المؤرخون حول هذا الموضوع كثيرا: هل فتح مصر كان عنوة أم صلحا؟ ذلك ما جعل ابن عبد الحكم يحسم هذا الإشكال بقوله: «حدثنا يحيى بن خالد عن رشيد بن سعد، عن عقيل بن خالد عن شهاب أنه قال: كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة، فجعلها عمر بن الخطاب جميعها ذمة، وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم إلى اليوم» (فتوح مصر، ص 70).

لقد جرت سياسة عمر بن الخطاب التي طبقها على مصر في نطاق التطبيق التشريعي القاضي بأن تُترك الأرض المفتوحة بيد أصحابها وتدبير شؤونها بما يصلح لمصر وأهاليها، ويصلح للدولة الإسلامية. والأرض المفتوحة عنوة يقتسم المسلمون غنائمها فهي فيء لهم، أما الأرض المفتوحة صلحا فتكون على أساس الصلح بالجزية، ولذلك صالح عمر أهل مصر على دينارين دينارين. وأما الأرض المفتوحة بإسلام أهلها فتجري عليها الضرائب الشرعية كالعشر. ولذلك أقدم المصريون على الإسلام تباعا لتسقط عنهم الجزية. ومع مرور الزمن بدأت الدولة العربية تتسع وتتضخم لتتضخم معها النفقات. كما تحولت الخلافة من التطبيق التشريعي الحقيقي إلى خلافة قائمة على الترف والبذخ والاغتناء والزيادة في الأموال على حساب المسلمين، وبتناقص الجباية بدخول المصريين في الإسلام أخذ الخلفاء والولاة وعمال الخراج في التشديد على الزيادة في الأموال والجبايات. لكن المشكل الذي أعاقهم قليلا في سياستهم الجديدة هذه هو الصلح الذي صولح عليه المصريون. فانقسم المسلمون إلى قسمين: هناك من رأى أن يحل مشكل نقص الموارد المالية على حساب الدولة، كوردان بن يزيد الذي سأله معاوية أن يفرض على كل مصري قرطا، فأبى وكتب إليه: «كيف تزيد عليهم وفي عهدهم ألا يُزاد عليهم شيء؟» (فتوح مصر، ص-151 152)، فعزله معاوية. وهناك من اقترح أن تُجبى جزية القبط الموتى من الأحياء. وفي الأخير يستقر رأيهم على أخزى حل يقترحه المسلمون آنذاك وهو نقض العهد الذي عوهد به الفتح، فادعوا أن البلاد «فتحت عنوة وأنه ليس لها عهد، وإنما هي فيء لهم أن يقتسمونه، وإنما أصحابها عبيد أو بمنزلة العبيد» (فتوح مصر، ص91). وأكثر من ذلك فقد التجأ الحجاج بن يوسف الثقفي إلى أساليب العنف والقهر لتطوير مالية الدولة في عهد الأمويين، وذلك بأن أجبر كل من أسلم على دفع الجزية. يقول ابن عبد الحكم: « وأول من أخذ االجزية ممن أسلم من أهل الذمة... الحجاج بن يوسف» (فتوح مصر، ص 102).

وسيرا على نهج سياسة الاستمرار في التوسع غربا، وجه عمرو بن العاص حملاته نحو برقة التي آثرت دفع الجزية على الحرب بمقدار ثلاثة عشر ألف دينار، وقد فرض عمرو على ءيمازيغن ببرقة دفع الجزية جبريا وإلا فإن على الأهل أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم، وكان جابي الخراج لا يدخل برقة لأن أهلها كانوا يرسلون جزيتهم في وقتها.

وبعد أن تمكن عمرو من برقة، زحف إلى طرابلس لغزو إفريقية (تونس)، فتبين له مدى شدة وصعوبة إخضاع إفريقية، واقتنع أنه في حاجة لدعم كبير، فمال إلى مكاتبة الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في دخول إفريقية. لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا هو: لماذا لم يستأذن عمرو بن العاص خليفة المسلمين قبل أن تصعب عليه المهمة التي حببها إلى نفسه؟ إنه لمن المؤكد أن عمرو بن العاص، وحتى لا يظهر بمظهر المتعجرف والمتحمل لمسؤولية ما قد تسفر عنه الحرب في هذه المنطقة المنيعة من نتائج مكلفة، أراد أن تكون لعمله هذا شرعية ينتزعها من الخليفة، فإن انتصر في الحرب فإن المجد سيكون له، وإن انهزم فالعار يعود على الخليفة. لكن حنكة عمر بن الخطاب كانت أبعد عن الدوافع الغريزية التي تذكي الشهوة الإعتدائية، فلنقرأ النصين الآتيين بتمعن، تقول رسالة عمرو بن العاص إلى الخليفة: « إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعَل» (فتوح مصر وإفريقية، ص173)، وأجابه عمر بن الخطاب بما يلي: «لا، إنها ليست بإفريقية، ولكنها المُفرّقة، غادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت» (ابن عبد الحكم، ص173)، فلما تلقى عمرو هذا الجواب عاد إلى مصر، ونصَّب عقبة بن نافع قائدا له في هذه المنطقة، ليشنوا بين الفينة والأخرى الغارات التي تصيب الغنائم وتعود بها (نفس المرجع والصفحة).لكن موقف عمر بن الخطاب سيتبدل مباشرة بعد استشهاده، وصعود عثمان بن عفان لتولي الخلافة، إذ قام الخليفة الجديد بعزل عمرو بن العاص وأقام مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة الذي أسلم خلال عهد الرسول (ص) ثم ارتد عن الإسلام، فأهدر الرسول (ص) دمه، لكنه عاد إلى الإسلام بفتح مكة. هذا الوالي الجديد كانت سياسته قائمة في البدء على أمر الجنود بالإغارة على إفريقية والعودة بالغنائم، بعد ذلك -في المرحلة الثانية- استأذن الخليفة عثمان بغزو إفريقية فأذن له، وبعث عثمان لأبي سرح بجيش يُقدر ب 20 ألفا، ليتقدم به مع الجنود الذين كانوا معه بمصر باتجاه إفريقية. هذا الزحف يقول فيه ابن عبد الحكم: « فلقيه جرجير فقاتله فقتله الله، وكان الذي قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير وهرب جيش جرجير، فبعث عبد الله بن سعد السرايا وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة. فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم. فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر. ولم يوَلّ عليهم أحدا ولم يتخذ بها قيروانا» (فتوح مصر وإفريقية، ص183).

يبدو واضحا أن ابن عبد الحكم يشكك في صحة أن عبد الله بن الزبير هو من قتل جرجير (وكان الذي قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير)، بينما البلاذري يؤكد عكس ابن عبد الحكم، كما أن بعض المؤرخين المحدثين تبنوا نفس الموقف الذي لدى ابن الحكم، كحسن مؤنس، وسعد زغلول عبد الحميد. وكيفما كان الأمر، سواء أكانت الرواية من اختلاق الرواة وسواء أكانت الرواية صحيحة، فالمهم أن عبد الله بن الزبير من خلال تصرفاته وتحركاته ومواقفه السياسية كان يهدف إلى إعطاء نوع من الهالة لنفسه لأنه كان يطالب بالخلافة، وبالطبع فإن قتل جرجير يزيده فخرا وهيبة لدى المسلمين. كما أنه معروف عليه معارضته خلافة علي بن أبي طالب ، والتي انتهت بالمواجهة بينهما في معركة الجمل سنة 360ه. وعارض كذلك خلافة معاوية بن أبي سفيان، وتم القضاء عليه من طرف عبد الملك بن مروان.

والنص يوضح لنا النتائج التي تمخضت عن الحملة والتي تتمثل في مقتل جرجير والي إفريقية، والحصول على غنائم كثيرة بالإضافة إلى الجزية. وقد اكتفى عبد الله بن سعد بالغنائم التي حصل عليها وانسحب من المنطقة عائدا إلى ولايته دون أن يضمها إلى الدولة الإسلامية، ولم يُقِم بها مركزا عسكريا (ولم يتخذ بها قيروانا). لقد علل المؤرخون هذا التصرف بطول المدة التي استغرقها القائد وهو بعيد عن مقر ولايته والتعب الشديد الذي أصاب الجند. وهذان المعطيان يوضحان صعوبة الدخول إلى المنطقة. ويجمع المؤرخون والباحثون أن حملة عبد الله بن سعد حملة غنائم مثلها مثل الحملات الخفيفة والسريعة التي كانت تقوم بها جرائد الخيل في أطراف إفريقية منذ عهد ولاية عمرو بن العاص. لقد كان هدف هذه التحركات إذن هو المزيد من الغنائم وليس بدافع ديني يهدف إلى تعريف السكان بالدين الجديد ومبادئه وشرائعه. وتبقى أهم نتائج هذه الحملة هي تمكين الجيش العربي من الاطلاع عن كثب على أحوال المنطقة من حيث مؤهلاتها الاقتصادية ومكوناتها الطبيعية والبشرية، فكانت هذه المعطيات مثيرة لجشع الغزو العربي بتقدير الأهمية الكبيرة لهذه المؤهلات الغنية، كل ذلك دفعهم إلى التهيىء أكثر للقيام بحملات عسكرية قصد غزوها.

لقد كانت هذه هي المرحلة الأولى من مراحل الغزو، حيث اقتصرت على الاغتنام والاستكشاف في أفق معرفة دقيقة بمكامن القوة والضعف بالمنطقة.

4- الغزو المنظّم للغرب الإسلامي

وبانتقال الخلافة الإسلامية إلى الأمويين يبدأ التفكير جديا في الغزو المنظم بالغرب الإسلامي ابتداء بحملة معاوية بن حديج سنة 45ه على ساحل سوسة، هذه الحملة شبيهة بحملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، إذ انسحب معاوية من هذه المنطقة بعد حصوله على االغنائم. لم يستطع معاوية أن يتم غزو إفريقية فعزل سنة 50ه/ 969م. فتمت تولية عقبة بن نافع الفهري واليا على إفريقية.

بتولية عقبة تبدأ مرحلة الغزو المنظم، إذ سيستغل كل التمويلات والعدة والعتاد الذي كان يصله من مركز الخلافة للقيام بالغزو، واستعمل في سياسته أسلوب القوة والعنف ضد المناطق التي يصل إليها. وفي سنة 55ه يقوم معاوية بن أبي سفيان بعزل عقبة بعد سعايا مسلمة بن مخلد الأنصاري -والي اليمن- حيث لم يرتح لسياسة عقبة المنافية للتطبيق االتشريعي. وأقام مسلمة على إفريقية مولى له يدعى أبا المهاجر دينار، هذا الأخير استند في حملاته على أسلوب الحوار والترغيب وشرح الدين وتفصيله، فاعتمد على الحماس الديني الذي سمح لعدد كبير من ءيمازيغن بالإقبال على الإسلام أفواجا أفواجا، ومن ضمنهم قائدهم كسيلة. وقد حرص أبو المهاجر على ألا يتبع سياسة عقبة التي كرهها كليا. ويخبرنا ابن عبد الحكم قائلا: « فلما قدم أبو المهاجر إفريقية كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ومضى حتى خلّفه بميلين، فابتنى ونزل، وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون إلى الفسطاط. وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا» (فتوح مصر وإفريقية ص197). ومع ذلك نشير إلى أن أبا المهاجر اضطر للنزول إلى ميدان القتال عندما توجه إلى قرطاجنة، انتهى بهم الأمر إلى

المصالحة على أن يخلوا لأبي المهاجر جزيرة سمّوها «شريك العبسي». وبموت مسلمة بن مخلد ينتهي دور أبي المهاجر إذ عزله يزيد بن معاوية، وولى مكانه عقبة بن نافع ولاية ثانية سنة 62ه.

ظل عقبة حاقدا على أبي المهاجر، لذلك قام بالقبض عليه، وقيل بأن عقبة أغرى أبا المهاجر معه حتى وصل إلى السوس الأقصى وهو موثق ومكبل بالحديد، وقد وصل كرهه إلى حد الحقد على كل الإيجابيات التي حصل عليها أبو المهاجر، كما لم تعجبه سياسته تجاه ءيمازيغن واستمالتهم إليه، ومن ذلك إساءته معاملة كسيلة أمام شعبه واحتقاره له. وفي ذلك يقول ابن عذاري المراكشي: « وذلك أن أبا المهاجر في ولايته لإفريقية، كان نهض إلى المغرب، فنزل عيونا عند تلمسان، تعرف الآن بعيون أبي المهاجر. فزحف منها إلى كسيلة، وهو في عدة من قبائل البرانس. فظفر به أبو المعاجز، وعرض عليه الإسلام، فأسلم. وأحسن إليه أبو المهاجر واستبقاه. فلما قدم عقبة وعزل أبا المهاجر، عرفه بحال كسيلة، وأنه من ملوك البربر، ولم يستحكم الإسلام بقلبه. فاستخف به عقبة. وأتى عقبة يوما بذَوْدٍ غنم، فأمر بذبحها للعسكر، وأمر كسيلة أن يسلخ منها مع السلاخين، فقال كسيلة: أصلح الله أمير المؤمنين! هؤلاء فتياني وعبيدي يكفونني المونة. فقال عقبة: لا! فقام كسيلة مغضبا، فكان كلما دحس مسح لحيته، فجعل العرب يمرون به، فيقولون: يا بربري! ماذا تصنع؟ فيقول: هذا جيد للشعَر! حتى مر به شيخ من العرب، فقال لهم: كلا! إن البربري يتوعدكم! فقال أبو المهاجر لعقبة: بئس ما صنعت! كان رسول الله -صلعم- يتألف جبابرة العرب، وأنت تأتي إلى رجل جبار في قومه، في دار عزه، قريب العهد بالشرك، فتهينه! فتهاون عقبة بكلامه، فانتهز كسيلة فرصة فنكث، وقام في أهل بيته وقبائله من البربر» (ابن عذاري، البيان المغرب، ص -28 29). هذا الموقف المتغطرس، الذي أبداه عقبة، أدى إلى نشوب معركة بينهما في سنة 63ه، كان لها وقع كبير، حيث قُتِل عقبة وعدد كبير من جنوده وأسر الآخرون الذين فداهم صاحب قفصة ليرسلهم إلى زهيَر بن قيس. كما حرر كسيلة القيروان سنة 64ه، وبذلك يكون قد وضع حدا لعمليات الغزو التي استمرت أربعين سنة.

بعد موت عقبة صارت قيادة الحملات الأموية بتامزغا بيد زهير بن قيس الذي أمره عبد الملك بن مروان بالخروج إلى إفريقية مزوّدا إياه بالخيل والرجال والأموال، ويصف ابن عذاري الموقعة التي دارت بين كسيلة وزهير إذ يقول: «فالتقى الجمعان، والتحم القتال بين الفريقين، ونزل الضر وكثر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة. فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل» (نفس المصدر، ص32)، ويضيف قائلا إنه خرج إلى برقة «في مواكب كبيرة وقوة عظيمة. فأغاروا على برقة، فأصابوا فيها سبيا كثيرا، وقتلوا ونهبوا» (نفس المصدر، ص33). لكن حملته تنتهي بالفشل عندما بدأ بالزحف على إفريقية حيث اصطدم بالروم وهم في عدد عظيم، «والتحم القتال وتكاثر عليهم الروم، فقتل زهير -رض- وأشراف من كان معه من العرب» (نفس المصدر والصفحة).

لقد اعتبر العرب مقتل زهير مصيبة لحقت بهم مثل مصيبة مقتل عقبة. لذلك اجتمعوا للتداول في أوضاعهم فكاتبوا عبد الملك بن مروان لكي يهتم بإفريقية ويسد ثغرها، ويصلح أمرها. فقال لهم عبد الملك: « ما أرى أحدا كفؤا لإفريقية كحسان بن النعمان» (نفس المصدر والصفحة) فجعله قائدا على عسكر بلغوا أربعين ألفا، وأمره بالزحف إلى إفريقية، فقدم إلى قرطاجنة ونزل عليها «فحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف. فقتلهم قتلا ذريعا، وسباهم ونهبهم. وأرسل لمن حواليها، فاجتمعوا إليه مسارعين، خوفا من عظيم سطوته، وشدة بأسه. فلما أتوه، ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها. فخرّبوها حتى صارت كأمس الغابر» (نفس المصدر، ص35).

مرت حملة حسان بن النعمان بمرحلتين اثنتين:

- المرحلة الأولى:

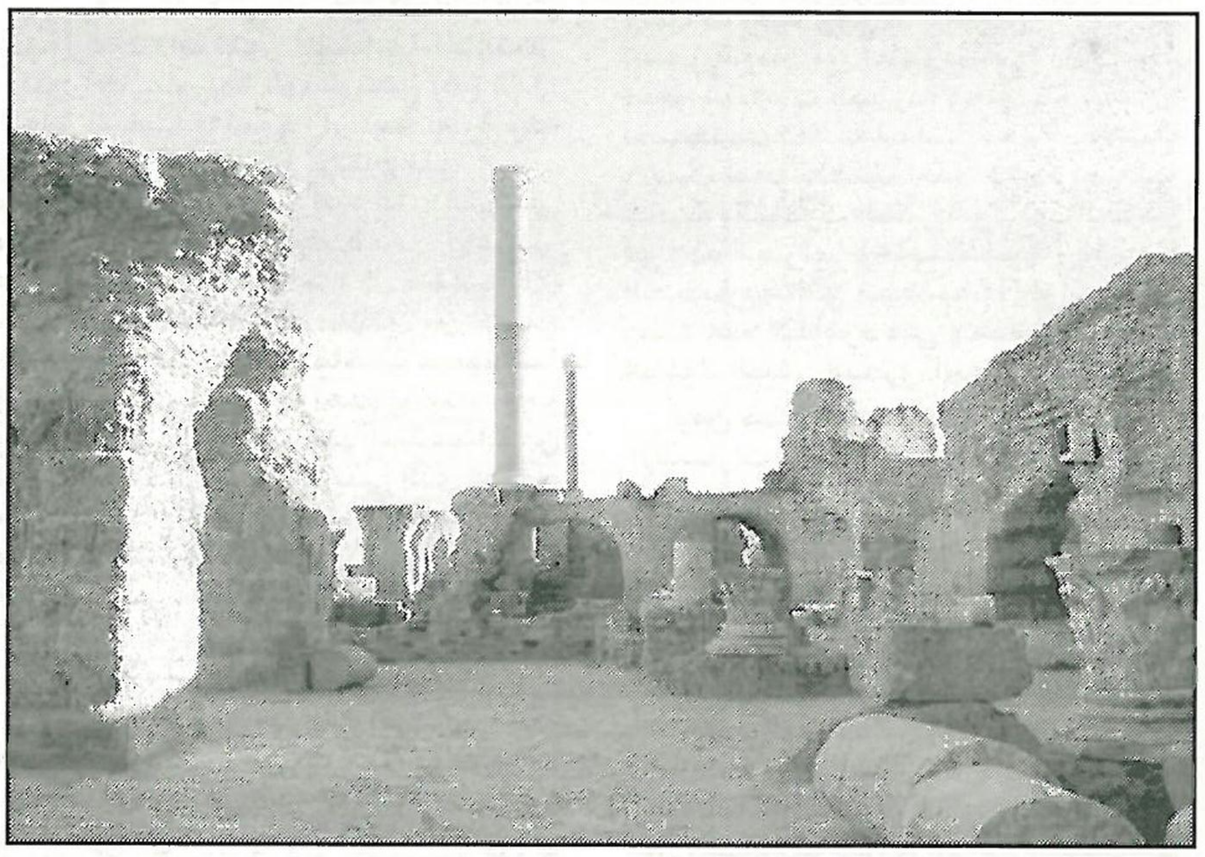
استطاع خلالها حسان أن يدخل القيروان وقرطاجنة، فتوجه بعد ذلك لملاقاة الملكة دهية، وانتهى هذا اللقاء بأن ألحقت به الملكة دهية هزيمة شديدة، فارتد حسان هاربا إلى طرابلس، فخرج من إفريقية تاركا عليها أبا صالح. يقول ابن عبد الحكم: «وغزا الكاهنة، وهي إذناك ملكة البربر، وقد غلبت على جل إفريقية فلقيها على نهر يسمى اليوم نهر البلاء، فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمته وقتلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانية رجال، وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى طرابلس...» (فتوح مصر وإفريقية، ص200).

لم يكن حسان على وعي تام بشدة هذا الشعب المتحضر، ويبدو أنه قد تمكن منه الغرور إلى حد أعماه عن واقع ءيمازيغن الذين اعتبرهم مجرد عبيد تُسَخّر طاقاتهم للإنتاج والعمل، يشرف عليهم الوالي نائب الإقطاعي الأكبر الذي يستقر في مركز الخلافة البعيدة عن كل ارتباط تاريخي ولغوي وعرقي بهذا المجال الجغرافي الغربي. هذا النائب أو الإقطاعي الأصغر يضمن للخليفة الخيرات والنعم الكثيرة مثل المواد الفلاحية والمعدنية والمسبيات الأمازيغيات إرضاء لجشعه وسعيه إلى الترف والبذخ. وهذا الاستخفاف الذي يبديه حسان وخليفة المسلمين تجاه ءيمازيغن يوضحه ابن عذاري ويخبرنا به حيث يقول: «ولما دخل حسان القيروان، أراح بها أياما. ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية، ليسير إليه، فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل أوراس، يقال لها الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون . «فإن قتلتها، دان لك المغرب كله، ولم يبق لك مضاد أو معاند» فدخل بجيوشه إليها» (البيان المغرب، ص 35). لكن الواقع ينقلب عليه ويتحرر من ذلك الخيال والغرور الجامح ويعود إلى صوابه، «فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم» (نفس المصدر، ص36). أما خيرات تامزغا التي فتحت شهية العرب فإن ابن عذارى يخبرنا حولها بما يلي: « قالت (أي دهية) للبربر: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر!» فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله» (نفس المصدر، ص36).

ومن زاوية أخرى فلننظر جيدا في نوعية التعامل مع الآخر من كلا الطرفين، فإذا كان العرب قد اعتبروا ءيمازيغن مجرد خدام وقوة عمل للخليفة وولاته -مثلما فعلوا مع كسيلة عندما أمره عقبة بسلخ الأغنام- فإن ءيمازيغن كانوا يتعاملون مع أسرى الحرب -العرب- بطريقة إنسانية حضارية عظيمة، فلنستمع لابن عذاري الذي قال: «وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلا من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يوما: (...) أريد أن أرضعك، فتكون أخا لولدي! (...) وقالت له: نحن جماعة البربر لنا رضاعٌ، إذا فعلناه، نتوارث به! ففعلا، فقالت: قد صرتم إخوة» (نفس المصدر، ص 37).

- المرحلة الثانية:

انسحب العرب من تامزغا لمدة زمنية قدرها خمس سنوات محتفظين ببرقة فقط، أقاموا فيها وبنوا القصور -المسماة بقصور حسان- ولما انقضت السنوات الخمس بعث عبد الملك بن مروان بالجيوش والمؤن الهائلة أمرا



حسان بن النعمان أن يتحرك بهذه الحملة للإنتقام، وقد انتهت حملتهم هذه بمقتل الملكة دهية، لكن ما كان للعرب أن يحققوا ذلك النصر الذي اعتبروه عظيما لولا أسلوبهم المتسم بالغدر والشماتة، وعدم الإعتراف بالجميل؛ ذلك أن دهية رغم حدة بصيرتها وذكائها واستعطافها لخالد بن يزيد الذي جعلته ابنا ثالثا لها، فإن هذا الأخير رد الجميل بالقبح وإنكار المعروف والإحسان، وجازى الملكة دهية بالغدر والشماتة حيث أفشى سرها وخططها التي أعدتها للحرب، مناطق القوة والضعف، فاستغل حسان ذلك معتمدا على توضيحات خالد بن يزيد فزحف بجنوده عليها. «وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم، ورحل إليها حسان، فلما كان الليل، قالت لابنيها: «إني مقتولة»، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدي العرب» (ابن عذاري، ص37). ولما سمع ذلك أولادها قال لها خالد بن يزيد: «فارحلي بنا، وخلّي له عن هذه البلاد»، فامتنعت ورأته عارا لقومها، فقال لها خالد وأولادها: «فما نحن صانعون بعدك؟»، فقالت: «أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم» (نفس المصدر، ص38). ولما انتهى القتال بانهزام دهية وقتلها، كان مع حسان «جماعة من البربر استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب» (نفس المصدر والصفحة).

ولما رأى عبد العزيز بن مروان -كان واليا على مصر- ما درج عليه حسان سعيا وراء الإغتناء والترف والكسب غير المشروع، والذي لم يأت به الشرع الحنيف، عزل حسانا من ولايته على إفريقية. يقول ابن عذاري: « فعزل حسانا وأمره بالقدوم عليه، فغنم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان، أخو عبد الملك، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة، فجعله في قرَب الماء، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة، وأنواع الدواب، والرقيق، وسائر أنواع الأموال. فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان، أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر. فسلبه عبد العزيز جميع ما كان له من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان. ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له، حتى قدم على الوليد، فشكا ما صنع به عبد العزيز. فغضب الوليد على عمه عبد العزيز، ثم قال حسان لمن معه: « ائتوني بقرب الماء»، فأفرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد. وعجب من أمر حسان، فقال له الوليد: «جزاك الله خيرا، يا حسان» (نفس المصدر، ص39)، وقال له أيضا: « أنا أردك إلى عملك، وأحسن إليك، وأنوِّه بك» (نفس المصدر والصفحة).

بعد عزل حسان ولي مكانه موسى بن نصير الذي قاد حملته حوالي سنة 90ه، ليستكمل عملية الغزو؛ إذ لم يبق إذناك عند توليته سوى المغرب الأقصى الذي دخله موسى دون أن يعترضه في الطريق أحد. ونعتقد أن السبب في ذلك هو كون ءيمازيغن قد أسلم جلّهم معتقدين أن الغزو إنما هدفه نشر الإسلام والتعريف به فقط -وهذا ما فنده الواقع-، وأما السبب الأكثر صوابا لتفسير غياب المقاومة في هذه الحملة فهو انضمام مجموعة من القادة الأمازيغ إلى الدعاة المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية التي فهموها في جوهرها لا في مظهرها. ومن هؤلاء القادة طارق بن زياد الذي آمن بعدم تعارض مبادئ الدين الجديد مع أسلوب حياة وعيش ءيمازيغن، بل إن هذا الدين جاء لتأكيد المبادئ الإنسانية التي يتحلى بها ءيمازيغن. هذا وإن ولاية طارق بن زياد على قومه زادتهم إيمانا بالدين الإسلامي. يقول ابن عذاري: « وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85ه. وفي هذا التأريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحوّلوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات. وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة» (ص 43).

والملاحظ أن ءيمازيغن رغم إسلامهم وإيمانهم بروح الدين الإسلامي وقواعده وتصوره، وتفرغهم لمعرفة الفريد عنه والعمل على تطبيقه، فإنه في الجانب الآخر، نجد ابتعادا عن مبادئ هذا الدين ممثلا في شخص موسى بن نصير ورجاله، إذ استمروا في الإغارة والقتل والتشريد والسبي، فقد سبى من زغوان -بنواحي القيروان- عشرة آلاف، وبعث بابنه عبد الله إلى إفريقية فسبى مائة ألف رأس. ويقول ابن عذاري: « قال ابن قتيبة: فتح موسى بن نصير سجومة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة: عياضا وعثمانا وأبا عبده، أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم، فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم» (ص41). ويقول كذلك: « ثم فتح موسى هوارة وزناتة وكتامة، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس» (نفسه).

ولعله من المفيد هنا أن نوضح بعض الكلمات التي كشف ترد تكرارا في هذه النصوص من قبيل «السبي»: الذي يخصص للنساء لأنهن يسبين القلوب أو يسبين فيملكن، والغالب اختصاص الأسر بالرجال والسبي بالنساء، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر:

فعادوا بالغنائم حافلات
وعدنا بالأسارى والسبايا

والسبي والأسر يدخلان في إطار الغنائم. وهناك كلمة أخرى وهي «وصيف»: الوصيف هو الغلام دون المراهق، و«الوصيفة»: الجارية دون المراهقة. ومن ذلك نقرأ ما يلي عند ابن عذاري: « قال مروان بن موسى لرجاله:« مرُوا لكل من خرج مع والدي بوصيف أو وصيفة». وقال موسى: « مروا أنتم لهم من عندي بمثل ذلك». فرجع الناس كلهم بوصيف أو وصيفة» (ص44).

وقد قال موسى يوما لأصحابه: « أصبحت اليوم في ثلاث نعم: منها كتاب أمير المؤمنين بالشكر والثناء، ثم كتاب ابني عبد العزيز يصف ما فتح الله عليه في الأندلس بحمد الله تعالى!، وأما الثالثة، فأنا أريكموها». وقام، فأمر برفع ستر، فإذا فيه جوار مختلفات كأنهن البدور الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر، عليهن الحلي والحلل» (البيان المغرب، ص44).

واستمرت سياسة ولاة بني أمية في السعي نحو الاغتناء والترف غير المشروع إلى غاية مجيء الخليفة عمر بن عبد العزيز صاحب القولة الشهيرة: «إن الله قد بعث محمدا هاديا ولم يبعثه غازيا»، ففي سنة 100 «ولي إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فكان خير أمير وخير وال. وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه، في دولة عمر بن عبد العزيز. وهو الذي علّم أهل إفريقية الحلال والحرام» (البيان المغرب، ص48).

ولما توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 101، ولي الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك، وهو الذي جعل يزيد بن أبي مسلم -مولى الحجاج بن يوسف وصاحب شرطته- واليا على إفريقية. ويلخص ابن عذاري سياسة يزيد بن أبي مسلم بكونه «كان ظلوما غشوما، وكان البربر يحرسونه، فقام على المنبر خطيبا فقال: «إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديكم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره «حرسي»، ليعرفوا بذلك بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد، أسرع لما أمرت به». فلما سمعوا ذلك منه، أعني حرسه، اتفقوا على قتله، وقالوا: «جعلنا بمنزلة النصارى»» (نفسه).

4- خلاصات:

ابتدأ أول دخول للمسلمين إلى الغرب الإسلامي سنة 20ه، في عهد عمر بن الخطاب، تحت قيادة عمرو بن العاص. ولقد وجد المصريون في هذا الدين الجديد خلاصا لهم من ظلم الروم، وهذا التطلع إلى الإسلام من قبل المصريين جعل «الفاتحين» لا يلاقون مقاومة شديدة سواء من المصريين أو الروم. وبعد استقرار قصير بمصر قام العرب بحملات أخرى حتى إفريقية، وكان الظن الذي غلب على هؤلاء «الدخلاء» أنهم إذا تخلصوا من الروم فإن ءيمازيغن سيستسلمون بسهولة وبدون مقاومة أو قلاقل. لكن دهشتهم كانت أكبر عندما بدأوا بغزو باقي المناطق حيث وجدوا أنفسهم أمام شعب آخر مغاير ومتميز عن باقي الشعوب الأخرى، كما يقول ابن خلدون: «المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار» (العبر، طبعة بولاق، 1284ه، ج6، ص98). إنه شعب مقدام، شديد في الحروب والمقاومة ودفع العدوان. فقد كلف اصطدام العرب بإيمازيغن الكثير من الجنود والقادة والولاة، وطول المدة الزمنية والنفقات المالية الباهظة. وقد بدأ الغزو الفعلي سنة 50ه مع عقبة حينما صار واليا على إفريقية وبنائه لمدينة القيروان لتكون مركزا وقاعدة تنطلق منها الحملات الحربية وإمداداتها، معتمدا في حملاته هذه على الأسلوب البغيض، أسلوب القوة والتعنيف، قاصدا من وراء هذا أن تأخذ حملته صفة «الفتح عنوة» حتى تصير تامزغا فيئا ل «المسلمين» يقتسمون خيراتها، وهذا ما يضمن السيادة الكاملة لعقبة على هذا المجال الجغرافي البعيد عن مركز الخلافة. واستمر الصراع بين إيمازيغن والعرب، الصراع بين الحياة والبقاء والعيش الكريم بالنسبة لإيمازيغن، وبين الغزو وصنع الأمجاد على حساب كرامة الشعوب بالنسبة للعرب.

لكن تشاء الأقدار أن يقترب ءيمازيغن من فهم الدين الإسلامي ويتأكدوا من أن مقاومتهم هذه مقاومة شرعية إذا قيست على المبادئ التي جاء بها الإسلام، ومقاومتهم للعرب ليست رفضا للدين الإسلامي بقدرما هي رفض لا رجعة فيه للسياسة الاستعمارية المتمثلة في الولاة وعمالهم وجنودهم الذين ابتعدوا عن التطبيق التشريعي الصحيح. ويبدو أن ولاية أبي المهاجر دينار وسياسته تجاه ءيمازيغن، الهادفة إلى نشر الإسلام باعتماد أسلوب الملاينة والموادعة وشرح الأهداف التي جاء من أجلها المسلمون إلى هذه البقعة الجغرافية، كانت كافية ليقبل ءيمازيغن دخول أبي المهاجر الغرب الإسلامي، فتعاونوا معه من أجل تحقيق هذا الهدف النبيل الذي يقوم على احترام الشعوب والإقرار بالمساواة والعدل والحرية... التي هي من القيم الأساسية لإيمازيغن عبر التاريخ. وبهذا المنطق لاحظنا الانتفاضات الأمازيغية ورفض سياسات بعض الولاة كعقبة في ولايتيه الأولى والثانية، وزهير وحسان... هؤلاء كانت لهم أهداف غير شرعية، فكان ءيمازيغن في كل مرحلة يعقدون مقارنات بين ما هم عليه من إشكالات وظواهر وسياسات وسلوكات، وبين ما هو عليه أمر الإسلام الحقيقي، فيتصرفون وفق ما يمليه عليهم فكرهم وفهمهم للدين، إلى جانب آراء الفقهاء والعلماء الذين تفرقوا في البلاد، حيث مكنتهم إقامتهم في المغرب من معرفة وتعلم لغة ءيمازيغن، فكان ذلك هو الطريق السليم والصائب الذي يوصل تعاليم الدين الحنيف إلى القلوب. وبذلك تمكنت مبادئ الدين القويمة من صدور المغاربة.

إن إخلاص ءيمازيغن للإسلام جعلهم يساهمون في العمل على نشره إلى باقي المجالات الجغرافية العالمية كبلدان إفريقيا السوداء وشبه الجزيرة الإيبيرية. وخير مثال على ذلك القيادة الحكيمة لطارق بن زياد الذي كان، إلى جانب يوسف بن تاشفين والمهدي بن تومرت، من القادة الكبار للدعوة الإسلامية. لقد حمل طارق هم الدعوة الإسلامية بالأندلس، وفي هذا المكان الجغرافي تنفضح وتتكشف أكثر فأكثر نوايا وأهداف العرب الذين كان همهم هو الغزو والاستيلاء والعيش الرغيد في كنف القصور المزهوة بأحلى المأكولات ومختلف الأشربة، والجواري الحسناوات، والطرب الدنيء. واحتقروا سكان شبه الجزيرة الإيبيرية وسكان شمال إفريقيا، واعتبروا أنفسهم أسمى جنس وأعلى عرق شرفاً وأحسن نسب وحسب بالنظر لباقي الأجناس، وهُم خلفاء هذه الأرض ومن سواهم مجرد عبيد وعمال يخدمون أسيادهم.

ولما رأى ءيمازيغن هذا البعد عن الدين وما صولحوا عليه وعوهدوا، وهذه الخلافات والصراعات السياسية بين الطوائف والمذاهب حول امتلاك سلطة المسلمين بتامزغا، تفطّنَ ءيمازيغن، فأخذوا يعتمدون على أنفسهم لحل مشاكلهم وإصلاح أوضاعهم التي بدأت تتفسخ بسبب دخول ثقافة جديدة متعالية بعيدة عن الحضارة والتفاهم والإعتراف والإحترام. وبدأ القطع مع السياسة المشرقية بتأسيس إمارات ودويلات مستقلة يسودها الأمن والسلام والعيش الكريم، كسجلماسة وبرغواطة، بل وتمكنوا من تأسيس إمبراطوريات أمازيغية ذات أعراف وتقاليد وقواعد أمازيغية يُشهد لها بالنجاح الكبير والسيرة الحسنة، كدولة المرابطين والموحدين...

البيئة البحرية وسبل حمايتها في المغرب الوسيط

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن البيئة والضرر البالغ الذي لحقها من جراء جشع الإنسان وحبه السيطرة على الطبيعة وإخضاعها لقوانينه مما ترتب عنه تغير في التنوع البيئي وأصبح الوجود على هذا الكوكب مهددا بين الحين والآخر،وما ارتفاع حرارة الأرض والمشاكل التي تترتب عنها من جراء تنامي التلوث البيئي إلا دليل على هذا التوجه الإنساني،ولم تكن البيئة البحرية لتسلم من هذا الخطر. فكيف تعامل المغاربة مع بيئتهم البحرية خلال مراحل التاريخ الوسيط؟وما السبل التي تبنوها للحفاظ عليها ومن ثم الحفاظ على التنوع الطبيعي للثروات البحرية؟

■الطاهر قدوري

نسعى من خلال هذه المقالة معالجة السلوك الذي كونه المغاربة عن البيئة البحرية في إطار تعاملهم اليومي مع البحر وما يستخرج منه، خاصة عند سكان السواحل الذين ألفوا الإقدام على عدة أمور قبل أن يركبوا لجته،إذ الخوف من تغير أهوال البحر بين الفينة والأخرى كان أمرا واقعا كما أن الخوف من الوقوع في قبضة العدو (القراصنة)كان أيضا لا يقل أهمية عن العنصر الأول،لهذا كان لابد لركاب البحر أن يرددوا عدة تراتيل وأدعية، ومن ذلك ما اشتهر عند المغاربة بحزب البحر.

وهذا الحزب ينسب لأبي الحسن الشاذلي (1) أحد من متصوفة مصر،وهو في عمومه مجموعة من الأدعية والتراتيل كان يقوم بها هذا الولي وحافظ عليها تلامذته عند ركوبهم البحر،وقد استقى أبو الحسن الشاذلي هذا الحزب من خلال قراءته الواسعة للقرآن الكريم،حيث يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية والبدايات الأولى لمجموعة من السور ويرفقها بأدعية متنوعة تنتهي في مجملها إلى الدعاء والتضرع لله قصد الحماية من خطر العدو والنجاة من أهوال البحر،ولسنا ندري الظروف التي وصل فيها هذا الحزب إلى بلاد المغرب،وإن كنا نرجح أن المريدين والمتصوفة المغاربة الوافدين عل ديار مصر والمشرق الإسلامي بصفة عامة قد جلبوا معهم هذا المصنف إلى المغرب، وذلك على غرار العديد من الكتب والمؤلفات التي كان ينقلها المغاربة في إطار رحلاتهم إلى بلاد المشرق الإسلامي. .

وإلى جانب هذه الأدعية فإن المغاربة عمدوا إلى تبني مجموعة من التقنيات والوسائل استخدموها للحفاظ على بيئتهم البحرية ومن ذلك نذكر:

×مسالة استغلال الثروات البحرية:هنا وجبت الإشارة إلى أن المعلومات التي تقدمها لنا كتب الجغرافية والرحلات على قدر كبير من الأهمية،والفضل يرجع لهذا النوع من المصنفات في الكشف عن أنواع الأسماك وأوقات خروجها وتكاثرها وأماكن اصطيادها،إلا أننا لن نقف عند كل هذه المعطيات وسنكتفي بما يخدم موضوعنا.

لعل من نافلة القول أن نذكر أن أقدم الإشارات المصدرية المتعلقة بالثروات السمكية هي تلك التي أوردها كل من ابن حوقل في"صورة الأرض" والبكري في"مسالكه" وهي الإشارات نفسها تقريبا التي أوردها الإدريسي في "نزهته" وأيضا صاحب "الاستبصار"،والأمر لم يقف عند استغلال الأسماك بل تعداه إلى استخراج ثروات أخرى أهمها المرجان الذي كان يجمع من موقعين رئيسيين نالت شهرتهما الآفاق:مرسى الخرز(2) ومرسى سبتة (3).ومن خلال مقابلة الروايتين يمكن أن نستنتج استمرار أهمية مرسى سبتة في استخراج المرجان هذا في الوقت الذي تراجعت فيه أهمية مرسى الخرز،ولعل الأمر هنا يمكن تلمسه في الإمكانات البحرية التي أصبحت تتوفر عليها مدينة سبتة قاعدة الأسطول المرابطي والموحدي خلال القرنين 5و6هـ/11. 12م.

ولحماية هذه الثروات وعقلنة عملية استخراجها فإن الدولة كانت تسهر مباشرة على هذه العمليات بتعين أمناء ونظار يتولون الإشراف على عمليتي الاستخراج والبيع(4)،وهذه المهمة كانت تقوم بها سفن تخرج مجتمعة تصل إلى خمسين قاربا قد يشغل القارب الواحد حوالي عشرين بحارا.(5)

والعملية ذاتها يمكن أن تسحب على الثروات السمكية،فهل كانت عملية الاصطياد خاضعة لتنظيم خاص من شأنه أن يحافظ على التنوع الطبيعي للأسماك، بمعنى هل كانت مراقبة من قبل الدولة أو على الأقل من قبل ديوان البحر أو المحتسب؟أم أنها كانت عملية حرة يمارسها كل من توفرت له إمكانية الحصول على مركب والشباك؟القضية التي تدفعنا للتساؤل عن إمكانية وجود"جمعيات" ينتظم فيها الصيادون ويسهرون من خلالها على تنظيم هذه العملية وحل الخلافات التي قد تظهر بين التجار والصيادين والزبناء؟

ربما يكون من الصعب جدا في الفترة الوسيطية الحديث عن وجود مثل هذه الجمعيات التي تحاول تنظيم عمل المجموعات ذات المهن المتشابهة،أما بشأن الفتوى التي أوردها الونشريسي (6) فأنها تتعلق أساسا بما يمكن أن نسميه بشركة صيد بحري يتم توزيع الإنتاج فيها حسب مشاركة كل صياد في هذه الشركة،وكان معيار تقسيم الإنتاج يأخذ بعين الاعتبار عدد الشباك التي ساهم بها كل صياد،فالذي ساهم بثلاث شباك يأخذ سهمين من الإنتاج والذي ساهم باثنتين يأخذ سهما ونصف،والذي ساهم بواحدة يأخذ سهما واحدا. إلا أن النازلة لم تجد استحسانا من قبل أبي القاسم الغبريني الذي لم يبح حصة الانتاج التي يأخذها المساهمون في مثل هذه الشركات،وهذه الإشارة الوحيدة التي نتوفر عليها بشأن هذه المسألة لا تجعلنا نتحمس للإقرار بوجود "جمعيات"تتولى تنظيم الصيد السمكي.

إلا أن الأكيد أن الثروات البحرية كانت على درجة كبيرة من الأهمية،وقد أدركت الدولة المركزية في هذه المرحلة أهمية ما يستخرج من البحر،لهذا كانت تسعى إلى تنظيم عملية الاصطياد.ويفيدنا المقري التلمساني بإشارة غاية في الأهمية تتعلق بمدينة سبتة التي كان يشرف بها عامل المضارب وأعوانه على تنظيم عملية بيع السمك في المرسى واستخلاص عائداتها،(7))وإذا سلمنا كون عامل المضارب تابعا لإدارة الميناء ومنها يستخلص حقوقه وحقوق أولئك المشتغلين معه،فإنه في مدينة سبتة على عهد آل العزفي نتوفر على إشارة طريفة وفريدة من نوعها أوردها "صاحب أزهار الرياض" (8)مفادها أن عامل المضارب كان له الحق في أخذ عائدات السمك طيلة يوم كامل وأن يأخذ بيت المال عائدات يومين. وقد جعلت العائدات السمكية إذا كان يوم عامل المضارب الشريف أبي العباس الحسني لفائدة المساكين والضعفاء والمتنزهين الذين كان يعز عليهم الحصول على السمك في الأيام العادية،وكانت تحصل له عائدات كبيرة قدرها المقري ب" فيتصل بيده من فائدة يومه مئة الدينار وسبع المائة،وربما يزيد وينقص،وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم حسب ما يسنيه الله عز وجل".(9)

وهكذا فإن عملية صيد الثروات البحرية في المراسي الأساسية _سبتة.المعمورة.فضالة.سواحل الريف- كانت تدر على الدولة أموالا مهمة تستعين بها لتغطية حاجاتها المتزايدة ولا نعتقد أن قطاعا من هذه الأهمية كان خارجا عن مراقبة الدولة خاصة إدارة الموانئ للحفاظ على التنوع البيئي في السواحل المغربية الوسيطية.

وارتباطا بموضوع السمك،فإن مما أنيط بالمحتسب -إلى جانب جودة السمك- أن ينبه على ما يمكن أن يلحقه استخفاف باعة السمك بالمستهلك،فقد كان عليه أن ينبه باعة السمك والذين يتولون قلي السمك في السوق إلى أن يتخذوا رواقا خاصا بهم،تفاديا لما من شأنه أن تسببه روائح السمك وأبخرتها من إزعاج للمارة ولباقي التجار،لهذا ألزمهم بضرورة تنظيف الساحة التي يشتغلون فيها،"ويمنعون من طرح حوت البحر في الماء العذب فإنه يفسده(10).

×القرصنة:

أثارت ظاهرة القرصنة أو الجهاد البحري نقاشا حادا بين الباحثين قديما وحديثا،فمنهم من اعتبرها نشاطا عاديا وأمرا طبيعيا وهي بذلك قديمة قدم الملاحة البحرية،وبين من أعتبرها أمرا طارئا عكر صفو التنقلات البحرية والنهرية،منهم من جعلها آفة لصيقة بالأمة الإسلامية،وبعضهم عمم أفكاره فجعلها خاصة بالشعوب البحرية.ولا نود الخوض في هذه الجزئيات المصطلحية والشحنة الحضارية التي تحملها،(11)وإنما نروم رصد هذه الظاهرة على مستوى تغيير السلوك البيئي البحري الذي كانت تحدثه.

ومن خلال تصفحنا لمجموعة من الإشارات الواردة في مصادرنا،فإن المسلمين عموما والمغاربة خصوصا قد تعرضت سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوربية،ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثها الغزو الهلالي بالطرق البرية الرابطة بين بلاد المغرب ومصر (12) فإن المغاربة وخاصة أولئك الذين عزموا على زيارة البيت الحرام غالبا ما كانوا يسافرون على متن سفن توصلهم إلى بلاد مصر ليواصلوا بعد ذلك الرحلة إلى بلاد الحجاز إما برا وإما بحرا.

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمنا من الطريق البري بقدر ما يدل على أن الخطورة كانت متفاوتة بين الطريقين،وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم كانوا ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي وأحمد المقري على متن المراكب التي أقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على قلة الأمن في بحر الروم"البحر المتوسط"(13). والخوف من مباغتة العدو كان له انعكاس على فلسفة العمارة في السواحل المغربية إذ عمد سكان السواحل إلى اتخاذ رباطات وحصون منيعة ومنارات تمكنهم من مراقبة السواحل ورصد حركة السفن(14) وإنذار قومهم بوسائل الإنذار المعروفة وقتئذ(إطلاق الدخان إذا كان الوقت نهارا وإشعال النار إذا كان الوقت ليلا هذا بالإضافة إلى قرع الطبول).

وهذه الوضعية يعكسها البادسي في حالة الرعب التي كان يعيشها سكان السواحل الريفية جراء التردد المستمر لسفن النصارى-الأوربيين-على السواحل المغربية وما كانوا يقومون به من سلب ونهب وأسر للسكان في إطار عمليات القرصنة.فكان السكان يعمرون السواحل في زمن الشتاء الذي يواكب التوقف القصري للسفن بسب اضطراب البحر وكثرة أنوائه وأهواله ،وعندما يأخذ الجو في الاعتدال إبان فصل الربيع والصيف فإن السكان يصعدون إلى الأماكن المرتفعة طلبا للحماية من غارات القراصنة ويخلون السواحل إلا من أعداد قليلة من السكان.(15)

وللحد من هذه الظاهرة ومحاصرتها وحماية البيئة البحرية التي سخرها الله للإنسان وكانت بذلك أساس التكريم الإلهي للإنسان.( )فإن الدول المغربية الوسيطية كانت لها مواقف رائدة في تثمين أي مبادرة لحماية السفن والسكان والسواحل عامة من هذه اللعنة التي لحقت الملاحة في العصور الوسيطية لهذا وجدنا الموحدين في إطار ضبطهم لسواحلهم ينصون في معاهدات السلم والصداقة التي كانت تجمعهم بالدول الأوربية خاصة الجمهوريات الإيطالية(جنوة وبيزا والبندقية) على ضرورة محاصرة هذا السلوك.(16)

وهكذا، فإن ما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الورقة أن المغاربة تعاملوا مع البحر وفق ثقافة خاصة تسعى إلى محاولة استغلال ثرواته واستخدام لجته في حياتهم اليومية محاولين الحفاظ على بيئتهم البحرية وتنوع عناصرها البيئية محققين بذلك أساس التكريم الإلهي للإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات.

الهوامش:

– مخطوطة من هذا الحزب بالخزانة بالعامة بالرباط تحت رقم:د.1608ورقة93. .96ود.2265، ورقة.199. 202.

2-ابن حوقل،صورة الأرض،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،1979،ص73.

3-لإدريسي،المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق،نقله إلى العربية،محمد حاج صادق، بلجيكا،1983ص.183.

4=ابن حوقل،م.س،ص.73.

5=الإدريسي،م.س،ص.173.

6-أبو العباس الونشريسي،المعيار المغرب..،تحقيق جماعة،طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،ج.8،ص.189.

7-المقري التلمساني،أزهار الرياض في أخبار عياض،ج12،نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي،د.ت،ص.43.

8-نفسه.

9-نفسه.

10-أحمد بن عبد الرؤوف، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب،جمع ليفي بروفنصال،القاهرة،1955.ص.97.

11-يمكن الرجوع ل:روجي كواندرو،قراصنة سلا،ترجمة محمد محمود،نشر جامعة محمد الخامس.1991.

12-الوزان ،وصف إفريقيا،ترجمة.محمد حجي ومحمد غزال،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط.2،1983ج1ص65 66.

13-ابن جبير، رحلة ابن جبير،مقدمة مصطفى زيادة،د.ت،ص.69. 114. 219.

14-البكري،المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب،تحقيق،دوسلان،د.ت،ص.91. 105. .107

15- عبد الحق البادسي،المقصد الشريف..، تحقيق سعيد أعراب،ط2، الرباط،1993،ص.51. 61. 67. 75.

-" -16-ولقد كرمنابني آدم وحملناهم في البر والبحر"الإسراء.70

17- Mas Latrerie,Traités et document divers concernant les relations des chrétiens et les arabes- au moyen age,Paris,1968,p91. .19 البند

الثقافة الأمازيغية بين الكوني والمحلي

«الحضارات هي القبائل الإنسانية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني» صامويل هنتنغتون

يعتبر مفهوم الثقافةculture من المفاهيم الأكثر إثارة للجدل بين مختلف المفكرين والمهتمين، لذا فقد ذهب كل واحد حسب تخصصاته من أنتروبولوجي وعالم اجتماعي وغيرهما يعطي تعريفا لها. وهذا العدد الهائل من التعريفات يعكس بالأساس مدى أهمية إيجاد تعريف للمصطلح، وكذا عجز المهتمين أنفسهم عن إيجاد تعريف قار وشامل يخلو من القصور واللبس. وبذلك أصبح مفهوم الثقافة، سواء عرفناه أم لم نعرفه، مفهوما يغلب عليه طابع الغموض والإبهام. غير أنه بالمقابل، فإن قيمة كلمة–ثقافة– تقوت وتضاعفت بظهور كلمة أخرى أكثر شمولية. إنها كلمة حضارة . civilisation_وكنتيجة لهذا كله، فقد أصبح من الصعب جدا أن نميز بين معنى هاتين الكلمتين على السواء. وكل من حاول الإبحار في هذا الاتجاه، أي التميز، فإنه سيقع فريسة ما يمكن الاصطلاح عليه ب"التميز الاصطناعي– Artificial distinction

لقد أصبحت كل من مفاهيم "الهوية"، " الثقافة"، "التعدد الثقافي"، "المركزية الثقافية"، "التطفل الثقافي"إلى ما هنالك، مفاهيم لصيقة بمسألة التحول الثقافي في عالمنا المعاصر. وهنا يمكن أن نطرح أكثر من تساؤل حول هذه المفاهيم حتى يتسنى لنا فهم العلاقة التي قد توحد بين مفهومين أو أكثر. فهل من الممكن إقصاء "هوية" أو "ثقافة" ما من دون أن يحدث ذلك أي خلل في مسار الإنسانية جمعاء؟ أليست إبادة ثقافة شعب ما، هي إبادة ذاكرته، وبالتالي المس بشأن الذاكرة الإنسانية عامة؟ أتوجد، أو بالأحرى هل يمكن الحديث عن إمكانية وجود ثقافة كونية؟ إن وجدت، فما هي الكونية؟ وما هي الخصوصية؟ أو على وجه الدقة، ما نوع العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين هاتين الاثنتين؟ وما موقع الثقافة الأمازيغية ضمن هذه العلاقة؟ وهل بالإمكان الحديث عن هوية أمازيغية؟ وما هو دور الانسجام الهوياتي في بناء الشخصية الوطنية؟

■ أمحمد أهبوش

بإثارتنا لسؤال الثقافة نكون قد لمسنا موضوعا واسعا ومترامي الأطراف، ولأن الموضوع واسع فقد بقي بدون تحديد، ولأنه بدون تحديد فلا بد أن يكون تناولنا إياه مشحونا بوجهات نظر مختلفة، ومع ذلك فسوف نعثر دائما على شيء من الحق واليقين. والهدف من سؤالنا هذا هو أن ندخل في الثقافة من بابها الواسع، كما يتحتم على الطريق الذي سنسلكه ألا يكون واضح الاتجاه فحسب، بل أكثر من ذلك، لا بد لهذا الاتجاه أن يعطينا في الوقت نفسه الضمان بأننا نتحرك داخل موضوع الثقافة ذاتها، لا أن ندور حولها من الخارج. وهنا أيضا يتحتم على طريقنا هذا أن يكون على نحو واتجاه من شأنهما أن يجعلا من الثقافة موضوعا يتناول بالبحث ما يهمنا شخصيا، وما يؤثر فينا بالفعل تأثيرا يمس صميم ماهيتنا الأمازيغية.

والثقافة في عصرنا الراهن عامل هام في تطوير المجتمع. إنها بمثابة عنوان وعيه، ومحدد معنى شرائحه، والقوة الفعلية المتجهة نحو تأكيد ما هو إنساني في الإنسان. فمن خلال الثقافة يمكننا التعرف على واقع وتاريخ مجتمع بكامله، بل وطريقة تفكيره وفهمه للأشياء.

في حقيقة الأمر، توجد معادلة صعبة تحكم تفسير الثقافة. فالثقافات البشرية رغم تعددها فهي تعني وببساطة قدرة الإنسان أو الجماعات الإنسانية على التكيف وبطريقة خلاقة مع البيئة المحيطة به. وهذا التكيف يقصد به تسخير الطبيعة وجعلها مناسبة وملائمة لما يخدم الإنسان بما في ذلك حقه في البقاء والتطور. ومن هنا تكون ثقافة الإنسان في تزايد كلما قلت هيمنة الطبيعة عليه(1).

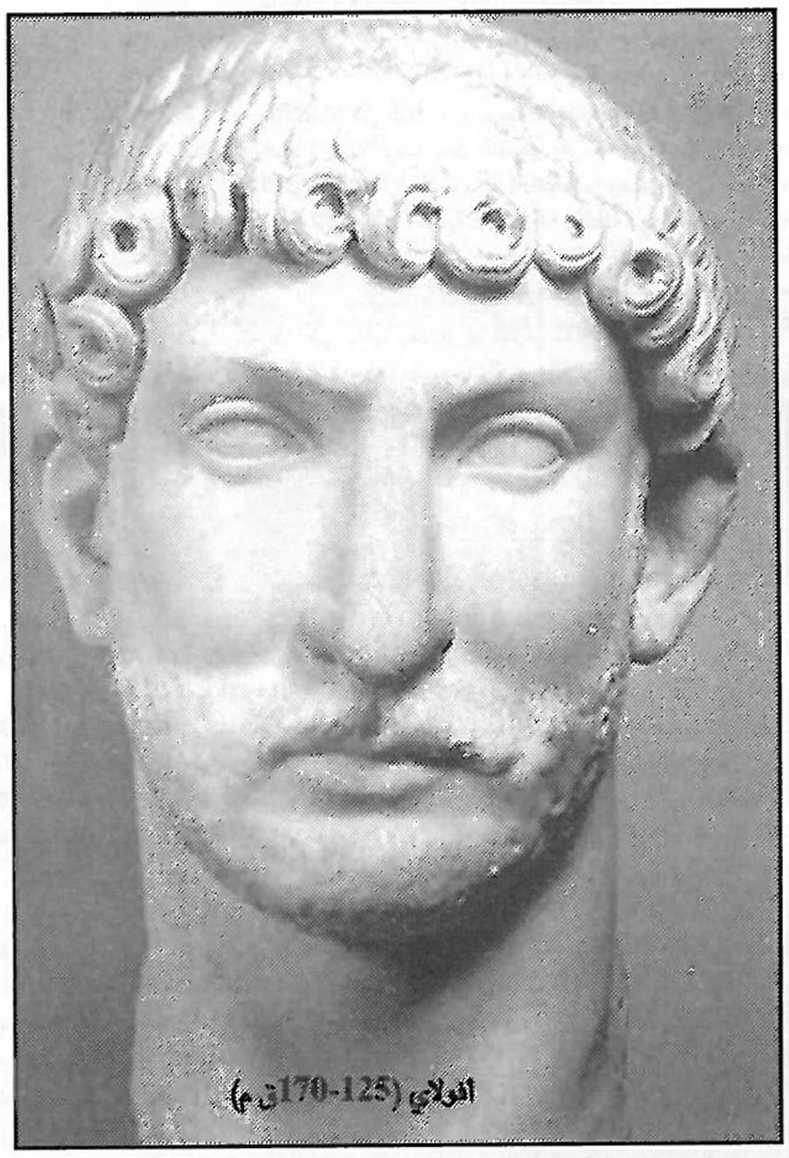
الثقافة إذن هي مجموعة من الطرق والأساليب الحياتية التي تعمل على الاستجابة للتحديات التي يواجهها الإنسان في تفاعله مع الطبيعة. لكن وحتى نكون أكثر إنسانية، علينا أن لا نبالغ في عملية قهر الطبيعة مما قد يؤدي إلى تخريب هذه الأخيرة، وبالتالي تخريب الإنسان لذاته بحكم العلاقة التي تربطهما بعضا ببعض. وتبعا لهذا فإن الفيزيائي العالم في حقل الذرة ليس بالنسبة ل "جان بول سارتر" مثقفا إلا حين يوقع في لحظة معينة عريضة ضد التجارب النووية. وفي ذات السياق يقول المسرحي الإنجليزي"إدوارد بوند" في مقدمة إحدى مسرحياته بأن" الثقافة هي ذلك الإبداع العقلاني للطبيعة الإنسانية وأداة العقلانية في جميع نشاطات الإنسان، الاقتصادية منها والسياسية والاجتماعية، العامة والخاصة"(2). وهنا يمكن الفصل بين ثقافتين متمايزتين: الأولى تكتسي صبغة عقلانية، والثانية ميثولوجية.

والثقافة بشكل عام تستلزم نقدا مستديما هدفه عقلنة الجانب الميثولوجي في الثقافة. أي أنه علينا أن نكون عقلانيين أكثر من اللازم، حتى لا ننتمي إلى مملكة اللانظام. وبناء على مقولة "إدوارد بوند" نفسه فإن الطبيعة الإنسانية في جوهرها ثقافة إنسانية. وبما أنها كذلك فإن الطبيعة الإنسانية اجتماعية. وإذا كانت الطبيعة الإنسانية ثقافة والثقافة اجتماعية فلأنها تتطور عبر تجارب وممارسات اجتماعية.(3)

الثقافة بشكل عام هي ذلك الشيء الذي لا يمكن لنا بأن نهدف إليه عن قصد. وبذلك فهي نتاج لمجموعة من الأنشطة المختلفة والمتداخلة في آن وبشكل أقل أو أكثر انسجاما و تناغما إلى حد الاندهاش.

قد تكون هناك شروط معينة تخول الإنسان انطباعا معينا. لكن بالمقابل فإنه بالرغم من أن هذه الشروط قد تبدو لنا وكأنها تحيل إلى أهداف اجتماعية مرغوب فيها، فإنه مع ذلك يجب علينا أن لا نثب نحو خلاصة مفادها أن كل هذه الأهداف بإمكانها أن تنجز عبر منظمة قصدية. فالتقسيم الطبقي للمجتمع والمخطط له من طرف سلطة مطلقة لا يمكن إلا أن يكون اصطناعيا، تماما كما أن اللامركزية تحت توجيه مركزي يعد تناقضا. والنقطة التي سوف نصل إليها لا محالة هي أن هذه الشروط الثقافية طبيعية بالنسبة للإنسان. ومنه فإن الكائن البشري سيكون في حاجة دائمة إلى الثقافة لكي يربط نفسه بالأشياء الحقيقية للعالم الخارجي. وعلى هذا النحو فإن ما سبق سيكون مطابقا للمعنى التقليدي لكلمة "ثقافة" والذي يمكن إجماله في فكرة أن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي ينتجه الإنسان، أي المادي وغير المادي. فالمادي يتمثل في كل ما ينتجه الإنسان بيده وجسمه، في حين أن غير المادي يتجسد أساسا في نظرة الإنسان إلى الكون وما يربطه به من تفكير وتأمل، غير أنه مع ذلك لا وجود لعامل جسدي خالص ما دامت أحط الأعمال الجسدية وأكثرها ميكانيكية تنطوي على درجة من النشاط الثقافي الخلاق – .cultural creative activity

إن تدفق الحياة في شرايين حضارة ما مرهون بحياة وحيوية تلك التي تحتك بها وتقوم ضدها، تماما كما تنحل وتباد ثقافة وحضارة شعب ما بالعياء دون ثبات تلك الحضارة. ومن هنا فإن بقاء الثقافة الأمازيغية مرهون بذات ثقافة شمال أفريقيا من جهة، ومدى قدرتها على الاستمرار في استيعاب وجلب الإغاثة والعون من الثقافة الأفريقية تلك، بل وحتى الثقافات الأوروميتوسطية من جهة أخرى. وعلى ضوء العلاقة التجارية التي تعامل من خلالها كل من الفنيقيين والإغريق والرومان وغيرهم مع القبائل الأمازيغية فقد تمخض عن ذلك نوع من التمازج الثقافي حتى على المستوى العقائدي أعلى مستويات التمازج الذي قد يحصل بين ثقافتين مختلفتين. وما تسرب عبادة الإله الليبي "آمون" إلى القارة الأوروبية عبر الرومان والوقع الكبير الذي أحدثه حتى بين الأوساط الراقية منهم إلا نموذج واحد من نماذج أخرى متعددة حصلت فيها عملية التأثير والتأثر بين سكان شمال أفريقيا الأمازيغية ومن توافد عليها. وكذلك الأمر بالنسبة للقرطاجيين حيث أن الكهنة وسدنة المعابد في قرطاجة كانوا أمازيغيين في معظمهم. وما اسم الآلهة "تينيت" إلا دليل واحد على أن قرطاجة كانت تدين بدين الأمازيغيين القدماء، خاصة وأنها احتلت مكانة الصدارة في معابدها وجعلتها هي "ربة المدينة"(4). أضف إلى ذلك أن لشمال أفريقيا الأمازيغية نموذجا تاريخيا آخر من نماذج المصاهرة الحضارية، ألا وهو نموذج الأخذ بالعقيدة الإسلامية. ونظرا للمدة الزمنية التي استغرقتها هذه المصاهرة، فإنه لم يسبق للأمازيغيين أن اندمجوا في إطار حضارة معينة بنفس المستوى الذي اندمجوا به في إطار الحضارة الإسلامية.



ومن آثار ما أعقبه هذا الاندماج أنه قد نبغ فقهاء أمازيغ في مجالي علوم الفقه والنحو، وعلى سبيل الذكر لا الحصر آثار أبي الحسن الشاذلي الغماري صاحب "مجموعة الأحزاب" الذائع الصيت في العالم الإسلامي كله، وهو من قبيلة اغمارة. كما ألف بنو مازغ في الفقه فقد ألفوا في النحو العربي أيضا. وكان على رأس هؤلاء شيخ النحاة المغاربة عيسى بن عبد العزيز الجزولي مؤلف "المقدمة الجزولية" و "الأمالي". وكذلك تلميذه أبو الحسن بن معطي الزواوي صاحب "الدرة الألفية في علم العربية" التي استقى منها ابن مالك طريقتها التعليمية في إنشاء ألفيته. كما برز أبو حيان الغرناطي البربري شارح ألفية ابن مالك المشهور بمقارناته بين اللغات. وبرز كذلك عبد الله بن أجروم الصنهاجي فنالت شهرته الآفاق الإسلامية كلها بفضل مصنفه التعليمي "الأجرومية" الذي اعتمد في تدريس النحو العربي طوال مدة ستة قرون(5). أضف إلى ذلك إسهامهم في كتابة الشعر والأدب الإنشائي العربيين، غير أنهم لم ينالوا فيه المكانة المرموقة بالنظر إلى الشأن الذي نالوه في الفقه والنحو على السواء.

ونظرا للموقع الجغرافي الهام الذي تحتله منطقة شمال أفريقيا بين القارات الثلاث المكونة لما يسمى بالعالم القديم(آسيا، أفريقيا، أوروبا)، فإن ذلك ساعد عبر التاريخ على تسهيل عملية التثاقف والمثاقفة – Acculturation بين مختلف الأجناس البشرية. بعبارة أخرى فإن منطقة شمال أفريقيا هي المنطقة التي تصب فيها الروافد البشرية الآتية من كل الآفاق والأعراق. وعلى أساس هذا اللقاء كان غالبا ما يتم تزعزع استقرار المنطقة وبالتالي تجدد خلاياها وبنياتها المختلفة.

وللدلالة بعمق على مدى تفاعل الثقافات الوافدة على منطقة شمال أفريقيا من جهة، والثقافة الأمازيغية الأصيلة من جهة أخرى، يكفي فقط استعراض المدة الزمنية التي يمكثها كل وافد. وعلى سبيل الذكر فإنه بعد سقوط قرطاج حوالي 146ق.م، وتمكن روما من إخضاع الأمازيغ لسيطرتها، تم اعتبار المنطقة إقليما رومانيا بحيث دامت مدة الاستعمار هاته إلى مايقرب من ستة قرون.

أما بخصوص الو ندال الذين أعقبوا الرومان، فلم تتأثر البلاد الأمازيغية بمجيئهم تأثرا بالغ الأهمية نظرا لقصر مدة مكوثهم بها(حوالي 429م–535م).

ومجمل القول فإن للأمازيغ نصيبا ليس بالهين من المساهمة في تشييد أركان الحضارات والثقافات الكبرى التي تعاقبت على شواطئ البحر المتوسط قبل وبعد الميلاد. فالثقافة الأمازيغية بوجه عام كانت دائما ثابتة محافظة في جانب منها، في حين أن الجانب الآخر كان يحتمل التطور مع الاحتفاظ طبعا بطابعه الأمازيغي المتميز. ولقد كان لاحتكاكهم هذا بالثقافات الوافدة من فينيقية ويونانية ولاتينية وعربية و(أسبانية وفرنسية..) أثر على ثقافتهم، بل وحتى في بلورة تلك الثقافات نفسها. ونتج عن مفعول المثاقفة هذه أن نبغ في الكتابة باللاتينية أجيال متعاقبة من الأمازيغيين، فأسهموا بذلك إسهاما مهما في إغناء الفكر والأدب الرومانيين.

ويأتي "آفر Terentius Afer " (159-185ق.م) و "أفولاي Apuleius " حوالي 125– 170 م.) في طليعة الأدباء الأمازيغيين المشاهير في ما قبل الميلاد وبعده. "فافر" كان من أشهر كتاب عصره حيث ألف ست مسرحيات وهو ابن العشرين. وكان يطالع الجمهور بواحدة منها في كل سنة(أي ما بين 166–160 ق.م). ومن أشهر مؤلفاته "الإخوة – "Fratres"و "معذب نفسه Meus carnif- ex " و "الخصي – " Eunuchus، ولقد مات بأرض اليونان حزنا على ضياع مخطوط له في البحر وهو ابن الثلاثين. ونظرا لخيرة ما أنجزه من مؤلفات فقد اعترف له نقاد العصور المتعاقبة بمدى تأثيره في الأدب المسرحي إلى حدود القرن السابع عشر الميلادي(6).

أما بخصوص "أفولاي" فقد ألف كتابا في موضوع "في السحر– " Magicae ثم أصدر بعده كتابا آخر بعنوان"التقمصات " Les metamorphoses"ويتألف من أحد عشر جزءا. ولقد اختار الرواية الطويلة النفس للتعبير عن الأوضاع الاجتماعية، بل وانتقادها في سخرية بارعة حينا، وفي شدة وصرامة بالغين أحيانا أخرى. ومن خلالها دافع عن المستضعفين.. كما اعترف له بصدق التعبير والبراعة في فني القصص والكلام، حيث كان هو نفسه يصرح بأنه تأثر في عمق بالفكر اليوناني. وعليه فقد وضعه تاريخ الفكر في مصاف كبار الكتاب العالميين الخالدين(7)، أضف إلى ذلك كله أنه وبفضل سمو الفكر الإغريقي آنذاك أي ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، استقدم الملك المازيلي "ماسينيسا "Massinissa"العلماء والفنانين من أثينا إلى عاصمته "قيرطا – ". Cirtaحتى أنه نبغ، ريبب روما، يوبا الثاني في شتى فروع العلم والمعرفة من تاريخ وجغرافيا وفلسفة وأدب وفقه اللغة المقارن، حتى تعجب من نبوغه " فلوتارخوس (8)" Flutarkhosوكون "بربري" نوميدي يصبح أديبا من هذا المستوى، يقال أنه نصب له الآثينيون تمثالا في أحد مر اكزهم الثقافية تقديرا لكفاءاته الفكرية. كما يقال أيضا أن الكثير من علماء العصر القديم أخذوا عنه في مجالات شتى. ومن أهم مؤلفات يوبا الثاني كتابه المعنون ب "ليبيكا" الذي عني فيه ببلاد الأمازيغ. ولقد كان يشهد ليوبا الثاني بذوق فني رفيع قل نظيره، حسب ما أجمع عليه المؤرخون لعهده(9). وتأسيسا على هذه العلاقة بين ثقافة شمال أفريقيا الأمازيغية من جانب، والثقافات الأخرى المجاورة لها من جانب آخر، فإنه إذا أردنا التعرف على جيراننا، فما علينا إلا أن نفهم ثقافتهم وذلك من خلال كتبهم وجرائدهم، وإذاعاتهم وأفلامهم..الخ. وتبعا لهذا فقد أصبح بإمكاننا أن ندرك أكثر من أي وقت مضى، وبكل تأكيد، أننا الآن نعيش نوعا من الانحطاط الثقافي – Cultural Dev-astation، خاصة وأن معايير الثقافة الأمازيغية الآن هي أقل بكثير مما كانت عليه في النصف الأول من القرن الماضي. وتجليات هذا الانحطاط أصبحت واضحة في كل شعبة من الشعب التي يمارس فيها ومن خلالها الإنسان الأمازيغي نشاطاته. وكما هو الشأن الآن فإنه من العادي جدا لأي واحد يدافع عن أي تغيير اجتماعي أو أي تغيير لأسلوب سياسي، أو أي تغير للخدمات الاجتماعية، أن يدعي بأن أي تغير للنسيج الاجتماعي بإمكانه أن يؤدي نحو تغير ثقافي ومن ثم نحو حضارة جديدة New Civilisationذات الطبيعة التي لا نعرف عنها شيئا والتي قد نصبح فيها تعساء.

الحضارة الجديدة إذن قادمة نحو الوجود باستمرار. فحضارة اليوم قد تبدو للإنسان المتحضر الذي عاش في ما قبل قرنين أو ثلاثا بأنها جديدة. وما حالة الشأن الذي نتمتع به اليوم إلا توضيح لما يحدث لطموحات كل عصر نحو الأحسن والأفضل. فما علينا إذن إلا أن نطور حضارتنا الأمازيغية، خاصة وأنه لا يمكن لنا أن نتصور حضارة أخرى بديلة. غير أن العقدة تكمن في أنه ثمة الكثيرون ممن يؤمن بأن التغيير شيء جميل في حد ذاته من دون أن يساورهم الغضب ولو للحظة واحدة حول مستقبل الحضارة ذاتها. لذا فقد أصبح من اللازم أن نمتلك رؤية ثاقبة وبعيدة المدى حول مستقبل حضارتنا الأمازيغية كي نضمن لها حق البقاء والتطور مع انسجام مراحل سيرورتها التاريخية. وغياب هذه الرؤية قد لا يسمح لنا بفهم ماضينا واستجلاء خصوصياته ومقوماته التي عمل الأعداء على أن يدفنوها، مسخرين في ذلك كل ما أوتي لهم من إمكانيات كي نعيش بماضيهم بعدما صرنا نعيش بحاضرهم.

إن ظاهرة المركزية الثقافية، أو بعبارة أصح ما يمكن أن نطلق عليه بالتمركز الإثني "Ethnocentrism، هي إحدى الظواهر الخبيثة التي قد يتمخض عنها بروز ونشوب صراعات وانشقاقات في مجتمع معين وبذلك بدافع عامل الإقصاء والتهميش . Marginalisation حيث تصبح المركزية الثقافية ثقافة تجعل من نفسها مركزا. وبقية الثقافات هوامش وأفلاك تدور حول هذا المركز. هكذا فقد أصبح يحكم على تطور أو تدهور أي ثقافة بمقدار قربها أو تشابهها مع الثقافة المحورية تلك. وثقافات الأطراف أيضا تسعى دائما نحو بلوغ مستوى هذه الأخيرة من خلال التقليد، وتبني مظاهرها دون مقاومة تذكر.

فالشعب يحاكم بواسطة التاريخ نسبة إلى مقدار مساهمته في إثراء ثقافته بل حتى الثقافات التي ستأتي لاحقا. وقد أصبحت معظم شعوب العالم اليوم في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى البحث عن شروط ومواصفات تؤكد تمايز واختلاف ثقافات هذه الشعوب، وذلك بهدف تكوين علاقة واضحة الملامح والمعالم بين الأنا والآخر– . The self and the otherوعلى هذا الأساس فإن مسألة أن تجعل من الخاص عاما يعني تهديدا صريحا للمتمسك بخصوصيته الثقافية. وفي هذا الصدد نجد المهدي المنجرة يقول:" وإذ أؤكد أن الذوذ عن القيم الثقافية يمكن أن يفضي إلى نزاعات كرد فعل على عدوان ثقافي، فإنني لا أعتقد مع ذلك أن الانقسامات الثقافية تشكل في حد ذاتها مصدرا للنزاعات. فهذه الاختلافات هي من طبيعة تجعلها تغني العالم من خلال التنوع الثقافي وتجعله قادرا على الاستمرار في الحياة"(10).

إن التعدد إذن هو الذي يمنح الحركية الثقافية على المستوى الكوني إذا ما تم احترامه على المستوى المحلي. ومن هنا فقد أصبح من المهم والمفيد جدا أن يحس المرء بأنه موجود ليس فقط كمواطن في بلد معين، بل كمواطن ينتمي إلى منطقة معينة من هذا البلد أو ذاك، ذات خصوصيات محلية. فالقيمة المطلقة للثقافة هي أن تنعم كل منطقة على حدى بخصوصياتها الثقافية، لكن دون إغلاق مجال التلاقح مع ثقافات المناطق الأخرى المجاورة، وذلك بهدف الإغناء والإرتقاء. ومن أجل أن تتحقق هذه القيمة فإنه يتوجب علينا أن نطرح سؤالا قد يبادر إلى أذهاننا، وبالتأكيد، أثناء حديثنا عن الجهوية– . Regionalismإنه سؤال يتعلق بنوعية الاستراتيجية التي ينبغي اتباعها لتدعيم هذه القيمة المطلقة للثقافة من دون المساس طبعا بالجسم الثقافي العام. ولكي تجد الثقافة المحلية متنفسا لها في الثقافة الأكثر شمولية، فإنها تحاول

دائما وباستمرار التأثير ولو جزئيا في هذه الأخيرة. ومن هنا نفهم بأن الثقافة المحلية، إن أرادت الرقي بنفسها، لا بد لها من البحث عن استراتيجية تجعل منها ثقافة أكثر كونية وعالمية من أن تكون محلية وانعزالية. وتبعا لهذا فقد أصبح من الطبيعي جدا أن المتتبع لشؤون الثقافة نوعا من التطفل الثقافي- Cultural Parasite، خاصة حينما يتعلق الأمر بثقافتين إحداهما تحت وطأة الأخرى. فعندما تكون هناك ثقافتان مختلفتان إلى حد التناقض الذي قد يصل درجة اللاتصالح، فإن كل محاولة من أجل الوحدة على المستويين الاقتصادي والسياسي سيكون مآلها الفشل الذريع. والتبادل الثقافي أيضا لا يمكن له أن يتحقق بين ثقافتين غير متكافئتين. ففي حالات التبادل الثقافي من هذا النوع فإن الثقافات التقليدية التي لا تملك سلطة المناعة والمجابهة تفقد مقومات استمراريتها بالتدريج إلى أن تصل درجة الذوبان والانصهار التام. أقول هذا لأنه عندما تحدث علاقة بين ثقافتين مختلفتين تكون هناك قواتان متضادتان- Two opposing powers تعملان على الحفاظ على التوازن فيما بينهما: الأولى جاذبة- Attractive والثانية دافعة- Repulsive. فبدون جاذبية لا يمكن لأحدهما التأثير في الأخرى، كما أنه بدون عملية الدفع لا يمكن لهما العيش معا كثقافتين منفصلتين-متمايزتين: أي أن إحداهما ستعمل على ابتلاع الأخرى، أو أن كليهما سيصل بهما التداخل فيما بينهما إلى حد اللاتمايز، وبالتالي الحصول على ثقافة واحدة.

هذا ما يؤكده "سليم عبو" أثناء حديثه عن المثاقفة حيث يرى أن هذه تتخذ خمسة مسارات، ثلاثة منها تتسم بالاتصال والإثنان الباقيان يتسمان بالانفصال. ففي المسارات الثلاثة الأولى نجد مسار إعادة التأويل أي عندما تكون المثاقفة مادية. ثم يأتي مسار التوليف والتركيب أي عندما تكون المثاقفة شكلية. ويبقى المسار الثالث ألا وهو مسار التوفيق أي عندما تؤدي المثاقفة إلى إقرار نموذج جديد يتميز عن النموذجين السابقين اللذين أديا على حدوثه.

أما فيما يخص المسارين الباقيين والمتعلقين بمسألة الانفصال، فإن سليم عبو يحددهما في مسار الاستيعاب والهضم حيث تبتلع ثقافة ما ثقافة أخرى وهنا تفشل المثاقفة. ثم بعده يأتي مسار المثاقفة المضادة حيث يتم رفض المثاقفة ومكتسباتها للحفاظ على البقاء(11).

وعليه نجد الناقد الإنجليزي"تي-إس إليوت" يؤكد على فكرة أنه على الشعب الذي أراد لثقافته التمتع بحق النماء والتطور أن لا يكون موحدا توحيدا صارما، ولا أن يكون منقسما انقساما صارخا. فالإفراط في كلتا الحالتين، وإن اختلفت الأسباب والمبررات، ستتمخض عنه نتيجة واحدة، إنها الاستبداد، وبالتالي الاستيلاب الثقافي. وهذا الأخير سيعيق تطور الثقافة إلى حد بعيد (12). بعبارة أدق، فإنه ليس من مصلحة شعب معين أن يلغي الحدود الثقافية المشكلة للثقافة الوطنية لهذا الشعب أو ذاك، ولا أن يجعل من هذه الفروقات عائقا يعرقل تطور الثقافة وسببا للتفكك والانهيار التام.

إن للثقافة المشتركة لشعب ما أو حتى لمجموعة من الشعوب دورا فعالا في تدعيم فكرة الوعي بالمصير المشترك. وعلى غرار هذا الإحساس نجد أن الشعوب التي تمتلك ثقافة وحضارة مشتركة تكون لها قابلية قصوى لتجاوز خلافاتها الإيديولوجية- Idiological Disagreement مهما بلغت شرارتها وحدة التوتر بينها. وهذه الشعوب بإمكانها أن تتوحد فيما بينها ضدا على شعب آخر أو مجموعة من الشعوب ذات الحضارات الأخرى غير حضارتها. ومن أجل ثقافة مشتركة وموحدة بين الشعوب ذات التاريخ المشترك والحضارة المشتركة، لا بد من تغير اقتصادي وسياسي حقيقي مبني على الشعور المشترك بالمسؤولية اتجاه الأهداف المتوخاة من لدن هذه الشعوب. وغير بعيد عن هذا، نجد "صامويل هنتنغتون--Samuel Huntington يقول بأن خطوط النزاع الرئيسية ستكون على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل بين الحضارات الكبرى في العالم. ثم يضيف بالمقابل بأن هذا لا يعني أن النزاعات الحادة ستكون بين الحضارات الكبرى وفقط، بل إن ذلك يتعداه إلى عناصر نفس المجموعة الحضارية، غير أن هذه النزاعات ستكون من طراز مغاير وأقل حدة وعنفا من الأخرى الأكثر انتشارا وضراوة(13). وعلى هذا الأساس فإنني أرى بأن التحولات السريعة والانهيارات المفاجئة التي مست بالخصوص الأقطاب التي كان لها الدور الرئيسي في إدارة وتسيير شؤون العالم قد عملت على تغيير أعلى أنماط النزاع الذي كان قائما بين هذه الأقطاب وخصوصا في عهد الازدواجية القطبية. وعليه فإنه إذا كان سؤال الأمس القريب إبان الحرب الباردة بين القطبين، ارتبط أساسا بالنزاع الإيديولوجي والمعبر عنه ب"مع من أنت؟" فإنه الآن وبعد انهيار أحد القطبين ليصبح العالم أحادي القطبية- Unipolar أخذ يغلب على السؤال طابع النزاع الحضاري بحيث أن السؤال السائد اليوم أخذ يطرح بصيغة أخرى مغايرة إنه سؤال "من أنت؟". إن الحديث عن اللغة والثقافة الأمازيغيتين يستلزم بالضرورة وعيا مجتمعيا يدرك معنى اللغة والثقافة وما يكتسيانه من أهمية فائقة في تكوين الشخصية الوطنية، وبالتالي المساهمة وبشكل جمعي في إنتاج اللغة والثقافة القادرتين على لقاء الآخر مواجهة وحوارا.

قد تكون هناك أساليب اجتماعية ثابتة، لكن بنسب ضئيلة جدا. فكل من اللغة والثقافة في تغير دائم ومستمر. فالمجتمع، واللغة والثقافة ثالوث لا يقبل التجزيء. وبذلك تكون الثقافة الأمازيغية جزءا من لا يتجزأ ممن يحملها، كما أنه لا يمكن الحديث عن اللغة الأمازيغية بمعزل عن الثقافة الأمازيغية بشكل عام. أي أن اللغة تكون في علاقة دائمة ومباشرة بالمجتمع وذلك عبر أعضاء هذا المجتمع ذاته، عملهم، الطريقة التي يحملونها بها، أغانيهم، قصصهم وأمثالهم..الخ. فمن أجل إبقاء وصيانة الثقافة الأمازيغية فإنه لا شيء قادر على أن يقيها من غير اللغة الأمازيغية ذاتها ما دامت هي ضامن استمراريتها وهي المسؤولة الأولى على نبض الحياة في شرايينها. ولكي تحيى اللغة الأمازيغية من أجل هذا الغرض يجب عليها أن تكون لغة أدبية بالدرجة الأولى وليس بالضرورة لغة علمية لكن لغة شعرية بالأساس: إن لم تكن كذلك فإن انتشار التربية و التعليم سوف يبيدانها. وعلى هذا الأساس يقول "ريني ويلك": "اللغة مادة الأدب مثلما الحجر والبرونز مادتا النحت ومثلما الألوان مادة الرسم والأصوات مادة الموسيقى"(14). لا وجود إذن للأدب بدون اللغة، ما دامت هذه الأخيرة بمثابة عموده الفقري. فالعلاقة بين هذين الإثنين علاقة إلزامية لا يمكن لأحدهما أن يقوم لوحده في غياب الآخر أو بمعزل عنه. فالأدب المكتوب باللغة الأمازيغية قد لا يشكل أي تأثير مباشر على المستوى العالمي. لكن بالمقابل، إذا لم تهذب اللغة الأمازيغية فإن الشعب الذي تنتمي إليه سيصبح أكثر عرضة لفقدان شخصيته العرقية. ومنه أرى أنه من الجميل جدا أن يستمر العرب عربا، والأمازيغ أمازيغا، والفرس فرسا...الخ. ومن هنا أيضا فإنه من إيجابيات "تاموزغا" أن يستمر الريفي ريفيا، والقبائلي قبائليا... وغيرهما كثير. وبموازاة ذلك نجد بأن هناك شعوبا غير أمازيغية سكنت بلاد "تامازغا" والتي ما فتئت تتشبع بثقافات أمازيغية حتى أصبح من الإيجابي أيضا أن تستمر هذه الفئات في تشبثها بأمازيغيتها. لكن كيف يمكن فهم العلاقة الموجودة بين الثقافات المحلية من ريفية وقبائلية وغيرهما والثقافة الأمازيغية بشكل عام؟ وما هي السلوكات التي ينبغي على المرء اتباعها كي يجعل من الثقافة الأمازيغية ثقافة تنعم بنشوة الارتقاء وراحة التأصيل؟

إذا ما أفلحنا ولو جزئيا في الإجابة على هذه الأسئلة فإننا حينئذ سنكون قد لمسنا نوع العلاقة الموجودة بين العام والخاص، وبالتالي بين الكوني والمحلي على نطاق أوسع. فالتنوع الثقافي داخل مجموعة ثقافية معينة يجعل من عناصر تلك المجموعة أداة تتفاعل فيما بينها لتؤسس تفاعلا شاملا. والثقافة الأمازيغية بدورها تستمد نورها من عدد غير محدود من الثقافات المحلية والتي تتكون كذلك من ثقافات أخرى أكثر محلية. وعليه فإنني أرى أن كل من يتصدى للأمور العامة فإنه سيفقد حقه في كل خصوصية لا محالة. هكذا تكون الثقافة المحلية قد بات بمقدورها أن تستمر في التفاعل(أي في التأثير والتأثر، الإضاءة والاستضاءة، الإغناء والاغتناء) عبر زمان لا يتحدد باستمرار العوامل التي ولدتها. أما عن الاستقلالية وعدم ارتباط ما هو محلي بما هو كوني، فأنا أعتقد أن الاستقلالية الكاملة لا تقدر أن تكون حيث لا تقوى على ذلك، إنما دون أن يعني هذا تبعية هذا لذاك. أي أنه قد بات من الواضح جدا أن العالم الآن بإمكانه أن يتوحد ثقافيا لكن على نحو منفصل.

انفتاح الهوية الأمازيغية

قد يبدو للباحث أو القارئ بأن تحديد مفهوم الهوية- IDENTITY والذي يظهر في كثير من الكتابات وكأنه بديهة لا تحتاج إلى تعريف، أو أن المفهوم يفصح بنفسه عن نفسه. وعلى النقيض من ذلك فإن مفهوم الهوية يحمل في طياته التباسا وغموضا شديدين بالرغم من أن كثرة تداوله قد يوحي ببساطة معناه والمضمون الذي عليه انطوى. والهوية في صيغتها العامة هي المطابقة، ومطابقة الشيء لذاته يعني كل ما يميزه عن غيره ويجعله مغايرا له. وماهية الشيء هي كنهه وكل ما هو متأصل ومتجذر بذاته ولذاته. ويعد العرق والدين واللغة والعادات والتقاليد من أهم مرتكزات الهوية. إن هوية شعب تحيل على ماهيته، أي على كل ما يميزه عن الآخر ويجعل قوامه مختلفا. غير أن الهوية هاته لا يمكن لها أن تكتمل إلا حين تكون في علاقة حميمية بالوعي الذاتي، أي أن شعبا معينا ليس بمقدوره أن يتلمس هويته إلا إذا واجه شعبا آخر له هوية تختلف عن هويته. وعلى هذا المستوى فإن الديموقراطية الحقة هي إحدى الوسائل الناجعة لتعايش الهويات بعضها مع بعض حيث تمكنها من التواصل دون فقدان استقلاليتها.

والهوية بشكل عام هي مجموع صفات وأحاسيس، ونمط حياة، هي في المأكل والمشرب والملبس والموسيقى والفن والحرية والصمود...إنها نمط معيشي يتفاعل مع المتغيرات المحيطة بالإنسان، فيتغير معها دون أن يذوب فيها، يتأصل بداخلها لكنه يكتسب الجديد دائما؛ وبذلك ستكون الهوية هي أحد مكونات الشخصية الوطنية بامتياز(15).

إن شعور مجتمع معين بالتهديد من طرف قوة غريبة هوياتيا هو الذي يوقظ في الأول هويته ويلزمه بمسؤولية الدفاع عنها. وهنا يمكن التمييز بين منطقين إثنين: الأول شكلاني، والثاني تاريخي. فالمنطق الشكلاني يأخذ بمقولة الجوهر وسطوح الظواهر، وبالمقابل فإن المنطق التاريخي يرى الهوية في تعددية عناصرها وكذلك في الكيف الذي به تم احتواء هذه العناصر.

والهوية الشكلانية لا تلتفت إلى مستجدات التاريخ. أما الهوية التاريخية فتبني ذاتها بمضامين متجددة، وتتعرف على ذاتها بمقدار ما تعرف الآخر المختلف النقيض. والفرق الذي يميز بين هويتين مختلفتين هو مضمون الوعي الذي يحملهما وتعبران عنه. ومن هنا فإن الوعي الشكلاني يقرر الهوية معطى جاهزا وناجزا مما يدفع صاحبه إلى إشهار عناصر هويته، بل واستخدامها في مواجهة عناصر الهوية النقيضة. وهكذا تجده يواجه دين الآخر بدينه، ولغة الآخر بلغته، وأساطيره بأساطيره، وكل ما هو للآخر بما هو ذاتي. بإيجاز فإنه يتم التركيز على مقولة الفرق والفصل المطلق. أما عن الوعي التاريخي فإنه يأخذ، أولا وأخيرا، بمقولة الاختلاف حيث يرى في وحدة المجتمعات الإنسانية شرطا أساسيا للتمييز فيما بينها. وعلى غرار هذا كله نجد زعيم المدرسة الوجودية"سارتر" يقول: "الكائن فارغ من كل تحديد ما عدا الهوية مع ذاته"(16)، ويفهم من خلال الشق الأول من المقولة أن الكائن البشري مجرد من الانتماء ما عدا المجتمع الإنساني، أي أنه يجب النظر إليه من زاوية كونية؛ أما الشق الثاني من نفس الكلام فإنه يلح على الرجوع دائما وبطريقة مستديمة إلى ما يمكن الاصطلاح عليه ب"الهوية الذاتية- Self Idetity". ومن هنا يمكن استخلاص نوع العلاقة التي يجب أن تربط بين الكوني والمحلي على نطاق أوسع، وبين الآخر والذات على مستوى أكثر دقة وتركيزا.

لكن وفي ظل هذا كله، هل بإمكان التقدم الاقتصادي تلطيف الهويات؟وهل من المجدي الوعي الذاتي بالذات في زمن التكتلات؟ وعلى غرار ذلك كله هل بإمكان هوية شعب أن تصمد في وجه التيارات الخارجية الجارفة، ذلك الشبح الذي يصطلح عليه "العولمة- Globalisation"؟ وهل بالإمكان الجمع بين ما هو كوني Global وما هو محلي- Local في إطار إمكانية التعايش فيما بينهما ليصبح لدينا ما يمكن نعته ب" GLOCAL"؟

صحيح أن للخصوصيات المحلية مايؤهلها للوقوف كسد منيع أمام كل دخيل وضيع. لكن أليس للثقافة الكوزموبوليتانية- Cosmopolitan Culture ما يجعل منها قوة ضاغطة قادرة على شق الطريق العابر للحدود المحلية؟

حقيقة أن العولمة وما تسخره من أساليب راقية ومذهلة أحيانا ما يمكنها من جلب ثمار أكثر وبتكلفة أقل. ويتعلق الأمر باستخدامها لما يصطلح عليه بالسلطة الناعمة- Soft Power والتي يقول عنها أحد المهتمين"ناي أوينز" _بأنها القدرة على بلوغ نتائج محددة عن طريق الاستقطاب دونما حاجة إلى الترهيب" (17). أما بخصوص علاقة الكوني بالمحلي فإن "بوث" يقول: "إن السيادة في انحلال، لقد أصبحت الدول أقل قدرة على إنجاز وظائفها التقليدية: فالعوامل الكونية تؤثر بصورة متزايدة في كل القرارات المتخذة من قبل الحكومات، وأنماط الهوية تصبح أكثر تعقيدا باطراد، مع تأكيد الناس لولاءاتهم المحلية في الوقت ذاته الذي يريدون فيه المشاركة في قيم وأساليب الحياة العالميتين" (18). لا بأس إذن أن نشير إلى أن العولمة بحركيتها الميكانيكية هاته قد ينجم عنها إفراغ الهوية من طابعها المحلي وذلك بحكم ما يحدث من تفاعلات مع هويات أخرى على نطاق كوني. والجدير بالذكر فإنه بالمقابل نجد بأن العولمة وما يتمخض عنها من تجاوزات في حق كل من ينوي التشبث بخصوصياته المحلية قد عملت، على النقيض من ذلك، على إذكاء الشعوب والمجتمعات خاصة الناضجة منها على أن توعي نفسها أكثر بمدى خطورة العولمة والتسلح أكثر بالحكمة واليقظة أثناء كل تعامل هذه الشعوب مع هاجس الكوننة الذي أصبح يفرض نفسه يوما بعد يوم.

إن الحديث عن العولمة الثقافية يضعنا أمام تساؤلات من نوع: لماذا استطاعت لغات وثقافات بعض الشعوب أن تزدهر وتكتشف بذلك أرضا مجهولة بكرا، في حين بقيت لغات وثقافات الشعوب الأخرى تتخبطان وتجرجران في الصفوف الخلفية؟ ولماذا لم تزدهر لغات وثقافات هذه الشعوب وتراهن بذلك على مستقبلهما مثلما راهنت لغات وثقافات الشعوب الأخرى على مستقبلهما؟

إنني أعلم علم اليقين أن الكثيرين يطرحون مثل هذه الأسئلة اليوم؛ وأنا مقتنع جدا بأن ازدهار لغة وثقافة ما، هو من صفات الشعوب الناضجة والمجتمعات الراقية المستقرة. ويكفي للبرهنة على ذلك أن أقول بأن أنضج ما يمكن أن تنتجه حضارتنا الأمازيغية مثلا هو آخر ما نهتم به، وهو آخر ما نترجمه ونرعاه ونستفيد منه، في حين تمتلئ أسواقنا وديارنا بالإنتاج المتوسط والهزيل للغات وثقافات غازية. ومن هنا فإن ازدهار لغتنا وثقافتنا الأمازيغيتين سوف لن يتأتى، وبالتأكيد، إلا من خلال إرادة ذاتية واعية بمعاناة ما نعانيه من مشاكل الازدهار ضمن تراثنا الخاص، وفي أعمق أعماقه، لا أن نكتفي بالتبني والتقليد العقيم. وبعبارة أكثر صراحة، أن ننخرط في مشكلة الخلق، الإبداع وتفكيك المعادلات الصعبة مع الأخذ بإمكانية البحث الحر الذي يجب تطبيقه على كل الحالات الثقافية الخاصة بتاريخنا الأمازيغي العريق وكل ما هو منا ونحن إليه.

إن الاعتراض الذي قد نوجهه لكل دخيل سخيف لن تكون له أهمية في نظري إلا في حالة واحدة: إذا ما قررنا نحن الأمازيغ أن ندخل "ساحة المسؤولية الثقافية والفكرية". ودون تحقيق هذا الشرط فإن كلامنا سيبقى ثرثرة ولغوا فارغا، وتبقى مسؤولية كشف التراث حكرا على الباحثين الدخلاء، وإنها لمأساة بعينها أن يعرفك الآخرون وأن تجهل نفسك. بل الأخطر أن تصر على أن تجهلها إلى أبد الآبدين. ألا يحق لنا القول بأن مسألة أن يعي الإنسان ذاته تعني الحصول على بطاقة الانخراط في مسلسل الحياة؟

إن عالم اليوم قد عرف وما يزال تحولات اقتصادية وسياسية، اجتماعية وثقافية. وهذه التحولات أصبحت تسخر بالكامل لخدمة مصالح دول معينة دون غيرها. وبذلك أصبحت دول المركز بإمكانها التمسك بخيوط وآليات التحكم عن بعد في الشؤون الداخلية لدول الأطراف. فالغرب عموما وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية يسعى دائما إلى إضفاء المشروعية على كل ما هو غربي وذلك بتصدير ما هو خاص على أنه إنساني وعام. وكان هذا من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ارتفاع أصوات من هنا وهناك تنادي بكيفية التعامل مع هذه الظاهرة التي أصبحت توصف بالكاسحة. وفي ظل هذا كله تكون العولمة وما يطابقها من مصالح أكيدة لمروجيها وذلك بهدف سحق كل ما هو محلي وخاص، وبأقصى سرعة ممكنة، وقد استخدمت مختلف الوسائل وأبشعها لإشباع نزواتها على حساب بقية شعوب العالم المقهورة. ومن هنا تكون إشكالية العولمة والموقف منها يكمن في نوعية العلاقة بين الكوني والمحلي. والثقافة في هذا المجال تحضى بمكانة خاصة وأهمية قصوى، خاصة إذا علمنا بأنها تعد بمثابة رقم مهم في المعادلة التي نحن بصدد الكشف عن صيغتها، بحيث عبرها يتم تهييء المناخ الملائم والأرضية الخصبة بخصوص هذا الشأن. وعلى هذا النحو فإننا نحن الأمازيغ لسنا في حاجة إلى مناعة ثقافية ضد العولمة أو التعريب، بل إلى مناعة فكرية وعقلية، وكل من زعم غير ذلك فهو، في نظري، خادع أو مخدوع. فحين نخشى اختراق العولمة أو التعريب لهويتنا الأمازيغية حينئذ لن يكون الاختراق بسب قوة العولمة أو التعريب الكاسحين في غالبيتهما، بل يعود ذلك بالأساس وفي كثير من الأحيان إلى ضعف في قدرتنا على تجسيد محاسن هويتنا تلك، إذ أن العامل الذاتي هو الحاسم دائما مهما كانت قوة العوامل الخارجية.

بصيغة إجمالية فإن مصطلح "الثقافة" قد يكون مقرونا بتطور الفرد أو مجموعة من الأفراد أو مجتمع بكامله؛ غير أن ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة المجموعة، تماما كما تتوقف هذه الأخيرة على ثقافة المجتمع بكامله والذي ينتمي إليه الفرد أو المجموعة. هكذا فإن تحصيل الحاصل يكون هو أن ثقافة المجتمع هي الأكثر أهمية وهي المعنى الأنسب لمصطلح "الثقافة" وذلك بحكم العلاقة التي تربط المصطلح بالمجتمع كافة. لكن مع ذلك تبقى لثقافة الفرد وثقافة المجتمع علاقة صميمية لا يمكن تفاديها بأي حال من الأحوال. وهنا نجد أحد المهتمين"إدوارد بوند" يقول: " إن كل واحد منا يحمل في ذاته مجتمعا بكامله، لذا علينا أن نمثله وليس فقط الانتماء إليه"(19). وتأسيا بعلاقة الكوني بالمحلي فإنه ليست الثقافة المحلية بوطنية خالصة ولا الكونية منها بإنسانية خالصة، و لكنها جمع بينهما معا في آن. لذا فإن خطوط التواصل بين الكوني والمحلي يجب أن تكون في اتصال دائم ودون انقطاع. في حين أن ما نريده على الأرجح وما يجب التركيز عليه أكثر هو تنويع أحداث القصة التي يتم فبركتها الآن في إطار ما يسمى بالعولمة؛ و كذلك تنويع أشخاصها وفقا لتعددية الثقافات- MultiCulturalism الإنسانية جمعاء. وعلى هذا الأساس أيضا فإن إمكانية وجود "ثقافة عالمية- World Culture" يجب أن يشمل ليس فقط كل ثقافة مشمولة في هذا العالم وإنما أيضا كل ما ينتمي "للثقافة". ومن بين العوامل التي تعمل على تقليص الهوة بين الحضارات نجد أن كلا من عوامل القراءة والكتابة والتدريس والتعلم، فهذه جميعها أنشطة تهدف إلى تعريف الحضارات إحداها بالأخرى. غير أن الشروط التي تلتقي بموجبها الحضارات، عبر الحوار أو الصراع على السواء، ليست بالضرورة، شروط أطراف متساوية في عملية اللقاء هاته؛ وبالتالي فإن هذا اللقاء سوف لن يكون مهذبا. والتنوع الثقافي سواء على المستوى المحلي أو الكوني سيظل إحدى الحاجات النفسية والروحية الأكثر أولوية، والذي يمكنه أن يغدو أكثر فأكثر مصدر نزاع داخل المجتمعات وفيما بينها.

إن طبيعة الثقافة الأمازيغية باعتبارها ثقافة أصيلة ولكونها بالتالي ثقافة وطنية وإنسانية في آن، تؤهلها على أكثر من مستوى، لصيانة خصوصيتها وهويتها في الوقت نفسه الذي نجدها تتفاعل مع ثقافات أخرى وتتحاور مع هويات مختلفة مشكلة بذلك أو بالأحرى مساهمة في تشكل ما يسمى بالثقافة العالمية- Cosmopolitan Culture. ومن أجل الإسهام في دحض كابوس- Nightmare العولمة وما ينطوي عليه من تناقضات، فإنه لا بد من التفكير باتجاه التعددية القطبية- Multipolarism كشرط لا غنى عنه لتجاوز الآثار السلبية المهيمنة على الوضع العالمي والمحلي الراهن. فالأحادية القطبية- Unipolarism تستلزم بالضرورة قيام وتشكل كيان قوامه" التعدد القطبي الأحادي- Unimultipolarism. وحتى لا نرى بعيون الآخرين لأن الذي يرى بعيون الآخرين أعمى، فإن كل فرد في المجتمع يساهم بشكل أو بآخر في بناء مجتمعه وذلك عبر لغته وثقافته سواء أكان ذلك بوعي منه أو بغير وعي، تماما كما أن لكل نحلة في الخلية وظيفة تقدمها في إنتاج العسل لأنه يساعدها على البقاء.

وبذلك فإن كلا من اللغة والثقافة على وجه الدقة هما بمثابة إرث إيكولوجي- Ecological heritage لا ينبغي إبادة أحدهما لأن ذلك سيحدث خللا صارخا في التوازن البيئي بلا جدال.

الهوامش:

(1)د. حيدر إبراهيم، العولمة وجدل الهوية الثقافية، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد الثاني ، أكتوبر/ديسمبر 1999 ص 97-98.

(2)Edward Bond. The fool and we come to the river. (A play). Fakenham press Ltd.,Fakenham Norfolk 1980, P. XII.

(3) Edward Bond. Ibid. P.X.

(4) Tlatli salah-Eddine, La carthage punique, Paris, librairie d'Amerique et d'Orient, maisonneuve, 1978, P. 175.

(5)د. محمد شفيق. لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين. الطبعة الرابعة. إصدارات أنفو برايت 2003. ص73- 74.

(6) Brunnel Pierre, Jouanny Robert, les grands écrivains du monde, Paris, F. Nathan, 1976. P.238.

(7) Brunnel Pierre, Jouanny Robert, Ibid. P. 370

(8) Ben abou Marcel, Juba II ou l'africanité vassal de Rome, in les africains, Paris, Ed. Jeune Afrique, 1977, P. 146.

(9) Ben abou Marcel, les africains, P. 161

(10)د. المهدي المنجرة. حوار التواصل. مطبعة النجاح الجديدة. الطبعة السابعة. الدار البيضاء 2001 ص. 34.

(11)Salim Abou. L'identité culturelle, Relation intereth-nique et probleme d'acculturation, edition anthropos, Paris, 1981, PP.57- 60.

(12) T.S. Eliot. Notes towards the definition of culture. Whitstable litho Ltd. Whitstable Kent. Great Britain, 1962, P.50.

(13) Samuel P.huntington(1995). The clash of civilisations and the remaking of world order.

(14)جريدة الصحيفة (أسبوعية) العدد الصادر بتاريخ7 يونيو 2002.

(15) د. أحمد مجدي حجازي، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية: رؤية نقدية من العالم الثالث. مجلة عالم الفكر، المجلد 28 العدد الثاني. أكتوبر/ديسمبر 1999 ص.129.

(16) J.P Sartre. L'être et le néant, Gallimart, Paris, 1934, P.50

(17)راجع مجلة " Foreign affairs" العدد الصادر في مارس 1996.

(18) Booth, K. (1991) "Security and anarchy: Utopian realism in theory and practice", international affairs 67: 527- 42.

(19) Edward Bond. Ibid. P. XIV.

الفخار صناعة نسائية:

بين رمزيته الأسطورية ووظيفته العملية

(2/2)

■ عبد الله هرهار

– المرأة وظروف العمل:

في زادرة، تشتغل بهذه الصناعة ما يزيد عن أربعين امرأة، والعمل هنا يكون فرديا، غير منظم، معاشيا، لا يخرج عن إطار العائلة، فإذا كان هناك تعاون فإنه يكون بين الأم وبناتها أو بينهن وبين زوجة الابن أو العم، بمعنى أنه لا نلمس أي تعاون خارج الأسرة، وهو كذلك عمل بدائي وطبيعي تُستعمل فيه تقنيات بسيطة مستوحاة من مجال الطبيعة المحلية، وفي الغالب فإن هذه التقنية متوارثة ولا تجديد فيها: «هذا متوارث جيلا بعد آخر، يموت الأجداد ويتركون ذلك لأبنائهم...» تقول إحدى السيدات؛ غير أن ذلك لا يعدم الرغبة لدى مبحوثاتي، فهن يطمحن إلى تطوير عملهن «لو وجدنا المساعدة لأنشأنا تعاونية، حتى نتمكن من تطوير عملنا، ونقلل من أتعابنا»، تقول زهرة، وهي مسنة تجاوزت الستين من عمرها.

عندما نفكر في طبيعة هذا العمل، سنجد أنه عمل يومي، موازٍ للأتعاب اليومية التي تقوم بها المرأة، الطبخ والغسيل والنظافة وتنشئة الأطفال وتربية المواشي، بل العمل خارج البيت من قبيل إحضار الحطب والطين، أو التبضع من الأسواق الأسبوعية، أما الماء فهو متوفر في هذا الدوار ولا يطرح أي مشكل، وقد تبيّن لنا من خلال هذا العمل أن الماء توفره السواقي أو العيون حيث يخترق أغلب البيوت.

قلت إن هذا العمل هو عمل يومي وإعدادي، فيه تُحضر المرأة الأدوات التي ستعرضها للبيع في السوق الأسبوعي، وتجدر الإشارة هنا أن المرأة الزادرية تقصد سوقين على الأقل: سوق الأحد بتاهلة، ثم سوق الثلاثاء بزراردة، حيث تعرض منتوجاتها، وتشتري ما تحتاجه خلال الأسبوع، وقد يحصل أن يتم تبادل المواد المنتَجة بكميات معادلة من الحبوب والزيت والصوف، وهذا يُذكّرنا بطرق قديمة في تبادل الخيرات عن طريق المقايضة، ولا زلنا نجد لها أثرالحد الآن في بعض المناسبات وخاصة بين النساء وبعض الباعة المتجولين الذين يقصدون دواويرهن لاسيما خلال أيام الأسواق الأسبوعية، ولهذا التوقيت دلالته، لأن الدواوير عادة ما تكون خالية من الرجال الذين يتوجهون للسوق خارج الدوار، وهي حقا مناسبة تستغلها المرأة لشراء ما تحتاجه من أدوات منزلية قد لا يحضرها الزوج أو يتمادى في إحضارها، كما أنها مناسبة لاقتناء بعض الأدوات الأخرى كالحلي أو بعض المجوهرات الأخرى.

ما الأدوات التي تُنتجها المرأة؟ وما ظروف إنتاجها؟

تتصف هذه الصناعة بالبساطة والبدائية، وأهم ما تُنتجه المرأة هنا مرتبط بالحاجة، لذلك فمن السهل أن نحدد هذه الأدوات فيما ياي:

–1 **الفرّاح**: وهو آلة تُستخدم في تهييء الخبز.

–2 **الكسكاس**: يُستخدم في تهييء الكسكس.

–3 **المجمر**: يُستعمل كذلك في الطهي حيث يوضع به الجمر.

–4 **مجمر البرّاد**: يُستعمل بمعية قنينة الغاز في تهييء الشاي وغيره.

–5 **الكدرة**: آلة تقليدية تُستعمل في الطبخ.

–6 **النافخ**: آلة توضع تحت الطلب، ويستعملها مربي النحل.

كما بإمكاننا أن نصادف أدوات أخرى غالبا ما تكون تحت الطلب، كأدوات التجميل، أقصد المزهريات والديكورات، ولكن هذا النوع من الإنتاج يكون نادرا، لأن الإنسان القروي لا نجد ببيته إلا ما يستعمله، أما «الديكورات» فهي من الكماليات وليس الأساسيات، والإنسان هنا غالبا ما لا يهتم بذلك، فالكماليات تُترك لأهل المدن، ومن لم يقدر على النفيس منها يقتني صورا مستنسخة ويؤثث بها فضاء بيته.

هذه هي الأدوات التي تصنعها المرأة في زادرة، وهي استجابة للطلب المحلي، أعني أن المرأة تنتج تحت طلب اجتماعي، فهي توفر ما يحتاجه الإنسان، فعندما سألت النساء المنتجات عن القدْر الذي ينتجنه خلال الأسبوع جاءت إجاباتهن متقاربة، إذ بإمكان المرأة أن تنتج حوالي 13 فرّاحا في الأسبوع وستة مجامر، أربعة براريد، أربعة كساكس وأربع كدادير.

وهذا المنتوج يتماشى حسب حاجة السوق أو الطلب المحلي على ذلك، فمثلا في الأعياد الدينية (عيد الأضحى) نجد المرأة تركز على إنتاج المجمر دون غيره، لأنه هو الذي يرتكز عليه الطلب.

ما عرضناه سابقا يمكن أن تحصل عبره المرأة على حوالي 300 أو 350 درهما في الأسبوع، وهذه الكمية من النقود هي كل ما تحتاجه المرأة لسد حاجياتها الأسبوعية.

نستنتج هنا، أن المرأة تتمكن من خلال صناعة الفخار من تزويد بيتها بما تحتاجه (المصروف اليومي)، بل تتمكن من شراء بعض الألبسة لها ولأطفالها.

وتؤكد جل المستجوبات أن أغلب المواسم يكون فيها المنتوج في المستوى باستثناء فصل الصيف، حيث يكون الناس منهمكين في تجميع محاصيلهم الزراعية.

ما يمكن أن نسجله في هذا الصدد، هو أن ظروف العمل متعبة وصعبة، تقول إحدى النساء:«لا بديل لي عن هذا، لو وجدت حلا لانتهيت من هذا العمل الذي أنهاني...»، ولمعرفة ظروف هذا العمل الذي يُنهي ولاينتهي، سوف نحاول متابعة مراحل العمل، لأن الوقوف عند هذه المراحل سيكشف لنا تفاصيل اليومي وإكراهات الحصول على الخبز عند المرأة الزادرية كنموذج للمرأة التي تدير شؤون الأسرة في مجتمع ينعت من الخارج أو يبدو مجتمعا سلطويا وذكوريا، ولكن في العمق فالسلطة والقرار الحقيقي يبقى للمنتج/الفاعل أي للمرأة.



من خلال تتبعي لمراحل هذا العمل، يتبين لي أن المرأة تبذل جهدا كبيرا لا يمكن أن يعوضه ما تتقاضاه عنه خلال تسويقه بالأسواق المحلية.

1- تتوجه المرأة إلى مكان بالدوار لجلب التراب أو ما يطلق عليه (**أدقا**) وهي كلمة أمازيغية. ثم تحضر الرمل من الوادي المجاور، تقول إحدى السيدات:« إن المكان الذي نحفر منه التراب، كما ترى بعينيك، لم يطرأ عليه أي تغيير أو تحول، والغريب في الأمر أن هذه الأرض تبقى على حالها، ولا نؤثر فيها بعملنا هذا، وما هذه إلا بركة سيدي احمد المودن، لاحظ معي كيف أن مقالع الرمل أو الصخور التي تستعمل للبناء أو تعبيد الطرق تبدو واضحة، ويترك الحفر فيها والأخذ منها، ثقوبا واسعة وظاهرة تشبه الكهوف والمغارات، أما المكان الذي نحفر منه الطين (**أدقا**) كما ترى، فلا أثر عليه، نأخذ منه وكأننا لا نفعل، شايلاه أسيدي أحمد...». يتعلق الأمر هنابالإيمان ببركة الولي الصالح وفضله على أهل زادرة، إضافة إلى عمليتي إحضار التراب والرمل، يمكن للمرأة أن تخصص لهذا الغرض صبحيتين: الأولى لإحضار التراب والثانية لإحضار الرمل، وغالبا ما تستعمل الدواب فبذلك، وخاصة الحمار، ويبدو أن هذا الدوار على غير عادة قبائل آيت وراين يعتمد كثيرا على خدمات هذا النوع من الحيوانات، أما البغال فقد ارتفعت أثمنتها الآن كثيرا؛ فإذا توفّر بغل أو أكثر (زوجة) لدى قروي، فهذا مؤشر على يسره، ذلك أن التوفر على الدواب هنا أمر ضروري لما تسديه من خدمات كالحرث والحصاد والذهاب إلى السوق...

2- يحضر التراب إلى المنزل ويدق ب «**الرزامة**» أو ما تسميه النساء ب «**الزلاط**»، ويتعلق الأمر هنا بعصا تُهيأ لهذا الغرض، فهي غليظة نسبيا، تستعمل في «دق» التراب وتنقيته، ثم يُعرّض بعد ذلك للشمس قصد تجفيفه.

أما الرمل فتتم تصفيته وتنقيته من الحصى أو الحجارة الصغيرة، ثم يُخلط جيدا بحيث يمتزج بالتراب، وبعد ذلك تشرع المرأة في مزج الخليط (تراب+رمل) مستعملة رجليها؛ والجمع بين الماء والرمل يعطي للمرأة خليطا أو عجينا «مدلكا» بشكل جيد. بعد ذلك تحضر المرأة «**الرطالة**»، وهي أداة دائرية الشكل، تُصنع عادة من روث البقر الممزوج بالتراب، وفوق هذه «الرطالة» تصنع الأدوات الطينية المرغوب فيها.

إن عملية المزج أو الخلط لا تتطلب وقتا طويلا، وتأتي بعدها عملية صنع الأدوات المرغوب فيها. وعندما تُصنع الأدوات الطينية تودع جانبا، وتُعرّض تدريجيا للشمس حتى تتماسك جيدا، وحينذاك تعود إليها المرأة من جديد قصد «حكّها»، ثم تحضر الحطب والتبن، فتضع «رزمة» من الحطب في مكان ما بالبيت أو قربه، ثم تحيط النار المشتعلة بالأدوات الطينية قصد تجفيفها، وقد تستغرق العملية أكثر من ثلاث ساعات أي إلى حين انطفاء النار بحيث تصبح الأدوات المصنوعة متماسكة وصلبة. وهذه العملية تتطلب وجود أكوام من الحطب يتم جلبها من الغابة المجاورة لهذه الغاية ولأغراض أخرى كالطبخ والتدفئة. وقد سألت النساء وعاودت السؤال عن الطقوس المصاحبة لهاته العملية فأكدن أن الأمر يتم بشكل عادي، اللهم ما تردده المسنات عادة: « يا ربي، يا سيدي احمد المودّن سخّر لينا هاد الشي...».

3- الخطوة الموالية للتجفيف هي تزيين الأدوات الطينية المصنوعة، فما هي الأدوات المسخرة والمستعملة في ذلك؟

عندما نتابع بصبر خطوات صناعة الفخار، ونستمع إلى مبدعاته، نجد أنفسنا أمام قاموس خاص، إذ لا يمكن للوهلة الأولى معرفة وفهم دلالة كل ما تتلفظ به المرأة، مما اضطرني مرات كثيرة للتساؤل عن دلالة هذا الاسم أو ذاك.

إن الأدوات والمواد المستعملة بسيطة للغاية، ، ومن بينها «**أسيو**» وهو حجر أسود اللون يتم إحضاره من الحياينة وبالضبط من «عين لكدح»؛ تشتريه المرأة من الأسواق المحلية حيث يحضره أحد الباعة بثمن عشرة دراهم للكلغ.

يتم إحضار تراب أبيض (**بياضة**) تبلط به المجامر، أما باقي المصنوعات فيخصص لها تراب أحمر، قبل تزيينها. إذ بعد عملية التجفيف تُطلى المواد الطينية بقشرة إضافية حتى تتماسك، فالقشرة البيضاء تُضاف للمجامر، أما الحمراء فتضاف لباقي الأدوات. أما حجر «**أسيو**» فيتحول إلى مسحوق، ينضاف إليه الماء؛ ويتخذ هذا المزيج لونا أسودا يُستعمل لتجميل وتزيين المصنوعات الطينية. وتُستَخدم في عملية التزيين «الشعاطة» وهي أداة بدائية بسيطة تُصنع من «زغب» بعض الدواب، حيث ينتزع من رقبتها، وهذه الشعيرات تُجمع متساوية بقليل من الطين، وعندما يجف الطين يتخذ شكل الريشة أو القلم؛ وبهذه الأداة تصنع المرأة أشكالا هندسية عبارة عن خطوط أو مربعات أو مستطيلات أو دوائر على واجهة مصنوعاتها. تزويقاتها بسيطة، ذات ألوان مستخلصة من النباتات أو من بعض المعادن. وقبل عملية التزيين هاته، تعمل المرأة الصانعة على حك أدواتها المصنوعة لتضفي عليها جمالاخاصا.

نلمس من خلال المراحل السالفة، ومن خلال المعاينة الميدانية، أن للمرأة الزادرية بيداغوجية هائلة، مما يسهّل تمرير الحرفة إلى الأجيال اللاحقة: فالتعلم يتم عبر الملاحظة والمشاركة أي «التعلم باللمشاركة». تقول إحدى المسنات: « إذا أراد الإنسان أن يتعلم عليه أن يبادر ويُخطئ، فلا أحد يولد عارفا أو فنانا، إن الإتقان يأتي بعد الممارسة، والممارسة مصحوبة بالخطأ، والذي لا يخطئ لم يبدأ بعد».

بعد الانتهاء من صناعة الفخار وتزيينه، تضطر المرأة رفقة الزوج أو الأطفال للنهوض باكرا حوالي الثالثة صباحا قصد نقل ما صنعته خلال الأسبوع باتجاه السوق الأسبوعي. وعملية النقل تتم اعتمادا على الدواب (الحمار–البغل)، وتؤكد المستجوبات أن هاته العملية بدورها لا تخلو من متاعب، كما ترافقها بعض الخسائر، إذ تتكسر بعض الأدوات في الطريق إلى السوق.

أكيد أن لهذا التراب أثرا كبيرا في نفسية المرأة، تقول إحدى المستجوبات: « هذا التراب هو مصدر عيشنا ورزقنا، منه نشتري ما نحتاجه، نحن نعيش من هذا التراب...». غير أن هذا النوع من العمل يخلق أحيانا لدى الممتهنات نوعا من الرتابة: « يا بني، لقد أتعبتنا هذه الحرفة وأتعبناها، إن ما نقوم به هذا اليوم نقوم به غدا، وما نقوم به في هذا الأسبوع نعاوده في الأسبوع الموالي، وما نقوم به خلال هذه السنة نكرره في السنة المقبلة».

غير أن الروتينية سرعان ما يتم تجاوزها، خصوصا عندما يتم الإنتهاء من عمل مفيد: « عندما ننتج عملا ونتقنه فإننا نشعر بنوع من الراحة، مصدر هذه الراحة هو أن عملنا كلل بالنجاح، وعوّض لنا جزءا من المجهود الذي بذلناه».

ترى ما الذي يجعل من هذا العمل عملا نسائيا؟

إذا وجّهتَ هذا السؤال للنساء، سوف تتلقى جوابا واحدا، وهو أنه عمل نسائي وكفى. وإذا كنت ملحا أكثر سوف تتلقى تبريرا أسطوريا للعمل أشرنا إليه في بداية هذه الدراسة، لكن ما يبرر «نسائية» الفخار عمليا هو الممارسة، أي المجهود اليومي والإبداعي للمرأة وقدرتها على تدبير بيتها ومجالها .إذا كان الأمر كذلك، فما الذي يقوم به الرجال هنا؟

إذا كان من الضروري تأكيد مساهمة الرجل في هذا العمل، فإن مساهمته غالبا ما لا تتعدى إحضار الحطب من الغابة المجاورة، أو مرافقة الزوجة للسوق. فبالرغم من كون الجماعة تعيش من الفخار، إلا أن هذه الصناعة تتعرض للاحتقار، وهو ما لمسته عند الجماعات المجاورة للدوار، ولدى بائعيه أيضا. وإذا كنت مصرا على معرفة ما يقوم به الرجل، فإننا نجده يحرث تلك القطع الأرضية الصغيرة التي يتوفر عليها، بل إن هذه المهمة نفسها لا تخلو في الحقيقة من مساعدة وحضور المرأة، كما أن دوار زرارة بدوره يعاني من ظاهرة الهجرة نحو المدن بحثا عن الشغل.

باختصار، إن دوار زادرة بالرغم مما يزخر به من إمكانيات طبيعية وجمالية وفنية، فإنه لا زال يعاني من التهميش. لقد استفاد الدوار من الكهربة فعلا، لكن نساءه مصرات على فتح الطريق وتعبيدها، مما سيساعد على فك العزلة عن الدوار وتيسير التنقل منه وإليه. وقد يستغرب الإنسان إذا علِم أن دوار زادرة لا يتوفر لحد الآن على مدرسة ابتدائية ولا على أي مستوصف. لذلك يبدو أن توفير المدرسة بات حاجة ملحة لمنع الانقطاع المبكر لتلامذة الدوار عن الدراسة؛ فهم يقطعون يوميا ستة كيلومترات ذهابا وإيابا للوصول إلى جماعة الصميعة. وإذا كان من الضروري الإشارة إلى هذه العوائق في الحياة، فإن نساء زادرة يشتكين من غياب مستوصف موجه ومساعد: يساعد المريض والمعتل، ويوجّه السكان صحيا وعائليا وإنجابيا.

ومما يسعد الباحث في الأخير، رغبة النساء في التنظيم والتجديد؛ فهن يطمحن إلى خلق تعاونية تكون فاتحة للتنمية المحلية، تُطور الأدوات المستعملة في صناعة الفخار، تُنظم العمل، وتفتح أوراش محاربة الأمية وتُزكّي التربية الإنجابية والصحية، فكيف يمكن أن يتحقق ذلك قريبا؟

فنون وفنانون

المعرض الأخير للفنانة نادية الأجراوي بالحسيمة

انعطاف جديد في مسارها الفني

جمال أزراغيد

نادية الأجراوي فنانة واعدة ذات موهبة قديرة، مهووسة بالبحث والتنقيب في المجال الفني، دؤوبة في كفاحها من أجل إثبات وجودها ومؤمنة بأن الطريق صعب، تشعر بخطواتها الأولى دائما حتى إن خطت عشرات الخطوات.. تعيش حالة الفن في حياتها وتطالب المشاهد في كل معرض أن يشاركها لحظة التمتع برؤية تشكيلات إبداعها الفني... عندما تقترب من شخصيتها تكتشف أنها فنانة مثقفة، خريجة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء (الأدب الفرنسي). تحدثك بلكنتها الطنجاوية بحب وتقدير عن أساتذتها الذين تلقت على أيديهم مبادئ وتقنيات الرسم بمختلف تلويناته، ملحة على أنها ستظل وفية ومدينة لهم بالجميل والثناء. تتذكر أساتذتها بالمعهد الإسباني أنّى درست الرسم لمدة ثلاث سنوات، والفنانين عبد الحميد أولاد حدو، وفاطمة السكاكي بالحسيمة، كما تتذكر خناثة بنقدور بطنجة وحنان مريد بتطوان، وغيرهم.

يكاد يطفح سجلها الفني بالمعارض الفردية والجماعية منذ إقامتها بالحسيمة، وبسعيها الملحّ إلى تحريك الساحة التشكيلية وإشاعة الثقافة البصرية إلى جانب زملائها في جمعية البادسي للفنون التشكيلية. وتلبيةً لنشاطها الفني ورغبتها في إرساء الفعل الفني النسائي بالمدينة أنشأت «تعاونية فن وديكور» التي ترأسها بمعية مجموعة من المريدات والمهتمات بالحقل الفني. أكيد أن هذا التأسيس سيساهم في تنشيط الساحة الفنية وخلق جيل من الفنانات لهن القدرة على خلخلة الرؤية التقليدية والمرخصة للإبداع النسائي.

أقامت الفنانة نادية الأجراوي معرضها الثامن بالمعهد الإسباني «ميلشور ذي خوبيانوس» بالحسيمة ما بين 31 ماي و10 يونيو 2004 خلال الأيام الثقافية الربيعية التي يشهدها المعهد كل سنة. وقد عرف افتتاح المعرض حضورا متميزا لفعاليات ثقافية ونسائية ومهتمين بالفن التشكيلي. وظل نفس الإقبال مسجلا على امتداد أيام المعرض.

الدخول إلى معرضها ارتماء في أحضان عالم سحري تتلاطم فيه الألوان والأشكال المتعددة الأحجام والحدود والأحلام المنفذة بتقنيات مختلفة، ربما أن الفنانة تجرأت على اختبار ذاتها واكتشاف مواهبها وطاقاتها المتوهجة حتى تنحت لنفسها بَصْمتها الفنية التي لا محيد عنها مستقبلا. جاء معرضها مفاجأة للوسط التشكيلي المحلي وانقلابا في موضوعها لم تمرّ به من قبل خصوصا أن المشاهد لأعمالها السابقة تعوّدها على خطها الفني الذي أنتجت فيه نصوصا تشكيلية جميلة ومتميزة ضمن الفن القيشاني والديكورات المنمنمة بجمالية شاعرية.

هكذا جاء المعرض انعطافا جديدا ومتغيرا لما رسمَتْه الفنانة لنفسها في المعارض السابقة، وستكون لها من دون مبالغة بصماتها المتميزة بعد أن تختار وتستقر على اتجاه فني معيّن، وإن كان هذا صعبا في الوقت الراهن لكونها في ريعان الفورة والهوس والتجربة والاكتشاف والمغامرة بهدف خلق ما يصدم أفق انتظار المشاهد.



من أعمال الفنانة نادية الأجراوي

لقد كان معرضها عبارة عن محاولة جادة للخروج بلوحتها المعهودة إلى الجديد وإعطائها ديناميكية الألوان وحيوية الشكل والأسلوب. كل لوحة من لوحاتها تشكّل مجموع مكونات نفسية تفتقت على يد ماهرة تلعب بالفرشاة وسط مساحتها لتمنح للأشكال درجة لونية أوضح ذات دلالة فنية وجمالية، ولتفسح الطريق أمام الإيحاء بدل إبراز الدقائق والتفاصيل التي قد ترهق عين المشاهد وتتلف حواسه. لذا نجد في أعمالها المرصعة بالمناظر الطبيعية المنجزة بتقنية الأبعاد الثلاثية مسحة ضبابية غائمة تكشف عن جمالية الإيحاء. كما أن اشتهاء الأمكنة ظل يراود الفنانة فامتطت فراشيها بألوانها الزيتية صهوة القماش لترسم نهر أبي رقراق وأزقة شفشاون الضيقة حيث يرتسم التراث المعماري. وبنفس الحماس الفني والتقنية اختبرت موهبتها في الرسم على الحرير فأنجزت لوحات تحفل بالظلال والضياء والحركية شبيهة باللوحات الزيتية. كما كان للرمل حضوره وتألّقه في لوحاتها متخذا ألوانا شتى تعكس افتتانها بالانزياح عن المألوف. ولم تستكن لهذه الأدوات والتقنيات بل جربت تقنية «الكراكيو» والرسم على الزجاج أيضا، فأبدعت مجموعة من اللوحات الزجاجية ذات الحمولة الطبيعية الحية أو الميتة، وكذلك تشكيل الفخار والحديد وفق أساليب متنوعة تنمّ عن رؤية فنية تمثل فيها الألوان سيمفونية متجانسة تسحر المشاهد بإيقاعاتها الصامتة. غير أن حضور الفن القيشاني الذي تتقنه الفنانة كان باهتا لإرادتها التميز بمواهبها المتعددة والتأكيد على عمقها التشكيلي لا سيما بعد أن تعاطت الكثيرات لهذا الفن بفضل نشوء ورشات تعليمه بالحسيمة.

المهم أن المعرض أماط اللثام عن عالم الفنانة نادية الأجراوي المتنوع التجارب والطاقات والإجتهادات والإمكانات الذاتية والفنية المتفجرة في شكل مجموعة من النصوص التشكيلية والفنية المميزة المعبرة عن نفسية المبدعة في علاقتها بالأشياء والواقع الذي تعيش فيه، وعن رغبتها في استنطاق شاعرية هذا الفضاء الهادئ إبداعا وتشكيلا. بهذا المعرض أثبتت -ممارَسةً- أنها تمتلك تكوينا نظريا وتقنيات فنية جيدة تدرك كيف تتصرف فيها بناء على حدس ومهبة متقدين يدفعانها إلى الحرية والتعامل الإنساني العالي والانفتاح على أكثر من أفق واتجاه، عكس الاتجاهات الشبابية المتسمة بالضعف التكويني والتقني.

أخيرا، إن أعمال الفنانة ستكون أول شاهدة على التغيير والتجديد في تجربتها الفنية، وشاهدة على امتلاكها لتلقائية بصرية عالية الحس والإبداع، على موهبة فنية جميلة تمنح لتجربتها الطاقة والإستمرارية، وعلى نجاحها إلى حد ما في رفع سويتها الفنية. إن معرضها يشكل محطة ضخ ترفد الحركة التشكيلية بالحسيمة وتغذيها بالجديد والجميل بشكل مستمر. المأمول من الجمعيات ذات الاهتمام المشترك على الصعيد الوطني أن تمد جسور التواصل الثقافي والفني مع «تعاونية فن وديكور» حتى تتسنى لها الفرصة لاقتحام معارض وفضاءات خارج وسطها الأصلي قصد تشجيعها على مواصلة الإبداع والتواصل وتبادل التجارب...

المعرض ناجح باعتراف الجميع... فهل من جديد ستزفّه لنا الفنانة في معرضها القادم؟ ذلك هو المعتاد في شخصيتها وطموحها الإبداعي.

أسبوع السينما المغربية بالحسيمة (قافلة شمس)

نظمت جمعية نادي بادس للسينما بالحسيمة والجامعة الوطنية للأندية السينمائية بالمغرب، بتعاون مع المركز السينمائي المغربي، أسبوع السينما المغربية من 24-05-2004 إلى 30-05-2004 تحت شعار (قافلة شمس)؛ هذا النشاط الذي يأتي في سياق التضامن مع ضحايا ومنكوبي زلزال الحسيمة والمناطق المتضررة من الزلزال.

وقد تم عرض الأفلام التالية: الباندية لسعيد الناصري، نساء ونساء للشرايبي، كيد النساء لفريدة بليزيد، فيها الملح والسمر وما بغاتش تموت لحكيم نوري، مبرك لإدريس اشويكة، علي زاوا لنبيل عيوش، وبعد لمحمد إسماعيل، وذلك بالمناطق التالية:

× **الحسيمة المدينة**: قاعة غرفة التجارة والصناعة والخدمات، دار الشباب، المعهد الإسباني، ملعب كرة السلة بسيدي عابد (حي المرسى)، ساحة محمد الخامس، نادي الصيد البحري التابع للبحرية الملكية.

× **مدينة إمزورن**: قرية الأطفال.

× **جماعة إزمورن**: ساحة الهواء الطلق.

وقد لقيت هذه التظاهرة السينمائية تجاوبا كبيرا من طرف الجمهور، سواء في مدينة الحسيمة أو خارجها، وهذا يدل على مدى اهتمام ساكنة الإقليم بالفن السابع، وما يمكن أن يقوم به من أدوار إشعاعية وتثقيفية وترفيهية...

لقد كانت االكوميديا الهادفة حاضرة من خلال أفلام (الباندية، مبروك، فيها الملح والسكر وما بغاتش تموت، كيد النساء) مما جعل الجمهور يستمتع بالفرجة ويستغرق في الضحك؛ الأمر الذي أنساه ولو لفترة صدمة الزلزال وهاجس التفكير الدائم في قوته وضرباته الإرتدادية ونتائجه الكارثية... كما كان للأفلام التراجيدية (نساء ونساء، علي زاوا، وبعد) وقع قوي على النفس، من خلال التماهي مع المشاكل الإجتماعية التي لازالت تنخر كيان المجتمع، كتعرض النساء للعنف واغتصاب الطفولة وتشريدها، والهجرة السرية والمخدرات والبطالة، وما إلى ذلك من القضايا التي تطرقها هذه الأفلام ممتطية في ذلك صهوة الخيال، والحبكة الدرامية الموهمة بواقعية الحدث.

ولم يكن حال مدينة إمزورن يختلف عن مدينة الحسيمة؛ لأنها استقبلت بدورها (قافلة شمس)، وتم عرض فيلم «مبروك» بقرية الأطفال بحضور المخرج إدريس شويكة والناقد السينمائي عبد الإله جواهري؛ الشيء الذي أفرح أطفال القرية، وعاشوا لحظات ممتعة مع ميلود وحماره الذكي. وكان لسكان جماعة إيزمّورن موعد كذلك مع الكوميدي المشهور سعيد الناصري في فيلمه الساخر «الباندية».

عبد السلام اللوزي

رئيس جمعية نادي بادس للسينما

صوت الاختلاف

مخاطر العولمة وأوهام الهوية

عرفت خطابات الهوية في المغرب -كما في باقي أنحاء العالم- انتعاشا قويا منذ انهيار المعسكر الإشتراكي وخفوت الحرب الإيديولوجية، بل وقدمت هذي الخطابات ذاتها كبديل لمواجهة مشروع العولمة. فما هي العولمة؟ وهل تشكل فعلا تهديدا للهويات؟ وإلى أي حد يستطيع خطاب الهوية التصدي لزحفها؟

العولمة -في نظري- مشروع حضاري رأسمالي غربي يريد أن يفرض نفسه كمشروع عالمي هيمني يعتبر أن خلاص العالم وسعادة الإنسان يتمثلان في تبني باقي المجتمعات والدول لهذا المشروع وقيمه باعتباره قيما كونية. ويعد كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» لفوكوياما خير معبّر عن خطاب العولمة؛ وفيه يؤكد أن الديموقراطية الليبرالية هي أحسن نظام إقتصادي واجتماعي وسياسي، وأن كل دول العالم ستضطر -عاجلا أو آجلا- إلى الأخذ بهذا النموذج واستنساخه. لكن هذا النموذج لم يعد يقنع حتى في مجتمعه الأصلي، إذ ظهرت خطابات وحركات مناهضة له تتهمه بكونه حوّل المجتمع إلى سوق كبرى كل شيء فيها يباع ويشترى بما في ذلك الإنسان؛ هذا الأخير أصبح يعيش استلابا ثقافيا وفراغا روحيا وعاطفيا لأن وجوده اختزل في بُعْد واحد -والتعبير لماركيوز- يتمثل في تلبية الحاجيات الغريزية من أكل وشرب وجنس... وغيرها من الرغبات التي تتم تقويتها بل وخلقها اعتمادا على تقنيات متطورة في الإشهار (مثير-استجابة). والنتيجة فقدان الإنسان لتوازنه النفسي مما يجعله يقبل بشكل متزايد على تناول مختلف أنواع العقاقير (مخدرات، منشطات، مسكنات، منوّمات...) لمواجهة ضجر الحياة اليومية وعبثيتها.

أما في المجتمعات غير الغربية التي تبنت خيار الانخراط في تيار العولمة فالنتائج أفظع وعلى جميع المستويات؛ فاقتصاديا تُلاحَظ هيمنة ليبرالية متوحشة كرست التبعية وزادت من ثقل المديونية، كما أدت إلى خوصصة القطاع العام لفائدة حفنة من الأثرياء. أما اجتماعيا فسُجّل انسحاب الدولة من تحمل المسؤولية في قطاعات حيوية كالصحة والتعليم والتشغيل، وأيضا ارتفاع معدل البطالة ونسب الفقر والجريمة والإقبال المتزايد على كل أنواع الهجرة الداخلية والخارجية، السرية والعلنية، وكذا اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء. وسياسيا يطغى الهاجس الأمني على جهاز الدولة مما يجعلها تسخر كل الوسائل من أجل التقليص من مساحة الحريات العامة الضيقة أصلا. ومع ذلك فإن أخطر تهديد للعولمة يطال المجال الثقافي إذ تعمل على اقتلاع الإنسان من جذوره ونفي كل مناعة فكرية لديه، مما يجعله يعيش انفصاما في الشخصية في مرحلة أولى ثم استلابا ثقافيا في مرحلة ثانية، يفقده كل بوصلة ويجعله تائها بين الأزمنة والأمكنة؛ وهي -أي العولمة- في غزوها للعقول تعتمد أسلحة فتاكة تتجلى أساسا في الشبكات الإعلامية والمعلوماتية ذات الطابع العنكبوتي والتي يسهل السقوط في شباكها نتيجة انتشار الأمية والجهل. ولعل الإقبال الكبير على تعلم اللغات الأجنبية واستعمالها (كما في نوادي الأنترنيت) على حساب اللغات المحلية، وأيضا الإستهلاك المكثف للأفلام والمسلسلات الأمريكية والمكسيكية خير تعبير عن ذلك. وأمام هذا الإعصار الجارف ظهرت في المغرب، مثلما هو الأمر في باقي بقاع العالم، حركات حاولت التصدي لهذا الزحف أو التخفيف من حدته، أهمها في نظري الحركة الإسلامية والحركة الثقافية الأمازيغية اللتان يجمعهما قاسم مشترك هو الدفاع عن الهوية ضد ما يهددها. فهل نجحتا في هذي المهمة؟ وإلى أي حد يمكن لخطاب الهوية أن يكون بديلا لخطاب العولمة؟

بالرغم من نجاح الحركتين الإسلامية والأمازيغية في فرض ذاتيهما خاصة في الساحة الثقافية واستقطاب أنصار كثيرين، إلا أنهما فشلتا في إلحاق هزيمة بخطاب العولمة، إذ ظل موقفهما دفاعيا؛ ويعود سبب هذا الفشل بدرجة أساسية إلى طابعهما الإرتكاسي المتجسد في التعلق بأمجاد الماضي من خلال التعامل اللاتاريخي معه (ذكر الإنتصارات دون الإنكسارات)، مما يجعلهما أسيرتي هذا الماضي. كما يتم اختزال الهوية في معطى واحد (الدين واللغة) والسكوت عن الأبعاد الأخرى المشكّلة للهوية أو التنقيص من قيمتها، بينما الهوية هي بطبيعتها متعددة، منفتحة ومتغيرة. إضافة إلى ذلك يُلاحَظ غياب حوار بين التيارات المكونة لكل حركة على حدة، مما يجعلهما تسقطان دون وعي في منطق خطاب العولمة الذي يدافع عن الفكر الوحيد La pensée identique.

وأخيرا فإن كلتا الحركتين تركزان على الصراعات الثانوية (معركة الحرف مثلا) على حساب الصراعات الأساسية (بهذا نفهم سكوت الخطاب الأمازيغي على حضور اللغة الفرنسية المريب)، كما أنهما لا تهتمان بمواجهة مخاطر العولمة في المستويات الأخرى كالإقتصاد والسياسة وغيرهما. ومع ذلك فقد بدأت تظهر داخل كل حركة على حدة تيارات تحاول أن تصحح هذه الأخطاء من خلال صياغة مفهوم آخر للهوية يأخذ بعين الإعتبار البعد التاريخي والواقعي، ويفتح الجسور مع كل الحركات المناهضة للعولمة والرافضة للتنميط من أجل عالم يُحترَم فيه الحق في الإختلاف.

رشيد المساوي

قصص

ليل المواعات

محمد أعشبون

الليل فاحم وطويل كالذي ينمو في داخله، والشارع الضيق الكئيب يوحد في قلبه ما تبقى له من أعصاب هادئة. خرج من منزله صباحا وها الليل يلف أطرافه وهو لا يزال واقفا أو ماشيا، سيان. ابتلعت عيناه عدة مشاهد أغارت على هدأة قد تكون مفتعلة: كلب يجر ذيله المكسور نحو آخر الشارع وهو لا يعلم أن زخم البنايات العشوائية لم تترك مخرَجا، وأنه سيعود أدراجه متى بالغ في التوغل. قطط سوداء، وأخرى بيضاء تنهال على مجمع القمامة حيث رائحة بقايا الأطعمة تولد فيها جوعا فطريا، فتتكاثر بسرعة مذهلة كخلايا السرطان لتكون في الأخير قطيعا واحدا، ثم يتحول المكان إلى ساحة للمعركة تتبارز فيها الأنياب والمخالب مع مواءات شبيهة بصراخ أطفال صغار يتألمون.

المساحة هي في الأصل رصيف محمل بثقل الأكياس البلاستيكية السوداء كأنها لوحة رسام تفنن في مشاهدها مع فارق بسيط هو أن هذا الثقل غير مرغوب فيه.

تسللت عيناه صوب ظله الممدد أمامه، وبدا له أنه يكبر، ويكبر عبر حفر الدرب الضيق، يتمدد كما لو كان لدينا، أو يتمطط كشفاه المومسات حين يقبلها شخص جائع للأجساد المبيعة. يفرك عينيه بقوة، عل هذه الخرافة التي انبجست واقعا – على الأقل في هذا الظرف بالذات – تختفي.

يعيد النظر هذه المرة بجدية قاسية، لازال الظل يكبر، ويكبر، يتوغل في الشارع الآخر، تحدّه البنايات فيبدأ في التسلق.

يتكثف ضباب حيث لا أحد يميل لما تميل إليه عيناه، ثم يسقط أرضا، لا يتاصل في موته، لا عضو يعمل غير ذاكرته القريبة.

يبدأ التسرب إلى حيث ترك الآخرين يلومون الحياة، والكؤوس على الكونطوار تتقاذفها الشفاه، والأيدي في حركة النزول والصعود، يحلمون ولا يحلمون. كلمات أثقل من جبل على الصدر، وأخرى أخفّ من ثدي امرأة جارف. كان هناك هو الآخر يتفرس الراقصات، هو لا يعرف الرقص ولم يتعلمه صغيرا، لكنه يعشق رقص الآخرين حتى الذوبان. الأجساد الهلامية كانت معه، تلامسه، تدغدغه، يحلم بها، أو ينظر إليها عن بعد.

الكأس المملوءة رغوة ونبيذا تصيب قمة وعيه، فيترنح كما يترنح الآخرون، ويقترب من راقصة شبه عارية، يحدثها بهدوء ثم بصخب، ثم يبتعد إلى الوراء قليلا، ينظر إليها، يبدأ استطلاعه الكاشف من قدميها. اللحم الأبيض يشبه كثيرا قطعة الثلج في كأسه.

أيمكن أن يكون الثلج واللحم صنوين؟ أتستطيع هذه القطعة من اللحم، عفوا، هذا الجسد الأبيض أن يطفئ غليانه كما تطفؤه قطعة ثلج، وجرعة نبيذ؟

تنطفئ شمعة كاملة من الأحداث المتراكمة بين آلاف الخلايا في دماغه، ثم يشعل شمعة ثانية هناك حيث ترك بصمة عظمى بين أفخاذ البحر، وأفخاذها. تركها تتلوى ألما ولذة. فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة، أشعلت رغبة وحماسا. فكان القادم الذي يسقط الآن هنا شبه ميت هو أولى بما يحمل إليه جسدها الجميل. هي لم تبعه كما تفعل الراقصات هنا، ولكن وهبته لمن تحب كما اعتقدت. «التضحية العظمى ألا تبخل على من دخل قلبك دون استئذان»، فكرة آمنتْ بها وترجمتْها واقعا. وها هي الآن جالسة قبالة الموج تنظر إلى احمرار الشمس المنحنية في إجلال لتوديع المدينة تارة، وتارة تنحني هي لتكب رأسها بين فخذيها لترى بقع الدم الأحمر تعاند الرمل فتموء لذة، وألما.

تربع على الأرض بعد أن استعاد وعيه ليرى ظله يطل عليه من فوق العمارة، وصوت أشبه بالنحيب يفك أحزمة الصمت الثقيل، إنه النحيب الذي يحب ويكره. يحاول التفكير غير أن دوخة كالسحابة تشل حركة ما داخل جمجمته. يدع كل شيء، ويتكئ على يده اليمنى، ثم اليسرى، عله يستطيع الوقوف. رجلاه لا تطاوعانه، لكنه يقف مستندا إلى حائط. يقرأ ما خطته أيادٍ مجهولة: «... الحب ليس له دواء... المغرب... مونديال 2010... ساقتل كل من مس هذه الطفلة البريئة... يا عمال العالم اتحدوا... أطفال العراق يموتون جوعا... الجفاف الجفاف... اتقوا الله أيها الكفار...».

أشياء كثيرة أخرى مكتوبة بخط رديء، ومحملة بأخطاء لغوية شتى، إضافة إلى رسومات تخلو من الحشمة والحياء.يضحك بصوت مرتفع، ثم يبكي، ثم يصرخ...

شعر أنه يتحسن، وأن رغبة في المشي تطْبق عليه. ألقى بجسده في حضن الدرب الضيق المحفور، وسار جنبا لجنب مع ظله الذي طال كل الزقاق. يبتسم لخفاش مر محاذيا، ويتالق فيه جنون الطيش لينجذب حيث صفحات الجدران لا ترمقه ولا تقول شيئا.

حر الصيف يمتد حتى الليل، ومنديله الجميل الذي طرزته أخته بمناسبة نجاحه في «امتحان المصير»، كما كان يحب أن يسميه، لا يكفي لكل هذا العرق المتدفق من جبينه، وإبطيه. عرق برائحة الثوم والنبيذ. ورغم ثقل الخطى الذي يحسه، والسكون الذي يلطخ معظم الجهات في بقعته، فإن الموسيقى الصاخبة لا تزال تخدش طبلة أذنه بكل وقاحة، ولا زال الدوار هو الدوار. سكر يرغمه غالبا على الطيش أو التناغم مع الأنسب من صهد الذات، وبرودة الثلج المزاوج لعصير الحنطة والعنب.

تمرغت معدته في أحشائه، وتلوّتْ أمعاؤه أكثر من مرة، ونادته من سرّته بصوت يشبه بوق دراجة نارية، تحركت الغازات والفقاعات معا، تجشأ الفراغ والجوع، وضع يده التي لا تمسك الزجاجة أسفل البطن، وحاول أن ينسى، إلا أن إلحاح الأمعاء والمعدة والصوت المتقطع جعلاه يحلم لفترة أقل من قصيرة بوليمة محترمة يملأ بها أعمدة الجوع التي تطوق كامل البطن، بل حتى الفخذين بدأ يتداعيان، والقوة في تنازل سريع. تحول فجاة إلى وحش كاسر يغطيه سواد الوجه والليل. ظله يتلوى هو الآخر، يكاد ينشطر من فرط استيائه. قد لا تستطيع أجساد الراقصات في هذه اللحظة أن تلهيه عن الجوع، ولا حتى هذه النسمة الخفيفة من النسيم التي خففت عنه الصهد قادرة على إخماد البقع السوداء داخله. سيّدُه الجوع يكبر وينمو، لا بد إذن من وليمة يفقأ عينها بعينه، ويُخضع عظامها لعظامه، لا بد أن يرضيه كما أرضى رغبة اشتعلت سابقا في جسده، وأطفأها على مرآى البحر والشمس الحمراء الغاربة، أطفأها بجسد فتاة لم تبلغ الخامسة عشر حيث تركها تكب رأسها بين فخذيها لتعشق دما أحمرا يعاند الرمل.

أصبح الآن أكثر وضوحا مع نفسه، تصالح بخمول معها، لم يعد يترنح بين الفينة والأخرى. وكقرية صغيرة بنى قوته، واستعاد كثافة أفكاره ليتذكر أن عليه أن يغادر المكان بسرعة. طوى ما طاب له من أفعال، وافتتن طوعا بالسير قدما نحو ما كان يراه ظلا خرافيا يتمدد. استنتج أن آخره/ ظله عاد جدا.

سار إلى اليمين، الخطوة الأولى ثابتة، والثانية ثابتة، والثالثة كذلك؛ لقد زال آخر دوخة النبيذ من رأسه. وهذه الكتلة من الأعضاء أصبحت خفيفة كالحلم. نظر إلى الخاتم في أصبعه فتذكر، بكل وعي هذه المرة، فتاته التي تركها تموء لذة وألما على شاطئ رملي.

ستبقى تنتظره هناك، وسيصل حتما مضجعه. برفق حاول ألا يعود إلى الوراء، واستمر في خطواته الثابتة. يصل ممرا ضيقا لا يطل على شيء، الدروب كلها تنتهي هنا أمام الليل، ويفعل الصمت الرهيب، والأفكار المشوشة، وأسوار الإسمنت التي أغلقت حناجر الزقاق كي لا يبتلع أحدا، عاد كالكلب ذي الذيل المكسور حيث يتخدع بسكون مؤقت في أحشائه، يتحسس جبينه الملتهب، لا عرق غير صهد جاف وخانق، لكن تحرش الجوع للمرة الثانية، وبهذه الحدة والتلهف أفقده صوابه.

تذكّر كل شيء: الحانة، الراقصات، ظله الممتد كالشبح، الكتابات لتي تخلو من الحشمة والحياء، الفتاة التي تعشق الدم والغروب.

تذكّر، ثم انحدر من نباهته إلى سذاجة قصوى، أو بالأحرى إلى مساحة الأكياس البلاستيكية، حيث استجاب لصهيل أمعائه ومعدته، فتكوّم على الأرض يجمع بقايا خبز جاف، ويلتهمها، وأفكاره تصلي صلاة الجنازة على خجله وأنفته اللذين كانا آخر معقل لمبادئه، وبدا من بعيد كالقطط التي تشبه مواءاتها صرخات أطفال يتألمون.

روتردام/ هولندا

المنفى

فائزة أمزيان

رن هاتفي من جديد، بعدما كان الخط ينقطع لمجرد الضغط على OK. كان المتكلم رجلا، يحمل في نبرة صوته نوعا من الجدية الزائدة... لم يتفقد أحوالي وأحوال العائلة كما يحصل في المكالمات العادية، بل اكتفى بأمري للحضور إلى مقهى «الأمل» بدون تردد، ولم يمنحني فرصة الاستفهام. عرفت من يكون، ولكنني كنت أريد أن أعرف ما يقوله...

«بانتظارك مفاجأة»...

آخر جملة سمعتها قبل أن ينقطع الخط.. تخيلت أن المفاجأة ستكون حتما سيئة؛ لأن الأشياء الجميلة تبدو لك من اللحظة الأولى التي تسمع بها... الخوف يملأ كياني ووجداني. في كلتا الحالتين اللتين أستحضرهما أمامي: سأذهب، ولا تهمني العواقب.. لن أذهب، ولا يهمني إن خسرت المفاجأة.

بعد حوار لم يستغرق ثواني مع نفسي قررت الذهاب. صعدت السلالم بسرعة، لبست ملابسي بنفس السرعة، والرعب يسيطر على فؤادي... كنت أركض في المنزل كالمجنونة في كل اتجاه، غير مبالية بما سيحدث. سألتني الخادمة عن وجهتي حتى تخبر أهلي، لكنني لم أبال بما سمعته، فقد كنت في عالم آخر مليء بالقلق، وهذه المرة لسبب واحد. وأنا التي اعتدت دائما على القلق من كل ما يحيط بي وما يقابلني من مفاجآت...

كان الجو باردا بالخارج، عرفت ذلك وأنا أفتح الباب المفضي إلى الشارع. عدت فلبست معطفي، بنفس السرعة التي خرجت بها، لأني كنت متوترة إلى أبعد الحدود..

مضت على المكالمة عشر دقائق، كانت كافية لتجعلني أعيش جنونا لم أعرف مثله من قبل... أصل في الموعد، إلى المكان المحدد، الموقع جميل ورومانسي.. متواضع كما يبدو، وشعبي بامتياز.. تختلط بداخله النساء والرجال. لم أستغرب لما تراه عيوني، لأن الأمر بالنسبة إلي عادي،فقد ألفت مثل هذه الأماكن العامة في مدينتي القديمة المتحررة أكثر من هاته التي أوجد بها... ألقيت التحية، فكان لا بد لمن يحمل لي المفاجأة أن يقف وقفة احترام وتقدير.. كان يعرف انضباطي في المواعيد، فطلب لي فنجان قهوة. اعتذرت له بكونها تهيّج أعصابي، ولن تروقني في مثل هذه الأوقات، لأنها تضر بصحتي... وكعادتي لضبط نفسي، طلبت عصير ليمون كي يخفف علي عبء الحدث، ولو قليلا... خاطبته، وأنا لم أعتدل بعد في جلستي: عن أية مفاجأة تحدثت؟!

– يبدو لي أنك تستعجلين!!

– ويبدو لي أنك على صواب! تعرف أنني أكره اللف والدوران، إنني أنتظر جوابا مقنعا، بعيدا عن كل شيء ينغص علي بقية يومي...

ابتسم في وجهي ابتسامة لم تكن تعنيني مطلقا. فهمت قصده، وتظاهرت بنوع من الهدوء معيدة عليه نفس السؤال، بدون كلل أو ملل... عرفت من ملامحه أنه مصر على معرفة نوع رد فعلي... استأذنت منه، فربما كانت دعابة منه حتى يراني... ولكنني وقفت له بالمرصاد..

– ألن تنتظري المفاجأة؟

– أكره مثل هذه المفاجآت، الشمس توشك على الغروب... احتفظ بها لنفسك، سوف تنفعك يوما، ففي زمن يمضغ الأحداث لا بد لي أن أتطلع إلى الأفق بنفسي، ولن أحتاج إلى شخص يلعب دور الوسيط بيني وبين أفعالي..

في قمة هذا الغضب أحسست بيدين تمسكانني من شعري المبلل بقطرات المطر التي أنعشت وجهي وجسدي ... أدرت نفسي إلى الخلف للتأكد من هوية الفاعل، وإذا بي أجد عينيٌ تسبحان بعيني خالي الذي اختفى بآلامه وهمومه عشر سنوات... لم أصدق نفسي، فصرخت بصوتي متناسية أنني بالمقهى، وأن الجميع ينظر إلي باندهاش... إنه خالي... تارة أضمه إلى صدري، وتارة أخرى أبعده لأتأمل وجهه الملائكي حتى أتأكد أكثر من أن قلبي لا يخذلني... كيف بعد كل هذا الغياب الطويل أن يعود من جديد؟ ما الذي حصل له فاختفى؟ من المسؤول عن اغتياله؟ امتزج الخوف بالفرح فاتصلت بالبيت لأخبرهم أنني أحمل لهم مفاجأة... قطعت الخط، وتركتهم ينتظرون المفاجأة بنفس خوفي وقلقي..

مطر مالح

فريد الحمدوي

كل شيء كان عاديا. نسيم عليل و "زرقاء محشوة" بين أصابعي وموج خفيف يداعب الشاطىء بحنان(عشق قديم كما يبدو). استلقيت على ظهري متأملا مواقع النجوم، محاولا تركيب أشكال قد تبدو لي وقد لا تبدو لك.

رأيت أشياء لا أتذكرها حتى في لحظة تركيبها. بين التركيب والتركيز، غفوت. لم أستيقظ إلا على صفعة موجة أفزعتني...تبللت ثيابي. تبلل حلمي الجميل. كانت جميلة. انتصبت مفزوعا: إتفو إنعر....

رميت حذائي بعيدا. كنت غاضبا. لست أدري إن كان بسبب ضياع الحلم أم بسبب ثيابي المبتلة؟ في كل الحالات كان رد فعلي مبررا. حتى الشتائم الثقيلة التي أطلقتها كانت مبررة. لم أشاهد أحدا بجانبي، سوى قهقهات من بعيد ربما أصحابها رأوا ما حدث؟ إنهم يقتنصون مثل هذه الفرص للتشفي بالآخرين.في هذه البلاد السعيدة إن وقعت فاستعد لما لا تتوقعه من أحد..

بحثت عن حذائي. وجدت اليمنى وبقيت اليسرى. لما وجدتهما كنت قد قررت أن أعود حافي القدمين إلى المنزل. فما زلت أتوفر على زوج قديم سيفي بالغرض في هذا الصيف.

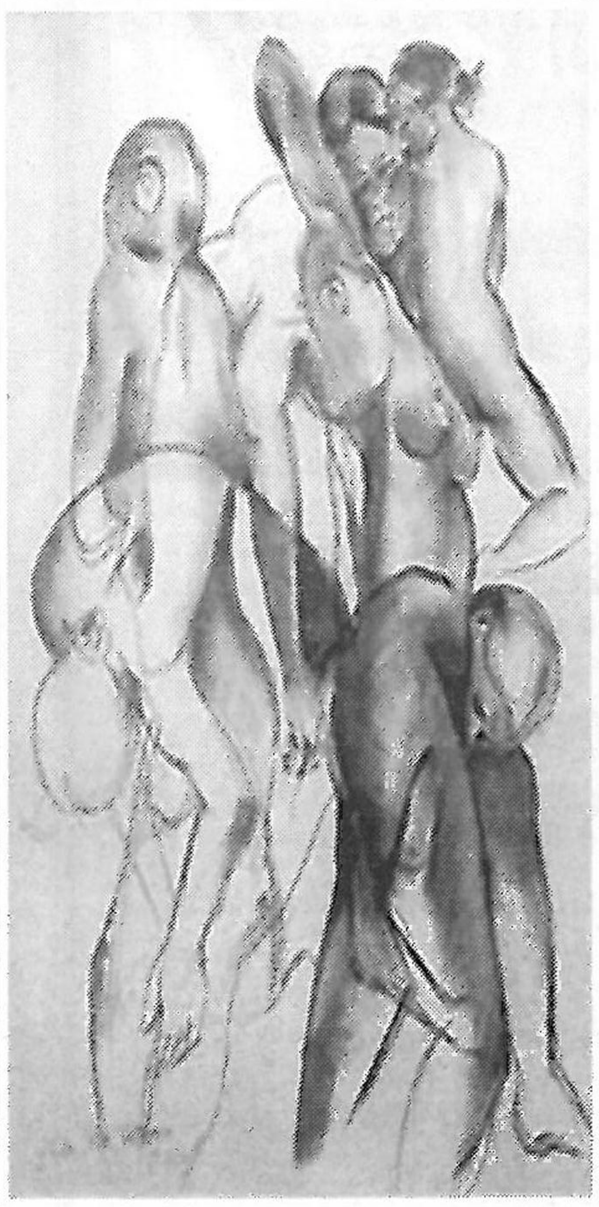
أحب الصيف ففيه تستطيع أن تلبس ما تشاء، وتنتعل ما تشاء، تحت ذريعة الحر. حملت حذائي بيدي اليمنى. مشيت كمن عاد من مكان بعيد منهكا. تأملت جواربي. إنها فرصة التخلص منهما: أما زال في هذا الزمن من يلبس مثل هذه الجوارب المثقوبة؟ كأن فئران القرون الوسطى قد مرت عليها. ألقيت بهما في البحر انتقاما.

وقفت على صخرة، نظرت جهة الماء:

سامحتك أيها البحر فأنت والعشب من منحاني الحلم:

كانت جميلة ولا أتذكر ملامح وجهها. داعبتني بأصابعها الرقيقة. لمست وجهها، خداها، ثم جاء المطر المالح فرحلت...لا أحد يعطيك دون مقابل. فأنا أعطيتك جواربي وعلبة الثقاب. رغم أنك قد اغتصبت حلمي. إلى اللقاء أيها البحر أيها الحب القديم. فالصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر عما تحب (صدق علي).. ساعود في أي وقت. لا مكان يلذ لي فيه الحلم إلا فوق رمالك وعلى صخرك. فكن حنونا في المرة القادمة.

عدت إلى البيت منهكا. اغتسلت ثم نمت. حلمت بأني كنت أطير وأرش الماء على كل من غفا ونام ولم ينه حلمه بعد.



ⵜⵉⵏⵎⵍⵍⴰⵢⵉⵏ

ⵜⵉⵣⵔⴼⵜ

ⵜⵉⵣⵔⴼⵜ

■ ⵜⵉⵏⵎⵍⵍⴰⵢⵉⵏ ⵏⵜⵉⵖⵔⵉⵎⵉⵏ ⵏⵜⵓⵣⵉⵢ

ⵜⵉⵣⵔⴼⵜ ⵜⴰⵏⵎⵍⵍⴰⵛⵜ, ⴰ ⵣⴰⵔⵔⴰⵓ ⵙⵓⵉⵣⵣ
ⵜⵉⵣⵔⴼⵜ ⵜⴰⵓⴰⵣⵓⵜ, ⴰ ⵣⴰⵣⵏⵉ ⵙⵓⵅⴰⵣⵣ
ⴰ ⵜⵍⵍⴰⵇ ⵏ ⵀⴰⵏⴰⵛⵔⴰⵍ, ⵙ ⵜⴰⵣⵍⵍⴰⵢ ⵏⴰⵜⵜⴰ ⵣⴰⵓⵉⵣ
ⵏⴰⵛ ⵜⴰⵓⵉⵢ ⴰⵍⴰⵏⴰⵏ ⵙ ⴰⵣⵙⵓ ⵉⵏ ⴰⵣⵙⵓⵉⵣ
ⵏⴰⵣⵏⴰⵛ ⵅⵉ ⵜⴰⵓⵉⵢ ⵉⵛⴰⵜⵜⴰⵏ ⵙ ⴰⵏⵀⴰⵅⵅⵉ
ⵉⵢⴰⵜⵜⵓⴰⵏ ⴰⵛⴰⵜⵜⴰ ⵅ ⵜⴰⵍⵇⵉⵣⵜ ⵏ ⵏⴰⵜⵇⴰⵓⵉⵣ
ⵅ ⵜⴰⵍⵇⵉⵣⵜ ⵜⴰⵛⴰⵛⵏⴰⵜ, ⴰⵏ ⵉⵏ ⵉⵣⵣⴰⵓⵓⵉⵣ

ⵏⵍⴰⵙⵉⵛⴰ ⵜⴰⵏⴰⵍⵍⴰⵛⵜ, ⴰ ⵣⴰⵔⵔⴰⵓ ⴰⵓⵉⵣⵣ
ⴰ ⵜⴰⵏⴰⵍⵍⴰⵇⵜ ⵏ ⵉⵛⴰⵏ, ⵅ' ⴰⵎⴰⵍⴰⵏ ⵜⴰⵢⵛⵉⵣ
ⵜⵛⴰⵅⵉⵓⵜ ⵉⵏⴰⵛ ⵜⴰⵛⵍⴰ, ⵜⴰⵜⵏⴰⴰⵏ ⵜⵛⴰⵏⵉ
ⴰⵎⵉⵢ-ⴰ ⴰⴰⵅⴰⵛ ⴰ-ⴰⵛⴰⵅⵣⵣⴰ, ⵅⴰⵛ ⵉⵓⵓⴰⵜⵜⴰⵢ ⵜⴰⵛⵅ
ⵏⴰⵀⴰⵢⴰⴰⵓ ⵉⵏⴰⵛ ⵉⵔⵀⴰⴰⵢ, ⵏⴰⵜⵜⴰ ⴰⵓ ⵉⵣⵣⵜⵜⵉⵣ
ⵉⵣⵏⴰⴰⵓ ⵉⵏⴰⵛ ⵛⵛⴰⵓⵓⴰⵏⴰ, ⵜⴰⵏⵜⴰⵜⵜⴰⵢ ⴰⵛⵓⴰⵓⵉⵣ..
ⵉⵜⴰⵜⵜⵉⵓⴰⵢ ⵅ ⵜⴰⵍⵜⵉⵣⵉⵣⵜ ⵏ ⵏⴰⵜⵇⴰⵓⵉⵣ
ⵅ ⵜⴰⵍⵜⵉⵣⵉⵣⵜ ⵜⴰⵛⴰⵛⵏⴰⵜ, ⴰⵓ ⵉⵏ ⵉⵅⴰⵜⵓⵓⵉⵣ

ⴰⵓⴰⵢⴰⵏ

ⵢⵉⵓ ⵜⵅⴰⵔⵜ

■ ⵛⴰⵔⵛⴰⵏ ⵍⴰⵓⵔⵉⵛ

ⵢⵉⵓ ⵜⵅⴰⵔⵜ ⵉⵅ ⵣⴰⵏⵏⴰⵍ,
ⴰⵓ ⵙⵜⴰⵍⵍⴰⵢ ⵣⴰⵙⵙ ⵉⵏⴰ
ⵢⵉⵓ ⵍⴰⵛⵛ ⴰⵍ ⵔⵔⵙⴰⵜⵜⴰⵛⵜ ⵍ-ⵜⴰⵅⴰ ⵅ"ⴰⵢⵜ ⵅⵉ
ⵜⴰⵜⵜⵍⵉⵓⵜ ⵏ ⵉⵏ ⵏ ⵜⵔⴰⵏⵍⴰⵜ ⵜⵣⴰⵍⵍⴰⵛ ⵣⴰⵙⵙ ⵉⵏⴰ
ⵜⵅⴰⵏⵏⴰⵙ ⵅⵉ ⵜⵅⴰⵔⵜ:
« ⵣ ⴰⵜⴰⵍⵅⴰⵍ, ⵣ ⴰⵜⴰⵅⵢⴰⵍ »...
ⵙⵉⵍ ⴰⵍⵅⴰⵢ, ⴰ ⵙⵉⵍ ⵅⵢⴰⵍ
ⴰ ⵜⴰⵏⴰ: ⵛⴰ ⵜⵍⴰⵏⵉⵍ-ⴰⵣ?
ⵙⵅⴰⵛⵅⵛⴰⵢ: ⵜⵅⴰ ⵔⵍⴰⵣ, ⵍⴰⵛⴰ ⴰⵍ ⵙⵏⴰⵢ, ⵛⵉⵏ ⵉⵙⴰⵛⵅⴰ ⵄⴰⵏ
ⴰⵛⴰⵙⵙⴰⵙⵙⵙⵉⵍ ⵅ ⵍⴰⵙⵙⵙⵉⵍ, ⵛⵉⵏ ⵉⵙⴰⵛⵅⴰ ⵄⴰⵏ
ⴰⵛⴰⵢⵏⴰⵏ ⵅ ⵉⵢⴰⵏⵏⵉⵏⴰⵏ ...
ⵜⴰⵔⵔⵉⵛ ⴰⵙⵉⵍⴰ, ⴰⵛ ⵉⵏ ⴰⵙⴰⵔⵔⵉⵏ
ⵅⴰⵅ ⵉⵙⵔⵔⵉⵏⵏⵏ ⵏ ⵜⴰⵏⵅⴰⵙⵙⵉⵍ, ⵍⴰⵅ ⵉⵙⴰⵛ ⵉⵏⴰⵙ
ⵙⵙⴰⴰⵙⵙⴰⵢ ⵅ ⵉⵙⴰⵛ ⵉⵏⴰ
ⵅⵉ ⵛⴰⵏ ⵜⴰⵛⵅⴰⵄⴰⵛⵄⵜⵉⵏ !
ⵏⴰⵛ ⵍ-ⵛⵉⵏ ⵉ ⵢⴰ ⵉⵏⵉⵢ ⵜⴰⵍⴰⵛⵛⴰ
ⴰⵓ ⵙⵜⴰⵍⵍⴰⵢ ⵣⴰⵙⵙ ⵉⵏⴰ
ⵢⵉⵓ ⵍⴰⵛⵛ ⴰⵍ ⵔⵔⵙⴰⵜⵜⴰⵛⵜ ⵍ-ⵜⴰⵅⴰ ⵅ"ⴰⵢⵜ ⵅⵉ
ⵜⵜⴰⵜⵜⵍⵉⵓⵜ ⵏ ⵉⵏ ⵏ ⵜⵔⴰⵏⵍⴰⵜ ⵜⵣⴰⵍⵍⴰⵛ ⵣⴰⵙⵙ ⵉⵏⴰ
ⴰⵔⴰ ⴰⵅⵅⴰⵓⴰⵢ ⵅⵅⴰⵓ ⵓⴰⵅⵅⴰⵙⵙⴰⵢ ⵅ ⴰⵣⵓⴰⵣ ⵉⵏⴰ
ⵅⵉ ⵜⴰⵔⵀⴰⴰⵜ ⵅⵉ ⵓⴰ ⵅ"ⴰⵏ,
ⵀⴰⵍⴰⵛ ⵅⵉ ⵜⴰⵔⵀⴰⴰⵜ ⵅⵉ ⵓⴰ ⵅ"ⴰⵏ,
ⵅ ⵍⴰⵔⴰⵛ ⵉⵏⴰ ...

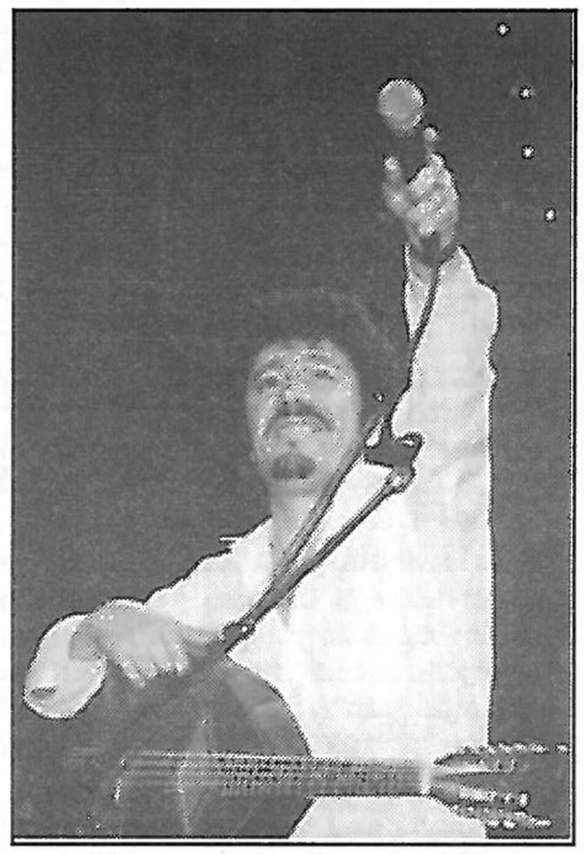
ⵛⴰⵏⵛⴰⵏ ⵏⴰⵓⵔⵉⵛ: ⴰⵓ ⵜⴰⵛⵓⴰⵓⵛⴰⵏ ⵅ ⵛⵉⵏ ⵜⴰⵅⵅⵉⵏ, ⵜⴰⵏⵏⴰⵓⵜ ⵏ ⵓⵉⵣⵣⵉⵉ ⵓⵓⴰⵣⵣⵉⵓ, ⵙⴰⵣⵓⴰⵜ, ⵀⴰⵙⵏⴰ,
ⵜⴰⵅⵓⵉⵣⵅⵜ 1, ⵣⴰⵀⴰⵣⴰⵓ 2004, ⵉⵓⴰⵙⵉⴰⵓ 43/44. ⴰⵓⴰⵢⴰⵀⵏ ⵏ ⵛⴰⵀⵏⵉⵛ ⴰⵅⴰⵅⵅⴰ

ⴰⵛⴰⵅⵅⵏ

ⵏⵏⵉⵓⵉⵛⴰ

ⵜⴰⵓⵅⴰⵅⵜ ⵉ ⵛⴰⵀⵏⵜⴰⵙ

■ ⵀⴰⵙⵙⴰⵎⵏⵏⵉⵏ ⵏⵀⴰⴰⵅⵅⴰⵅ



ⵏ-ⵉⵜⵓⵉ ⵉⵍⴰ ⵜⴰⵍⵍⵉⵏⵏ,
ⵜⵣⴰⵓⵅⴰⵏ ⵏⴰⵓ ⵉⵜⵓⴰⵍ..
ⵜⵢⴰⵓⵣⵉⵛ ⵜⴰⵅⵅⴰⵙⵜ,
ⵜⴰⵅⵏⵍⵉⵏ ⵀⴰⵏ ⵏ-ⴰⵛⴰⵅⵙⵙⴰⵍ..
ⵏ-ⵜⴰⵏⵏⵉⵜ ⵉⵍⴰ ⵜⴰⵍⵍⵉⵏⵏ,
ⵉ ⵜⴰⵍⵏⵏⴰⵛⵜ ⵉⵜⵍⵏⵏⴰⵇⵍ..
ⵅⴰⵍⵍⵉⵛ ⵉⵣⵉⵓⴰⵍ,
ⴰⵜ ⵣⵣⵓⴰⵍ ⵏ-ⴰⵓⴰⵍⵍⴰⵍ..
ⵏ-ⴰⵍⴰⵓⴰⵛ ⵉⵍⴰ ⵜⴰⵍⵍⵉⵏⵏ,
ⵜⴰⵓⵛⵔⵉⵛ ⵏⵜⴰⵍⵍⴰⵇⵍⴰⵛ,
ⵜⵉⵏⵏⵉⵍ ⵏⵜⵣⵣⵉⵍ..
ⵜⵢⵉⵍⴰⴰⵓⴰⵍ ⵍⵣⵍⵍⴰⵛ,
ⵅⵉ ⵓⴰⵏⵉⵢ ⵉⵅⵉⵓⴰⵍ..
ⵜⵢⵉⵓⴰⴰⵍ ⵍⵢⵉⵛ,
ⵉⵛⵏⴰ ⵛⵉⵏ ⵙⵏⵏⴰⵍ..
ⵜⵜⵍ ⵛⵏⵣ ⵏ-ⴰⵉⵉⵉⵉ,
ⵉⵜⵍⵍⵍⵍ ⵅⵉ ⵏⵏⵏⵅⵍ!

ⴰⵅⵉⵓ ⵏ ⵓⵓⵉⵣⵍ, ⵜⵉⵉⵓⵏⵉⵉ 2953

Udmawen

Idir

Tmijja n waṛeγ war yetbuybuḥen

S Teqbaylit "idir" teqqar "ad yeddar". Wami γa yexḍar isem-a ila yessen ila adyeqqim yeddar gi twengint n waṭṭas n yewdan id-as γa ysellen.

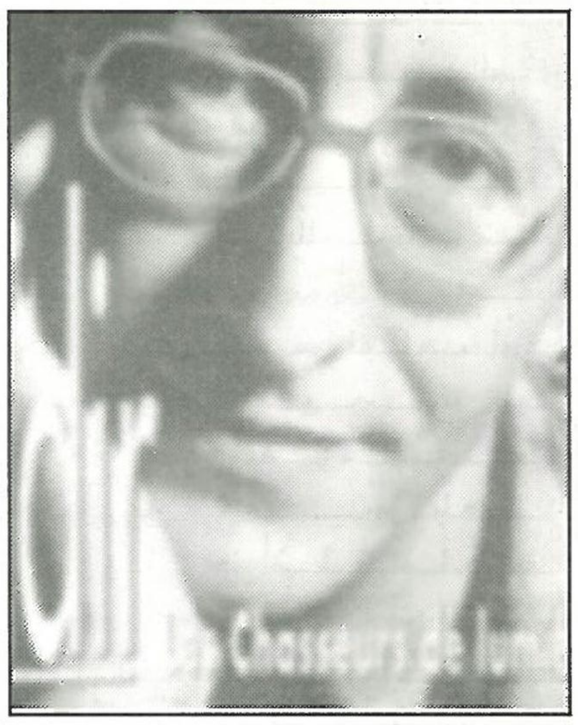
Tanfust n yisem-a "idir" tessent wami γa yraḥ ad iγennj degw ṛaq n ij n tmeγnujt zi tewḍa gi lehlak.

Zi wass-a ad yessent "Chariet Elḥamid" (isem aḥqiqi n Idir) tikri tazegrart deg ubrid n tmusiqt war iqaṭṭin.

Idir yexleq deg ubilaj n Ayt Leḥsen gi Leqbayel ag usegwas n 1949 zi babas d afellaḥ segment ci n tarfiqt imasiḥiyyen ikatulikiyyen. Ila yella d-ameḥḍar g wazzarg n tajyulujit, zi ssin aṯ yawi webrid a ṣṣenɛet tabitrulit.

Aγaras n tmusiqt yewḍa dages ammen ur d-as yeggi leḥsab, u ɛemmars ila ur yelli yehwen "Elḥamid Cheriet" s temja ines n Lqbayel ila iteg llγa i waṭṭas imeγnaj gi tendint n "Dzayer" mani ur yufi ci ixef ines amux ixes ad yili zi dyemmuti zeg idurar yuɛlan s wazru d ccan n tmurt n Lqbayel.

Ag usegwas n 1973 ad yeɛda gi "Rradyu n Dzayer" s uγennij



n "Ababa inuba" id-as γa yareẓmen tiwwura timeqranin gi tudart n tmusiqt.

Aγennij-a yefsusen s tmijja d tgiṭart zeg imezgura iγennijen ig issilin bandu n tusna imaziγen d imezdaγ n ticceṭ n Afriqya it waγennej s 7 yelsawen zeg ilsawen n wayduden n ddunnit.

Idir s tmijja ines n waṛeγ d llγa yefsusen ikessin isḍawen tawengint utaras γa barra n yegmiren n lta d uṛaq d-ij wedbir yarbu amnus n waydud amaziγ d umezruy ines gi tmurt ines niγ gi Tamezγa kais mani ma yemmars u yeṣṣiweḍ Tmaziγt γar tqicca n ccan mani war zemren at ssiwḍen aṭṭas yewdan.

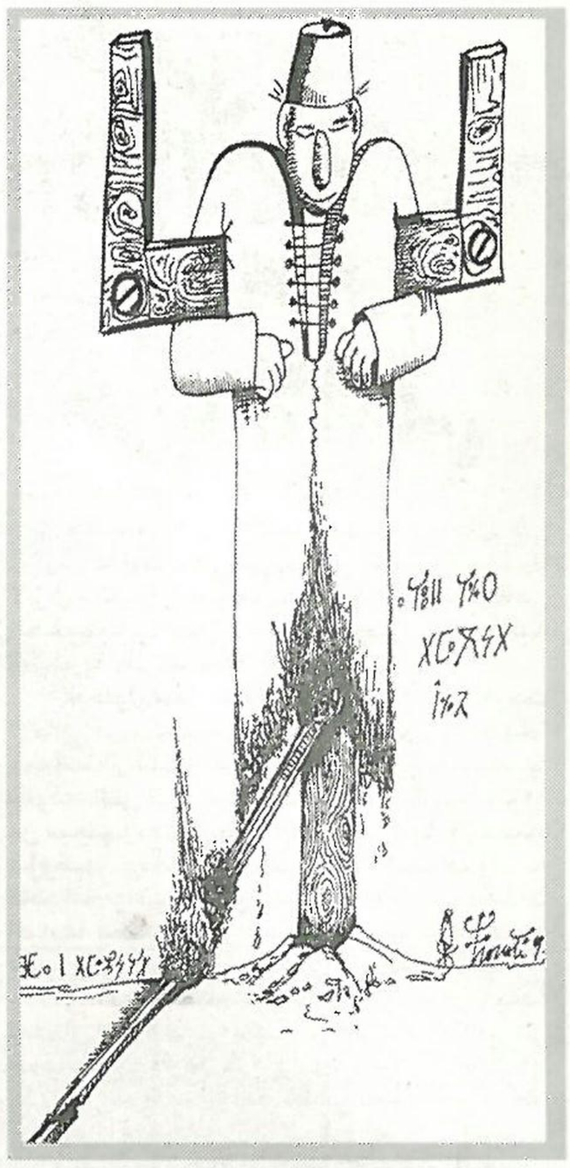
Zi g isseɛda "Kinta" iraḥ a Fransa a tendint n Baris mani γa yeskuta zeg hajjef mizi ila itaka d-aneɛdum gi tmurt ines. Album amezgaru yessufγitid gi 1976, mig ntaf aγennij n "Ababa inuba" id-as γa yucen ccan d lefḍel d-ameqran zi yegga aṭṭas d-inuqaren gw aṭṭas d-timizar.

Idir war itaḥḥel, g 1979 is-sufγed tasfift umi semma "Ay arrac neγ" (i tarwa nneγ) isbed g ij uskuti n 10 iseggwasen ḥuma ad idwel s album gi 1993 umi qqan "les chasseures de lumiere" (Inegmaren n tfawt).

Mala nxes anini ij n wawal azges neqqen amsagar-a ag Idir, adyiri belli netta ur yelli bu d-ameγnuj n ij n tmurt maca iwweḍ ad yessefsi igmiren jar n tmura ad yili d amaγnaj n ddunnit, u manaya netwalat deg album ines id yefγen gi 1999 s yisem n "Identites" mig imun (ismun) ag waṭṭas n tseḍmiwin amux "Manu Tca" "Gnawa Di-fuzyun" "L'unb" d waṭṭas nniḍen am Jun Jak Gɛldman gi album ines ameggaru (Un rêve deux rives 2002).

FARID ELHAMDIWI

Akarikatur



Awalen itmutuyen

1- Arusya:
Taknift tamezgarut tili teccur s tnifest.

2- Italya:
Cḥal ma yemẓi wul, iles irennu itemγuṛ.

3- Amirika:
Ttwajar γarsen aṭṭas n tenɛa-cin, maca imeẓlaṭ γarsen aṭṭas isegman.

4- Swid:
Lexburat irebbaḥen gguren, yen iɛeffanen tazlen.

5- Irlanda:
Su ass-a ḥuma atekksed fad n tudecca.

6- Brazil:
Wami tayri d-taḍarγalt, labudda zeg uḥadi.

7- Tcina:
Txeṣṣan sin isegwusa ḥuma at lemded at ssiwled, marra tudart ḥuma at lemded at sseγded.

8- Lhind (Tamil):
Anezmar anessefsi aẓru; ur nezmir ci lebda anessaṛḍeb ul.

9- Aliman:
Tlata yewdan ig yeqqaṛn ti-det: Ibuhaliyyen, iḥarmucen, d iskayriyyen

X yiles d wawal

Bezzaf zγir-as-en qa Tmaziγt ila temmut, yin-a tafed-ten ssawalen x Tanukra niγ x Uidar n Tmaziγt. Amuk twal-iγ, Tmaziγt ila-tella-tyima teddar ayen ya-kken Imaziγen ddaren tamagitt nsen yennurzmen x midden.

Amaziγ ur yessin-en iles ines ityima iccat s marra ilsawen n midden. titi n yiles am tikri uḥidar gi tsawent n tudart.

Iwdan tekksen accaren n wawalen, ayen γa kken ddaren.

Ssawal-eγ ag ixef inu s yelsawen n midden xmi ur tifeγ mik-ed. Awal inu itfekkay-ay zi bnadem iḥeggnen g ij n yiles waha.

Iwdan zi γa nnamen, teqsiḥ xsen ad-afen...

Awal n Tmaziγt itesla tidet it-melliγen, tɛawad icettiḥen ig itefγen.

Ssawal-γ ak-idi xmi tesliγ awal nkum id-ay yessawalen dagi.

Yusef Uγbal

Iskkilen i tyuri n Tifraz n Arif

ⵜⴼⵉⴷⵉ	Asekkil Alatin	عاسكّيل عالغراب	ⵎⵔⴰⵡⵙ ⵜⴼⵉⴷⵉ	Tiyuri s ilsawen n Arif
ⴱ ⴱ	B b	ب	ⵄⴱⵓ	Irawn
ⵎ ⵎ	M m	م	ⵎⵎⵓⵎ	Amcum
ⵡ ⵡ	W w	و	ⵜⵓⵡⵉⵥⴰ	D/Twiza
ⴼ ⴼ	F f	ف	ⵜⵜⴼⵓⵣ	D/Tfuz(t)az/s
ⵚ ⵚ	Ṭ ṭ	ظ	ⵙⵎⵚ !	Smṭ !
ⴷ ⴷ	Ḍ ḍ	ض	ⵎⴰⴷⴷⴰⵔⵉ ⴷⴰ	Ad ddary da
ⵜ ⵜ	T t	ت	ⵜⵓⵢⵎⵜ	D/Taymṭ
ⴰ ⴰ	D d	د	ⵜⴰⵏⴷⴰ	D/Tanda
ⴹ ⴹ	Ḍ ḍ	ص	ⵎⴹⵉ	Aḍir
ⵟ ⵟ	Ṭ ṭ	ط	ⵜⵟⴰⵡⵉⵏ	D/Ṭiṭawin
ⵙ ⵙ	S s	س	ⵜⵓⵙⵓⵙⵜ	D/Tasusṭ
ⵣ ⵣ	Z z	ز	ⵣⵏⵉ	Izri
ⵥ ⵥ	Ẓ ẓ	ز	ⵎⵣⵓ	Aẓ(r)u
ⵛ ⵛ	Ṣ ṣ	ص	ⵎⵛⵎⵏⵉⴹ	Aṣmnidḍ
ⵏ ⵏ	N n	ن	ⵎⵏⵉⴽ	Annmi
ⵍ ⵍ	L l	ل	ⵎⵍⵉ	Ari
ⵔ ⵔ	R r	ر	ⵜⵓⵔⵉⵖⵜ	D/Ta(r)ifit(ct)
ⵕ ⵕ	Ṛ ṛ	ر	ⵜⵓⵕⵡⴰ	D/Ta(r)wa
ⵊ ⵊ	J j	ج	ⵎⵊⵊⵉ	Ajjaj
ⵛ ⵛ	C c	ش	ⵜⵓⵛⴰⵍⵉⵜ	D/Tacelḥit
ⵢ ⵢ	Y y	ي	ⵎⵢⵢⴰⵡ	Ayyaw
ⴽ ⴽ	K k	ك	ⵎⴽⵉⴹⴰ(ⵔ)	Akiḍa(r)
ⴽⵯ ⴽⵯ	Kʷ kʷ	ڭ	ⵅⵯⵜⴰ	I(k)wṯa
ⵖ ⵖ	G g	غ	ⵎⴳⴰⴷⵉ(ⵔ)	Agadi(r)
ⴳⵯ ⴳⵯ	Gʷ gʷ	گ	ⵜⵉⴳⵯⴷⵉ	D/Tigwḍi
ⵇ ⵇ	Q q	ق	ⵜⵉⵎⵇⵇⴰ	D/Timeqqa
ⵖ ⵖ	Γ γ	غ	ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ	Lmeγrib
ⵅ ⵅ	X x	خ	ⵎⵅⵅⴰⵎ	Axxam
ⵄ ⵄ	Ɛ ɛ	ع	ⵎⴰⵙ(ⵔ)ⵓ(ⵔ)	Aɛ(r)u(r)
ⵃ ⵃ	Ḥ ḥ	ح	ⵍⵃⵓⵙⵉⵎⴰ	Lḥusima
ⵀ ⵀ	H h	ه	ⵎⵀⵉⴷⵓ(ⵔ)	Ahidu(r)
ⴰ ⴰ	A a	ا	ⵎⴰⵙⵉⵡⴰⵏ	Asiwan
ⵓ ⵓ	U u	و	ⵓⵔ	Ur
ⵉ ⵉ	I i	ي	ⵉⵏ	In
ⴻ ⴻ	E e		ⵎⴻⵔⵉⵖ	Anerγi(w)

TIFRAZ N ARIF

N°14 Juin 2004

مهد النزاهة

أشواق حسيمية

إخبار

ننهي إلى علم قرائنا الأعزاء أن تيفراز ستحتجب عن الصدور خلال هذا الصيف على أن تستأنف رحلتها مع بداية شهر شتنبر القادم.

مَـا نَعَـتَّقَ بِالْعُيُـونِ فَـاشْرَقَـا
لَمَّا تَرَكْتُ مَـدِينَتِي تَرْجُـو اللِّقَـا
أَغْـضَـيْتُ عَنْ زَمَنِي وَعَنْ حَـدَثَانِهِ
طَرْفِي، وَنِلْتُ بِهَـا مَكَاناً نَاطِقَـا
مَـازِلْتُ فِيـهَـا، رَغْمَ بُعْـدِي، شَـاهِداً
أَنَّ الْبَـقَـاءَ بِهَـا هُنَا قَـدْ أَغْـدَقَـا
ثَمَـرَاتُهَـا فِي الْقَلْبِ مَـنْـدُ حَـاضِرِي
وَلَمَهْـدِهَا هَذِي الْقَـصِـيدَةُ تُنْتَقَى
غُـرَرًا مِنَ الشِّعْرِ النَّمِيرِ سَـفَـحْتُهَـا
فَـمَـلأْتُ كَـأْسِي بِالْمُبَـارِ وَمَـا سَـقَى
هِيَ كُلُّ مَـا لِي فِي الْوُجُـودِ، وَنَاسُـهَـا
وَقَـفُـوا عَلَى عِـشْـقِي لَهَـا مُـذْ أَوْرَقَـا
عَنْهُمْ خَـفِـيتُ لِيُبْـصِـرُونِي آتِيـاً
مِنْهُمْ إِلَيْـهَـا مِنْهُـلاً مُـتَـدَفِّـقَـا
أَيَقَظْتُ فِي لَيْلِ الْبُـرُوقِ تَوَلُّهَـاً
مِنْ أَجْلِهَـا فَـاضَ اشْـتِـيَـاقاً حَـارِقَـا

ثَـمِـلاً بِهَـا أَبْقَى الْقَـصِـيدُ وَعَـتَّـقَـا
طَرَباً يَقُـولُ مَـدِينَتِي: طَابَ اللِّقَـا
بَعْـدَ اشْـتِـيَـاقٍ جَـاءَ فَـجْـرُهُ فَـالْقَـا
أَرْنُـو إِلَى أَنْـوَارِهَـا، أُصْـغِـي إِلَى
هَمَـسَـاتِهَـا، أَفْنَى بِصَـمْـتِي خَـافِقَـا
نُورٌ بِهَـا مَـلأَ الظَّفِـيرَةَ أَنْجُـمَـا
وَالْوَجْـنَـتَـيْنِ تَـوَرُّداً وَتَـأَلُّقَـا!

اسْمُ الْغَـزَامَى يَذْكُـرُ اللَّيْلَ الَّذِي
لَمَعَتْ بِهِ الْبِـيضُ الْحِـسَـانُ بَوَارِقَـا
قَـمَـرُ الْحُـلُولِ بِظُلْمَـةٍ مَـوْقُـوتَةٍ
إِثْرَ النَّهَـارِ تُؤَبِّدُ الْمُتَـأَلِّقَـا
هَذِي الْمَدِينَةُ مَـهْـدُهَا زُلَـالُهَـا
وَهُتَـافُهَـا يَرْمِي الزَّوَالَ صَـوَاعِـقَـا
كَـانَتْ رُمُـوشَ الْبَـدْءِ، تُحْـفَـةَ ثَائِرٍ
مَـلأَ الدُّنَا مَـجْـداً وَوَشَّحَ عَـاشِـقَـا
ظَـلَّتْ هُنَا ظِـلاً وَقَـانِي: هَلْ يَقِي
صَـمْـتِي إِذَا اللَّيْلُ الْبَـهِـي تَرَقْـرَقَـا؟!
تَشْـدُو الشَّـوَاهِدُ بِاسْـمِـهَـا، وَلِذِكْـرِهَا
تَهْـفُـو الْقَـصَـائِدُ، تَسْـتَـعِـيدُ خَـوَافِقَـا
مَـا الْمُـتُ إِلاَّ مَـنْ رَأَيْـتُ بِعُـزْلَةٍ
يَبْكِي الدِّيَارَ، الأَكْـفُـهُ تَتَـحَـرَّقَـا!
أَحْـزَانُهُ كَـيْـدُ الْغَـرِيزَةِ، لَوْ دَرَى
مَـا كَـانَ أَوْلَى النُّورَ غَـيْـرَ اللِّقَـا!

عبد المنعم الأزرق

مكناس، ماي 2000

السعين الثالثة

■ سعيد الغزواني

حرب الأفاعي

بعد مضي أربعة أشهر، بالتمام والكمال، على الزلزال العنيف الذي ضرب إقليم الحسيمة مؤخرا؛ لايزال المنكوبون يخوضون حربا شرسة ضد الأفاعي الحقيقية والمجازية منها (المقصود: الحيوانية والبشرية على السواء).

فبحلول فصل الصيف بحرارته المفرطة، خرجت الأفاعي من جحورها معلنة راية الحرب و"الجهاد" ضد احتلال البشر لفضاءاتها الأليفة وإفساده عليها خلوتها التي ظلت آمنة لآلاف السنين...خرجت لتوها من سجنها بعد اشتداد القيظ بزنازنها، وانقضاء مؤونتها، وتضررها الكبير جراء الجفاف وأيامه العجاف، وأخيرا الزلزال الذي فقدت بسببه فلذات اكبادها الصغار بدون وجه حق... لتتكالب الطبيعة عليها وتزيد من قوة ضغطها وتولد انفجارها.

وبسبب ذلك كله، فإن المنكوبين يتفهمون جيدا كيف أن هذه الحرب المعلنة من قبل هذه الأفاعي هي حرب مشروعة من طرفها، ما دام أن الإنسان هو الذي بدأ بمزاحمة وجودها في الخلاء، في الوقت الذي تدرك فيه بغريزتها أن هذا الخلاء هو قدرها الطبيعي المحتوم. ولذلك أيضا، نجد منكوبينا غير آبهين كثيرا بهذه الحرب التي يعلمون، علم اليقين، كونها حربا ثانوية جدا مقارنة مع حرب الأفاعي الآدمية التي تتجاوز لدغاتها السم المميت الذي تنفثه الأفاعي الحقيقية في السيقان العارية والغضة للأطفال المنكوبين.

والحال، إن الحرب غير المشروعة هي تلك المعلنة من قبل الأفاعي البشرية التي صارت تحنق على منكوبينا وتؤرقهم أكثر. خصوصا لما يأتيهم هذا السم القاتل من أقرب مقربيهم وجيرانهم، أي أولئك الذين كانوا ، قبل أن يصبحوا مسؤولين، بالأمس القريب يطرقون أبوابهم - عندما كانت لهم منازل...واحسرتاه على الزمن!؟ - متوسلين إليهم بالتصويت عليهم، ومقنعين إياهم بأهليتهم وكفاءاتهم و... التي بمقدورها، وحدها، إقامة الحق الموعود بمنطقتهم...وغيرها من الأكاذيب. فوجدت هؤلاء المغلوبين على أمرهم ينهضون من أماكنهم مرتجفين، وطالبين من نسائهم التعجيل بحلب البقرة إن توفرت...المهم هو الشقاء بغاية تحضير "شيء مشرف" يناسب مقام الضيوف ويكون في المستوى المطلوب، أما إذا فاق المستوى فسيكون الأمر أفضل ولاشك.

إن هذه الأفاعي البشرية هي التي تخفي بين فلجة لسانها السم القاتل الذي يشكل خطرا حقيقيا على حياة الفلاحين البسطاء المنكوبين، وهي السبب في كل ما يعيشونه من ماساة قائمة وحيرة دائمة. فمع غروب شمس كل يوم تاتيهم هذه الأفاعي لتقرع آذانهم بسمومها، وفي كل مرة تفعل معهم ذلك، تاتيهم بلون مغاير تماما للسابق، فتارة تدعوهم للمقاطعة وتارة أخرى تعدهم بالعاقبة السيئة إن قاموا بذلك.. إلى أن اشتبه عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما الذي يجب فعله من عدمه. لأنهم ليس بإمكانهم أن يستوعبوا كيف أن ممثليهم هم، في الواقع، يمثلون بهم وعليهم، وليس بمستطاعهم أن يدركوا كيف أن مصلحة المنكوبين لا تقع ضمن اختصاصات وأولويات ممثليهم. وليس بوسعهم أن يثبتوا على موقف لأنه لا موقف لهم أصلا.

بالمقابل، وحده المخزن يعرف جيدا عقلية هؤلاء الممثلين ويفهمها. حيث عمد إلى تحويل المساعدات المالية التي كانت تمنح في شكل صك لا يصرف إلا بالتوجه صوب مصلحة البريد، ليصرفها بنفسه ويضعها بين أيدي الممثلين الجماعيين بغرض إرضائهم ونتف بركتهم (بشكل قانوني طبعا!)، وبالتالي إقناعهم أو قل إسكاتهم. فالمهم بالنسبة لبعض هؤلاء الممثلين هو أن يمثلوا سلطتهم على البسطاء المنكوبين، وهي فرصة أخرى لابتزازهم والظهور أمامهم بمظهر المسؤولين الذين بوسعهم أن يعطوا أو ينزعوا وفق أهوائهم...وهذا أساسي في اعتبارهم.

وبسبب ذلك كله، ترد علينا الآن أخبار هؤلاء المنكوبين الذين استلموا نصيبهم من المال واكتشفوا، بعد التوقيع، أنهم ضحايا غش في الحساب...ليعودوا إلى ممثليهم ملتمسين استكمال الحساب الناقص، ويواجهوا بما يلي: "هل تريدون القول بأننا لصوص..؟يا للزمن المر..! إننا نضحي بأوقات أطفالنا ونقاتل ضد المخزن كي تاتيكم بهذه البركة..و إلا ما كان بيدكم أن تاخذوا فرنكا واحدا...ولكن أنتم مغفلون وأشقياء...وستظلون طول العمر كذلك؟!".

أي نعم..يحصل هذا كله والأرض لا تزال تلعب أرجوحتها صعودا ونزولا فوق حبال سلم ريشتر...

منير "شابلين"

يرحب بكم

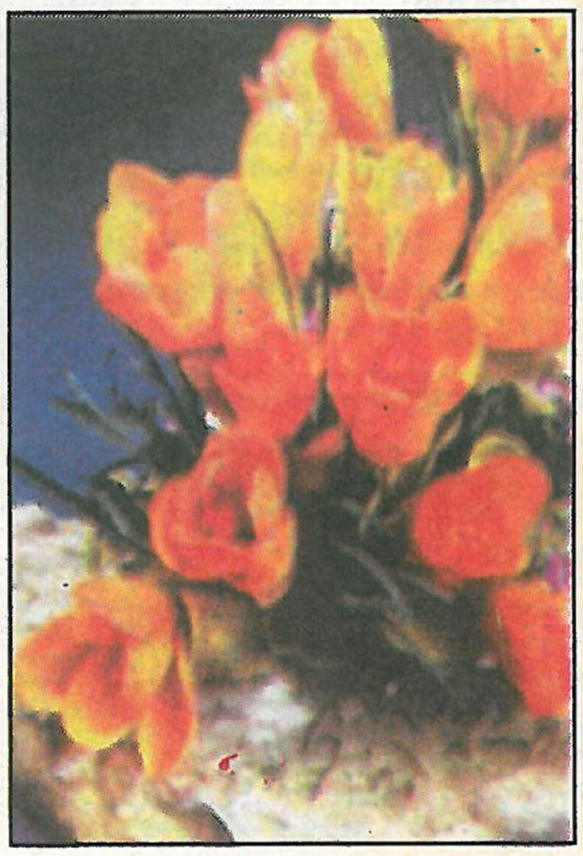
بيع لوازم المصنوعات اليدوية المختلفة بأثمنة مناسبة

مواد الرسم على الزجاج، الخزف، الخشب، الثوب...

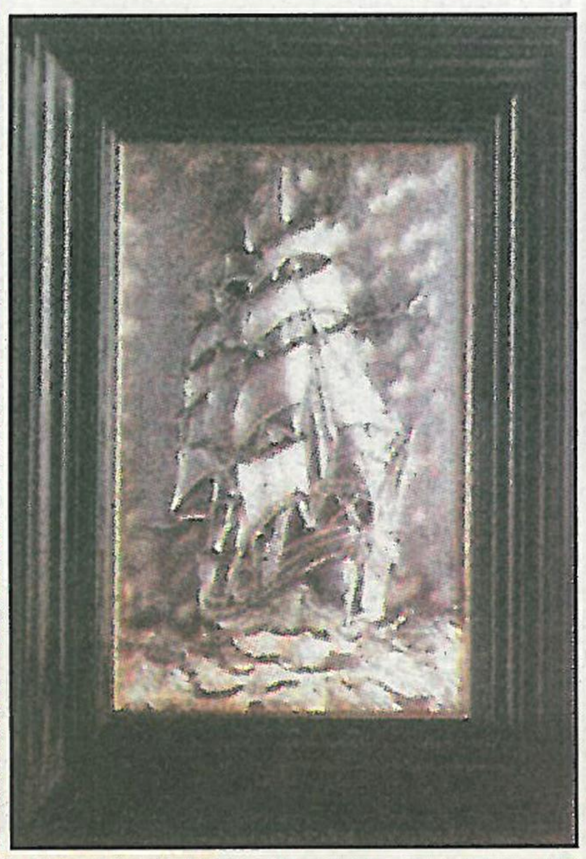
مواد صباغة ثلاثية الأبعاد (tres dimesiones)

أدوات العجينة (porcelana)

مواد النحت على المعادن (estano)







شارع مولاي ادريس الأكبر
- رقم19 الحسيمة
الهاتف:GSM: 061-77-79-62
FIX:039 98 59 23